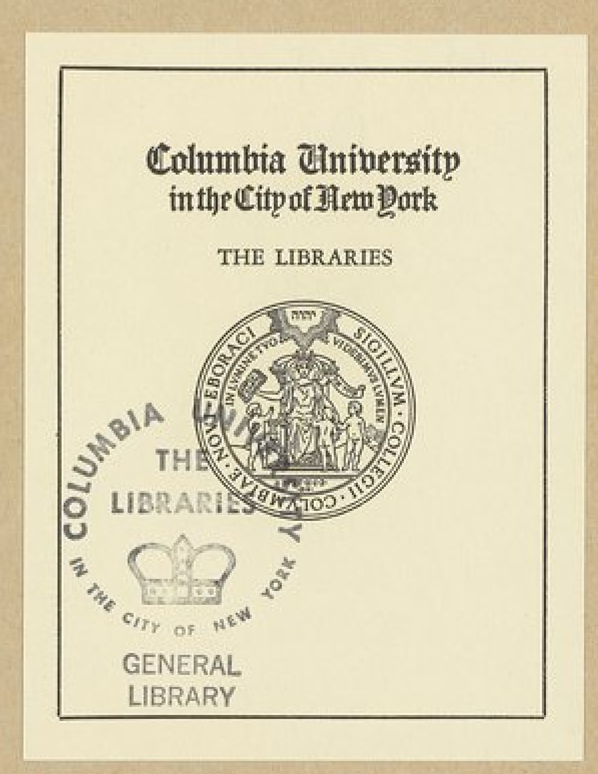


أخبار الراضي بالله والمتقي لله

أو تاريخ الدولة العباسية من سنة ٣٢٢ إلى سنة ٣٣٣ هجرية

من كتاب

الأوراق

لأبي بكر محمد بن يحيى الصولي

عني بنشره

ج . هيورث . دن

بمدرسة اللغات الشرقية بلندن

بمساعدة أوصياء ذكرى ا . ج . و . جب بلندن

مطبعة الصاوي

بشارع درب الجماميز رقم ١٠٢ بمصر

الاهداء

إلى من فتق لسانى باللغة العربية ، وغمرنى بروحها ، وملأ أحساسى بعظمتها وإكبارها ، وفتن روحى بجمالها ، وغذانى بروائع أدبها ، ورصين عبارتها .

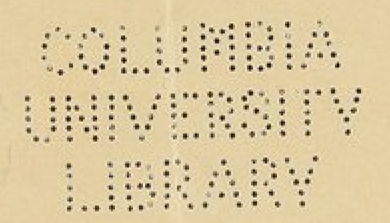
وما زال يتعهدنى ، حتى جعل منى إنسانا كرس حياته لدراستها وخدمتها ، وإحياء آثارها ، والعمل على إنعاشها .

إلى الأديب الفاضل الذى يعمل فى دعة وهدوء مالو تظاهرت الجماعات على عمله لأكبرتها الأجيال .

إلى والدى الروحى ومبعث سعادتى ، وسر هنائى .

إلى سعادة مصطفى بك رفعت المستشار السابق بمحكمة الاستئناف اهدى هذا القسم ؟

ج . هيورث . دن



مقدمة الناشر

فى صيف سنة ١٩٣٤ أخرجت قسم أخبار الشعراء المحدثين من كتاب الأوراق لأبى بكر محمد بن يحيي الصولى ، وكان إخراج هذا القسم باكورة عملى ، وقد لقيت من تقدير أفاضل المستشرقين ، وجلة العلماء فى مصر ، وثنائهم على ذلك القسم وإعجابهم به ما حفزنى على أن أقوم فى هذا العام بنشر الأقسام الباقية التى عثرت عليها من كتاب الأوراق .

وقد بدأت بهذا القسم الذى أقدمه اليوم بين يدى حضرات العلماء وهو قسم أخبار الراضى بالله والمتقى لله

وأظن أنه لا حاجة بالباحث إلى أن أذكر له فى مقدمتى هذه قيمة هذا القسم فى التاريخ العباسى ، ولا أن أوقفه على مكانة الصولى مؤلفه ولا ما تناوله فيه من حوادث شاهد أكثرها بنفسه ، وكان دقيقا فى رواية ما لم يشهده منها .

وأرى أن خيرا له أن يرجع فى هذا كله إلى القسم نفسه فيقرأه كما قرأته فى إنعام وتدبر ، ولعله يصل بعد ذلك إلى هذه النتيجة التى وصلت إليها أو عكسها أو قريبا من هذه وتلك .

فأنا لا أريد أن أحمل الباحث على رأى ربما انقـــدت لبعض

الأهواء فيه ـ فالحق أنى مفتون بالكتاب إلى حد الاعجاب ، إنما أريد أن أجعله حراطليقا

ولكنى مع هذا أرى أنه لابد أن يكون للكتاب مقدمة ، فلتكن إذا فى وصف المخطوط ، تلك هى الناحية التى لا تتهيأ إلا لبعض الأفراد الباحثين .

وصف المخطوط

هما مجلدان فى دار الكتب المصرية أحدهما قسم أخبار الشعراء الذى نشرته فى العام الماضى وثانيهما هذا القسم

ومع أن أولها فى الأدب وثانيهما فى التاريخ وورد الدار فى عهد متأخر عن الأول فقد حفظ كلاهما برقم واحد هو ٣٥٢٠٠ أدب ،

ولعل لاعطائهما رقماً واحداً سرا يفهمه الذين فى دار الكتب فقط ، أما نحن فلم نوفق حتى الآن إلى كنه هذا السر

ولكنا فى الغالب كنا حينما نريد قسم أخبار الراضى يأتينا قسم أخبار الشعراء ، وحينما نريد قسم أخبار الشعراء يأتينا قسم أخبار الراضى ، وهكذا نريد مالا يأتى ويأتى مالا نريد .

وقد لفتنا هذا إلى أنه يجب أن نصف هذا القسم وصفا يميزه من الآخر

وأول مايلاحظ أن قسم أخبار الراضى بالله والمتقى لله مأخوذ بالتصوير الشمسى عن نسخة فى مكتبة شهيد على بالاستانة . وقد كتب

« كتاب الاوراق

لأبى بكر محمد بن يحيى الصولى

المتوفى ٣٣٥ هـ »

فى أول وجه من الورقة الأولى

وفى الوجه الثانى

« ترجمة مؤلف هذا الكتاب أبو بكر (١) الصولى »

ثم ترجمة له قصيرة تقع فى نحو ثلاثين سطرا ، تضمنت حادثة له فى قرض الشعر ، وذكر مؤلفاته وتنتهى فى الوجه الأول من الورقة الثانية

وفى الوجه الثانى من الورقة الثانية كتب بخط عريض :

« الجزء الثالث من كتاب الاوراق

تأليف أبى بكر بن(١) محمد بن يحيى بن عبد الله الصولى

رحمه الله »

وهو بخط مغاير لخط النسخة ، ولذلك نرجح أن هذا القسم إن لم يكن الجزء الخامس فهو الرابع لأن الثالث بيقين أو الرابع على الظن موجود فى مكتبة الأزهر ، وقد ذكرنا هذا فى مقدمة القسم الذى سبق نشره

وحول هذه الجملة نجد اثنى عشر توقيعا لمـــلاك وعلماء مختلفة عصورهم وأشخاصهم ، وهم بعض الذين تعاوروا هذا القسم ملكا أو

١ - كذلك كتب الناسخ فى الموضعين

اطلاعا ، وبعضهم دون تاريخ اطلاعه عليه أو ملكه له ، وقد سجلناها كلها فى ما يأتى ورمزنا لما لم يظهر لنا بأصفار ، وهى على غير ترتيب.

« استصحبه الفقير عارف كان الله له »

« عسى لثمان . . . يبلغه وان الممتد فى شهر رمضان . . . وستمائة »

« انتقل إلى الشيخ محمد بن حسين المقرىء الحنفى فى شهر صفر سنة أربع وثلاثين وستمائة »

« ملكه من فضل الله تعالى محمد الأزدى الشافعى »

« انتقل الآيل للامير بن مماتى . . . غفر الله ولجميعه »

« بتركة الشمس محمد بن حسين . . . . الفقيه الحـ . . الحنفى غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين »

« انتقل إلى أبى بكر بن الرشيد الجمال ١٣٥ » (١)

« انتقل بخاتم ابن الناسخ الشرعى سليمان .... بن محمد بن أبى بكر ابن الحسينى .... ومعه رسم الميرة .... فى المرسى بعمورية .... المحروسة خامس عشر من المحرم سنة اثنتين و . . . وستمائة »

« الحمد لله طالع فيه أحمد بن على بن عبد القادر بن خضر الدمامينى سابع عشرى ربيع الأول على أربع وتسعين وثمانمائة »

« انتقل هذا الجزء بحكم البيع من تركة حسن العصاره فى مستهل سنة ست وسبعين وستمائة ليدى »

« فى نوبة الفقير محمود الصديق السرورى »

---

(١) لعلها سنة ٦٣٥

« انتقل بحكم ... محمود المذكور ... إلى العبد الفقير إلى الله تعالى حسن بن على .. الحموى »

« وكذلك كتب فى حاشية فى أعلى الوجه الثانى من الورقة الثانية من الجهة اليمنى بخط دقيق « يرى الاعسار مفتقد الابناء والصحب »

ونستنتج من هذه التوقيعات أن النسخة قد تداولها القراء من بدء القرن السابع ، ونرجح أنها كتبت فى صدره ، وظلت كذلك حتى آخر القرن التاسع ، وقد قرأها علماء أفاضل

كما نلاحظ أن الذين تعاوروها كانوا عليها أمناء ، فقل أن تجد فيها أثرا لأحدهم أو تعليقا أو غير ذلك مما ألفه الناس وشوهوا به بطون الكتب . غير أننا نجد مكتوبا بين التعليقات التى سردناها كلمة « بسم الله » بخط مفرغ وكأن كاتبها أراد تجويد خطه

ولعل لرداءة كتابتها سرا فى أن الذين حازوها لم يقرأوها وفيهم من تعلم نبالة وفضل مقدار

فمن العسير جدا أن يمضى فيها قارىء بلا توقف ، ومن النادر لا يبدى قارئها عجزه ويعلن إفلاسه ، ولن يذهب بغيظنا وآلامنا أن نكيل لناسخها صنوف اللوم .

وقد حدث أثناء تصوير الكتاب فى الأستانة تقديم وتأخير فى بعض المواضع كما حدث أثناء تجليد الكتاب فى دار الكتب المصرية تقديم وتأخير ، ولكن الخطأ الذى حدث فى التصوير خطأ يضلل

القارىء ويوقعه في حيرة وارتباك .

وقد راعينا ناحية المعنى وانسجامه وترتيب الجمل وأهملنا ترقيم الكتاب فى ثلاثة مواضع خطأ يظهر أنه كان عن قصد وسوء نية ، وفاتنا أن ننبه على مواضع التقديم والتأخير أثناء الطبع فى ذيل الصفحات ولذلك نرى أنفسنا مضطرين إلى الاشارة اليها هنا .

ينتهى الوجه الأول من صفحة ٨٤ بما يأتى :

فى أخبار سنة تسع وعشرين وثلاثمائة « وظهر ما كان سا كنا فى الجانب الغربى وانضم اليهم وأعانهم العامة وكثروا معهم وقصد الجميع النجمى فجلس الوزير فى طيار وانحدر جميع أصحابه فى »[1] ويبدأ الوجه الثانى من الصفحة ٨٤

« الظهر من يوم الثلاثاء ثانى اليوم الذى خلع على القراريطى فيه للوزارة وأمر بالنداء فى العامة بلعن البريديين »

ثم يأتى بحوادث سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، وسنة اثنتين وثلاثين وثلاث وثلاثين إلى أن ينتهى الوجه الأول من الورقة ١٠٤ بقوله

« واستلب كيس رجل يعرف بغلام ابن الأبوارى الصيرفى مع المغرب وفيه خمسة آلاف دينار ليلة الجمعة لأربع [2] »

ويبدأ الوجه الثانى من الورقة نفسها :

« طياراتهم وزبازبهم ودفعت الخراقة وتشبث بها قوم من الملاحين »

١ — راجع صفحة ٢٠٣ س ١٢ من المطبوع ٢ — راجع صفحة ٢٧٦ س ١٨

ثم يأتى بحوادث سنة ثلاثين وثلاثمائة إلى أن يكون آخر الوجه الأول من الورقة ١١٢

« وكان الترجمان يزعم أنه هو الذى اصلحهم له وأفسدهم على السلطان فقووا نفسه وزينوا له ورود الحضرة فركب المتقى لله »

بينما يذكر فى الوجه الثانى من الورقة عينها

« بقين من المحرم وكان الكيس على رأس حمال وصاح الرجل والحمال فرماهم الناس بالآجر ورماهم اللصوص بالنشاب »

فواضح أن هذه الفقرة الأخيرة تتمة لما جاء فى آخر الوجه الأول من ورقة ١٠٤

والفقرة التى آخرها فركب المتقى لله تتمتها فى أول الوجه الثانى من الورقة ٨٤ وعلى هذا ترى المعنى استقام والاعوام انتظم سردها

ويقع هذا القسم ١٥١ فى ورقة ولم يذكر فى آخره ولا فى أوله اسم كاتبه

ووجد فى الورقة الثالثة ختم فيه « مما وقفه الوزير الشهيد على باشا رحمه الله ، بشرط أن لا يخرج من خزانته »

وقد ألحقنا بهذا القسم صفحتين من الأصل كنموذج يصور للناقد والمتعقب المصاعب التى عانيناها ، عله يعذرنا ويخفف من حدته علينا إن رأى منا عزوبا عن القصد

على أننا نتقبل بصدر رحب ملاحظات الناصحين المنصفين ، ونرجو أن ننتفع بها فيما نصدره بعد من أجزاء ، والله ولى توفقينا .

كلمة شكر وثناء

هذا وليس يسعنا إزاء الفراغ من إخراج هذا القسم إلا أن نسدى وافر الثناء إلى « جماعة أوصياء ذكرى ا . ج . و . جب بلندن » على ماقامت به من مساعدات فى انجازه

كما نشكر لسعادة مصطفى بك رفعت مساعداته الأدبية القيمة وكذلك حضرة الصديق الفاضل الأستاذ محمد اسماعيل الصاوى على مابذله معى من عناء فى تصحيح الكتاب وإتقان طبعه وحضرات أمناء دار الكتب المصرية الأفاضل فلهؤلاء جميعا منا عاطر الثناء ؟

ج . هيورث . دن

لندن فى العاشر من يونيو من عام ١٩٣٥ م

فهرس الكتاب

تصويب

أخطاء خالفنا الأصل فى بعضها اثناء الطبع، ورأينا أن نعدل فى بعضها الآخر عن الأصل مؤثرين المعنى وقد اشرنا الى النوع الأول بهذه العلامة (ـ) لتميزها من النوع الثانى

	صفحة	سطر	الصواب
ـ	١	١٠	توكل
ـ	٤		رقعة
	٥	٨	درهم لتسميته
	٦	٤	كتب لا ينبغى
ـ	٨	٦	رأتنى صريع « مع حذف اذا » واحتمال نصب صريع ورفعها
	١٠	١٠	واجتماع بوفق عزم
	١١	١	منه حياة
ـ	١١	٢	رسم طبقا للاصل
	١٥	٣	المُخِلّ بالاحماض
	١٦	٣	نضناض
ـ	١٩	٥	ابن قرابة ، ١٢٦١
ـ	٢٤	١٠	طاب أصلا
	٣٤	٩	غزروا كالجراد
	٤٨	٣	لَيْسَ يَجْرى بِحَلْبَةِ اللّهوِ
ـ	٥٣	٤	لِلْهَوَى
ـ	٥٣	٥	هَجْرَكَ
ـ	٦٧	١٨	فقال انى مقتول
ـ	٦٨	١٥	وبانسا المؤنسى

صفحة	سطر	الصواب
٧٣	٩	وابن الأولى كانوا
٨٣	٨	المفلس الفقيه
- ٨٣	١٥	خلون من رجب
١٠١	٤	وزوج الوزير
١٠٧	٥	مضى لبجكم شهران
- ١٣٠	٤	فقال لراغب
- ١٣٣	١٥	لابن الحسن
١٣٨	١٣	ثمان وعشرين
- ١٤٢	٥	وابا محمد
١٥١	١٣	السادة النُّجُب
١٨٦	٧	رحل احمد
- ١٩١	٦	وجعل حاجبه
١٩٦	٢	العروضى والبريديين
- ٢٠٤	٣	المعروف بالقراريطى
٢١٦	١٣	برفع الدنانير
- ٢١٨	٥	احتجت أن استتر
- ٢٢٧	٦	الموصل ووافى تكريت
٢٢٩	٢	عياراً كالسندى
٢٣٥	٢	هزم ناصر الدولة
٢٣٦	١٠	حاجبه يروخ
٢٤٦	٦	ابو المهدى البريدى
٢٤٨	٢٠	احمد بن جعفر الشرطى
٢٥٠	٢	تكين الشيرزادى
٢٨٤	١٨	وكورها وقشير

[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

أخبار الراضى بالله

قال أبو بكر محمد بن يحيي الصولى: قد فرغنا ولله الحمد من ذكر أخبار القاهر والأحداث فى أيامه، ونحن نذكر الآن بيعة الراضى بالله، وما كان من أمره، والأحداث فى أيامه إن شاء الله

ولما خلع القاهر فى يوم الأربعاء، لست خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة أخرج الحجرية والساجية محمد بن المقتدر بالله ويكنى أبا العباس وأمه أم ولد يقال لها ظلوم فى هذا اليوم على ثلاث ساعات من النهار. وكان فى الخلافة هو وأخوه هارون على سبيل توكيل بهما من القاهر فأجلسوه على السرير، وبايعوه بالخلافة مختارين له مجتمعين عليه، من غير أن يواطئهم على ذلك ولا كانت بيعتهم مراسلة فيه إلا ما كان يعلمه من كراهيتهم لأمر القاهر وانهم فى وحيه عليه[1]

وتولى التدبير فى ذلك رجل من الساجية، يعرف بسيما المناخلى إلى أن تم، فأجلس محمد بن المقتدر على السرير، وجلس القاهر بالله فى بيت بقربهم وأمر الراضى بالتوكل به والاحتياط عليه، ولم يعش المناخلى بعد هذا إلا أقل من مائة يوم.

وكنت فى هذا اليوم قد أخذت دواء لحاجة إليه، وشىء وجدته،

(١) فى الأصل «فى وحيه عليه» ولعل الصواب فى وجبة عليه

وعلم بذلك الأمير أبو العباس قبل أن يتسمى بالراضى بالله، فجاءنى رسوله يأمرنى أن أوجه إليه بالأسماء التى ينعت بها الخلفاء، وتكون أوصافاً لهم، وإنى لأعجب من إطباق الناس على تسميتها ألقابا فيقولون لقب بكذا وهذا عندى خطأ كبير، وزلل عظيم، لأن الألقاب مكروهة ومنهى عنها فى كتاب الله جل وعلا، وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال الله جل وعز «وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ» (١) فوجهت إليه برقعة فيها ثلاثون اسما، ليختار منها ما يريد، وأشرت عليه فى رقعتى أن يختار منها المرتضى بالله، ولم أشك فى اختياره له، وابتدأت من وقتى فعملت أبياتا ضادية قافيتها المرتضى، على أنى أنشده إياها وهى :

أَثْبَتَ الرَّحْمنُ بالسَّعدِ المُضِى   دولَةً قائِمَةً لا تَنْقَضِى
لأبى العبَّاسِ -عفْواً- ساقَهَا   قَدَرُ اللهِ -الإمامِ المُرْتَضى
دَوْلَةٌ يأْمُلُهَا كُلُّ الوَرى   مَالَهَا إنْ ذُكِرَتْ مِنْ مُبْغِضِ
كَانَ وجهُ المُلْكِ مُسْوَدًّا فَقَدْ   قَابَلَ اللَّحظَ بوَجْهٍ أَبْيَضِ
يا أَمينَ اللهِ يا مَنْ جُودُهُ   إنْ كَبَا دَهْرى بحَظِّى مُنْهِضِى
غَلَبُ الوَجْدِ وفقدانُ الرِّضَى   وكِلَا جسْمِى بِهِمِّ مُمْرِضِ (٢)

(١) كتب بهامش الأصل ما صورته «الألقاب لا كراهة فى جميعها، وإنما الكراهة فيما تضمن سوءا منها، قالوا اللقب ما أشعر بمدح أو ذم فالمكروه إنما هو الثانى

(٢) الغلب والغلبة القهر

كَانَ حَظِّى بِكَ نَحْوِى مُقْبِلًا   فَانْثَنَى عَنْـــهُ بِوَجْهٍ مُعْرِضِ
أَقْرَضَ الدَّهْرُ شَبَابِى شَيْبَةً   لَمْ أَكُنْ أَطْلُبُهَا مِنْ مُقْرِضِ
لَيْسَ لِلشُّهْبِ إِذَا مَا جَارَتِ الـــدُّهْمَ فِى سَبْقِ الْهَوَى مِنْ رَائِضِ (١)
أَسِفَتْ نَفْسِى عَلَى قُرْبِى الَّذِى   كَانَ مِنْ يَوْمِ احْتِفَالِى مُغْرِضِى (٢)
لَكَ عَبْدٌ مَسَّهُ بَعْدَكَ مَا   وَكَّلَ الْجِسْمَ بِدَاءٍ مُحْرِضِ (٣)
قُضِىَ الْبُعْدُ عَلَيْهِ كَارِهًا   لَا يَرُدُّ النَّاسُ أَمْرًا قَدْ قُضِى
كُلَّ يَوْمٍ يَنْتَضِى سَيْفَ أَذًى   بِالتَّكَاذِيبِ عَلَيْكُمْ مُنْتَضِى
مَا يُبَالِى إِذْ رَأَى فِيكَ الْمُنَى   غَضِبَ الدَّهْرُ عَلَيْهِ أَمْ رَضِى

وهذه الأبيات لم تَهِن بها المدة، ولا راضها الفكر. وإنما قيلت مقتضية فليست بالمختارة، وإن صفرت من العيب. ولولا أن الحاجة دعت إلى ذكرها ما ذكرتها، وسيمر بعون الله من جيد الشعر فى أوقاته ما يعفى عليها إن شاء الله.

فلما فرغت منها جاءنى رسوله برقعة منه يقول فيها:

«قد كنت عرفتنى أن إبراهيم بن المهدى لما بويع أيام الفتنة بالخلافة

---

(١) فى الأصل من ثراض وهو تصحيف

(٢) الغرض الهدف يرمى بالسهام (٣) فى الأصل محوض وظاهر أن الأصح محرض ومعناه المسقم المضنى

أراد أن يكون له ولى عهد فأحضروا منصور بن المهدى وسموه المرتضى، وما أحب أن أتسمى باسم قد وقع لغيرى، ولم يتم له أمره، وقد اخترت الراضى بالله » فكنت أشكر الله على ما وفقه له ووهبه فيه فمضى اسمه على ذلك، ومازال الناس يبايعونه بقية يومهم.

ووجه من وقته فاستحضر أبا الحسن على بن عيسى، ومعه اخوه أبو على عبد الرحمن بن عيسى بالنظر فى الأمور، وأراده للوزارة فاحتج بكبر وضعف وأقرها(١) إلى أخيه بذلك، وأن يكون الاسم والخلعة له، ويتولى هو النظر فى أمر الملك وتدبير الناس وجباية الأموال على كره منه لذلك وتغلب، لما رأى من تعذر مال البيعة إلا أنه كتب بالبيعة إلى النواحى ونظر فى المهم الذى يوجبه الوقت. ومعه أخوه معرفاً له ما يعمل، ومستأذناً له فيه. إلى أن وافت رقعه أبى على بن مقلة إلى سيما المناخلى، يتضمن له أنه يحتال فى وقته خمسمائة ألف دينار يصرفها فى الرجال للبيعة، ويتضمن له إن أتم ذلك خمسمائة ألف دينار لنفسه.

وكان المتولى لايصال الرقعة إلى المناخلى كاتب له حدث، يعرف بعلى بن جعفر وضمن له ألفى دينار معجلة وأضعافها مؤجلة، فصار المناخلى بالرقعة بضمان الخمسمائة ألف دينار(٢) إلى الراضى بالله، فلما وقف عليها أحضر على بن عيسى وأقرأه إياها فقال له: أمير المؤمنين

(١) هذه الكلمة غير واضحة والاصل يحتمل ماذكرنا

(٢) فى الأصل الخمسمائة الألف الدينار

فى هذا الوقت محتاج إلى زكاة هذا المال! وما عندى وجه لبعضه! والصواب إن صح هذا المال أن يمضى أمر هـــذا الرجل ويستكتبه وانصرف، فجلس فى منزله فكان الراضى بعد ذلك يقول: «لم يتحصل لنا من الخمسمائه ألف دينار درهم، وأخذ من أموالنا وأموال الناس مثلها».

واختير أبو على محمد بن على للوزارة يوم السبت لتسع خلون من جمادى الأولى، وخلع عليه وركب الناس معه إلى داره، ولقينى أبو سعيد ابن عمرو الكاتب - كاتب للراضى قبل الخلافة - وكان أخص الناس به فقال لى إن أمير المؤمنين قد أمرنى بإعطائك عشرة آلاف درهم لتقسيمه وما عندى دراهم، فلا تلح على ودعنى أدفعها إليك فى مرات قلت فعجل منها ما ترى فأعطانى ثلاثة آلاف(١) درهم ووفانيها بعد شهرين.

وبلغ الراضى بالله أن هارون بن غريب خال المقتـــدر بالله مقبل إلى بغداذ فكره ذلك وما كان بصافى النية له، لأن الراضى بالله كان فى حجر مؤنس المظفر، وكان العباس بن المقتدر فى حجر الخال ثم فى حجر ابنه هارون بعده، فكان يتهمه بإيثاره عليه. ولأنه كان أيضاً منحرفا عن جدته شغب أيام حياة أبيه، ثم رأيت من ذكره لها فى خلافته وتحننه عليها ما كنت أسمع ضده منه فى أيام إمارته، وكذلك عاد منه كل تشعيث كان قديما نفث به فى أبيه مدحا وتقريظا، ووصف محاسن. وإنى لأذكر يوما فى إمارته وهو يقرأ على شيئاً من شعر بشار وبين يديه كتب لغة وكتب أخبار إذ جاء خدم من خدم جدته السيدة فأخذوا

---

(١) فى الأصل ثلاثة ألف درهم

جميع ما بين يديه من الكتب نجعلوه فى منديل دبيقى كان معهم ، وما كلمونا بشىء ومضوا فرأيته قد وجم لذلك واغتاظ فسكنت منه وقلت له ليس ينبغى أن ينكر الأمير[1] هذا فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر فى كثير لاينبغى أن ينظر فى مثلها، فأحبوا أن يمتحنوا ، ذلك وقد سرنى هذا ليروا كل جميل حسن ، ومضت ساعات أو نحو ذلك ثم ردوا الكتب بحالها.

فقال لهم الراضى « قولوا لمن أمركم بهذا قد رأيتم هذه الكتب وإنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار وكتب العلماء ، ومن كمله الله بالنظر فى مثلها وينفعه بها ، وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر ، وحديث سندباد والسنور[2] والفأر » .

وخفت أن يؤدى الخادم قوله ، فيقال : من كان عنده ؟ فيذكرنى فيلحقنى من ذلك ما أكره إلى ما لى عندهم مما سأذكره والسبب فيه فى موضعه من أخباره إن شاء الله فقمت إلى الخدم فسألتهم ألا يعيدوا قوله فقالوا : والله ما نحفظه فكيف نعيده !

فكتب الراضى بيده إلى هارون بن الخال أن يقيم بمكانه ولا يتجاوز ذلك إلى ناحية الحضرة ، ويعده أنه يأذن له فى القدوم عليه فى الوقت الذى يراه صلاحا ، فكتب جوابا عن هذا الكتاب بأنه جاء محتاطاً مشفقاً من أشياء قد بلغته وأقلقته وأقبل حتى نزل النهروان

(١) فى الأصل : أن ينكر اللامير هذا

(٢) فى الأصل شنديار والسنور

فاشتد ذلك على محمد بن ياقوت وكان قد حجبه وملك على الوزير محمد بن على، فندب الراضى الناس للخروج مع ابن ياقوت لمحاربته من غير أن يرى ابن الخال أنه يحب قتاله وإنما أحب تأخيره مديدة استيطاراً[١] منه لأنه لم يدر كيف تؤول الأمور. فلقيه ابن ياقوت بنهر بين بقرب النهروان، فقتله واحتز رأسه فجيء به الى الراضى فأظهر سرورا بذلك وسلمه إلى أهله فدفن بقرب قبر أبيه فى قصر عيسى بن على فى الكرخ فى الجانب الغربى.

وخلع فى يوم الأربعاء لست بقين من جمادى الآخرة سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة على محمد بن ياقوت لقتله ابن الخال وطُوِّقَ وسُوِّرَ. وخلع فى يوم الخميس بعد ذلك بيومين على الوزير محمد بن على لمعاونته على ذلك

وكان قتل هارون بن غريب فى يوم الثلاثاء لسبع بقين من جمادى الآخرة وإلى هذا الوقت فما ذاكر الراضى [أحداً][٢] من الجلساء ولا جالس ولا كان يشرب النبيذ ولا يوافقه، وكنت أحسن تركه وكان فى إمارته ربما اشتهى أن يصل مجالسه ويبر من يحضره ويشرب اليسير منه، فيتأذى بذلك وما زال ذكياً فطناً لقناً لما يسمع بحضره ما يريده من غير فكر فدعا يوماً أخاه هارون وكانا نفساً واحدة فى جسمين فى ايام ابيهما، مكتبهما واحد وأمرهما واحد، يقدم طباخوه الطعام اليهما شهراً ثم يقدمه فى الشهر

---

(١) هى من الطيرة وهى ما يتشاءم من الفأل

(٢) ما بين المربعين زيادة اقتضاها السياق

الآخر طباخو أخيه هارون . وكان فى حجر نصر الحاجب وكان بره به أكثر من بر الباقين بالأمراء الذين فى حجورهم فدعا يوما أخاه هارون إلى الثريا فشرب هارون وأحب أن يساعده فدخل فى النبيذ الى أن غيره وكان يقرأ على شعر أبى نواس فى تلك الأيام فأنشدت معرضاً به بيتا لأبى ذؤيب:

إِذَا رَأَتْنِى صَرِيعَ الْخَمْرِ يَوْمًا فَرْعَتَهَا   بِقُرْآنَ إِنَّ الْخَمْرَ شَغْبٌ صِحَابُهَا

ففطن لما أردت ، فقال لم أقرآتنى بالأمس قول أبى نواس :

فَمَا الْعَيْشُ إِلَّا أَنْ تَرَانِى صَاحِياً   وَمَا الْعُمْرُ إِلَّا أَنْ يَتَعْتَعَنِى السُّكْرُ

ثم قطع ، وانصرف. فلما فرغ قلبه من أمر ابن الخال وجه إلى، من هاهنا ممن جالس الخلفاء ، وممن يصلح أن يجالسنى ؟» فوجهت اليه : إنه لم يبق ممن جالس الخلفاء غير إسحاق بن المعتمد ، وهاهنا من رسم بالمجالسة وما جالس بعد ، مثل محمد بن عبد الله بن حمدون ومثل ابن المنجم . فقال: قد عزمت على الجلوس وتقدم بإحضار الجماعة ، وأمر أن يكون فيهم أحمد بن محمد المعروف بالعروضى ، واليزيديان إسحاق وعلى ابنا إبراهيم، وكانا يعلمان الجماعة الخط، وكان العروضى مرسوما بتأديب أبى إسحاق المتقى بالله أمير المؤمنين ، وأخيه على رسمه بذلك والمعروف بابن غالب، وكانت رياسة التأديب اليه لأن الزجاج النحوى كان ندب لتأديب المقتدر بالله فاستخلفه فغلب على الأمر وحظى به دون الزجاج ، ووهب له وأقطع لما ولى المقتدر ما أغناه وكفاه. فرسم العروضى بهذين، ورسم أبا عبد الله محمد بن العباس اليزيدى بتأديب الراضى وأخيه

هارون، ورسم لتأديب العباس بن المقتدر رجلا آخر يعرف بابن غدانة العمانى.

ثم إن على بن المقتدر توفى فكان العروضى يصير إلى الراضى وأخيه هارون فيكرمانه، وتوفى اليزيدى وابن غالب قبل خلافة الراضى بالله. فلم يكن يجلس اليهما غيره، وغير على بن إبراهيم اليزيدى، على نوبة وملازمة.

ورسم لتأديب عبد الواحد بن المقتدر المعروف بابن الأنبارى النحوى فأمر الراضى أن يحضر الجماعة الدار فى مستهل رجب سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة ليجالسوه وأحضرنا وأمر بأن يكون ترتيب جلوسنا على ما أنا أذكره — رسم أن يكون على يمينه أقربنا إليه إسحاق بن المعتمد، ثم أكون أنا تالياً له، ثم يكون العروضى تالياً لى، ثم يكون ابن حمدون تالياً له، ثم يجلس الباقون عن يسرته على ترتيب ربما اختلف

فكنا فى المجلس فى أول جلسة جلسها أربعة عن يمينه، كما ذكرت وخمسة عن يساره وهم: يوسف وأحمد ابنا يحي بن المنجم، وعلى بن هارون بن على بن يحي واليزيديان إسحاق وعلى ابنا إبراهيم، وكان قد أمرنى أن أعمل أبياتى الضادية على قافية المرتضى قصيدة ضادية غيرها على قافية الراضى، فعملتها فلما وصلنا اليه فى ذلك اليوم أنشده أحمد بن يحي وعلى بن هارون قصيدتين يهنيانه فيها بالخلافة، ويصفان سرورهما لاغتباطهما فاستمعهما وأظهر استحسانهما، ثم أمر بإنشاد

الضادية فأنشدته أياها، وأنا أذكرها هاهنا لأنها ليست من الشعر الذى يأباه القلب ويمجه السمع، وفيها مدح لابن ياقوت وللوزير وهى:

أصبح الملك عاليا بأبى العـ   ـباس أعلى الملوك بعد انخفاض
واستفاض السرور فى سائر الـ   ـناس بملك المهذب الفياض
رضى الله هديه فاصطفاه   فهو بالله والمقادير راضى
من غذته العلوم يرتع منها   فى جنان أنيقة ورياض
كمل الفضل والفضائل فيه   قبل عشرين من سنيه مواضى
فهو بالعلم والتفرغ فيه   خير آت من الملوك وماضى
خطرت نحوه الخلافة طوعا   باتفاق من الورى وتراض
واصطفاق من الأكف دراكا   واجتماع موف وعزم مفاض (١)
مرض الدين قبله وأتاه   بارئا عنده من الأمراض
واستلذ الزمان إذ أسفر الملـ   ـك وجلى سواده ببياض
واجد بالعلوم وجد محب   راعه من يحب بالإعراض
يرد الناس منه أغدار جود   طيب الورد مترع الأحواض

---

(١) فى الاصل: واجتماع (موفـو عزم) ويظهر أن الزيادة التى رسمت بعد الفاء هى واو عزم

حَمِدُوا من مُحَمَّدٍ حُسْنَ مُلْكٍ … بتقضّى حقّ الْوَرَى وتَقَاضِى (١)
نِعَمٌ للولىّ منه حَبَاهُ … ومنايا على الْعدوّ مواضِى
تَمْلِكُ الْخَطْبَ منه عزمةُ رَأْىٍ … يُذْعِنُ الصعبُ عندها الارْتِيَاض
يا إمامًا إليه حلّت عُرَى الفخـ … ـرِ وفلّت معاقدَ الاغراضِ
حازَ بالْمَكْرُمات كاملَ مجدٍ … عَلِقَ النّاسُ فيه بالأبعاض
وتعالى على النّجوم ببيتٍ … سامقِ الْعزّ ظاهرِ الأعراض
حُجّةُ الله أنت يا قبلةَ الـ … ـدّينِ فليست تُرَدّ بالإدحاض
آذنَ السّيفُ من عصاك من الـ … ـنّاس بهُلْكٍ وَاشِكٍ وانقراض
وبثقلٍ من الْعذاب ووزرٍ … ينقض الظهرَ أيّما إنقاض
لستُ ممن يريد بالمدح حالًا … يبسط الجاه منه بعد انقباض
قد ترويتُ من نوال إمامٍ … لستُ ما عشتُ فيه بالمعتاض
بشرُه زائد العطاء كما البر … قُ دليلُ الغيوث بالإيماض
وتقدّمتُ فى مديحى له النّا … سَ على الرّغم من ذوى الإبغاض
وافترعتُ الأبكارَ من عزّة الشّعـ … ـرِ فذلّلتُ صعبها بافتضاض

(١) فى الاصل بتغضى .... وتغاضى بالغين المعجمة

وَغَذَانِي بِطَوْلٍ مِنْهُ فِي سَا   بِقِ أَيَّامِيَ الطِّوَالِ الْعِرَاضِ
جَاءَ عَفْوًا بِلَا سُؤَالٍ وَلَا وَعْ   دٍ وَلَا مُذَّكِّرٍ بِهِ مُتَقَاضِي
صَافِيًا مِنْ تَكَدُّرِ الْمَطْلِ يَجْرِي   جَرْيَ مَاءٍ صَافٍ عَلَى رَضْرَاضِ
وَتَشَرَّفْتُ بِالْجُلُوسِ لَدَيْهِ   بِحَدِيثٍ يَلَذُّهُ مُسْتَفَاضِ
وَبَلَغْتُ الْمُنَى وَبَشَّرَنِي الْـ   ـنَّاسُ بِثَوْبٍ مِنَ الْغِنَى فَضْفَاضِ
وَتَبَدَّلْتُ بِالتَّذَلُّلِ عِزًّا   آذَنَ الْهَمُّ عِنْدَهُ بِانْفِضَاضِ (١)
وَاطْمَأَنَّ الْفِرَاشُ مِنْ بَعْدِ أَنْ جَا   نَبَ جَنْبِي تَجَنُّبَ النُّهَّاضِ
وَاسْتَرَدَّ الْعَدُوُّ وُكْدِي وَعَادَتْ   أَعْيُنُ السُّخْطِ وَهْيَ عَنِّي رَوَاضِي (٢)
لَا أَرَى مُزْعِجًا نَوَالِي وَإِنْ   أَبْطَأَ عَنِّي جَنَاهُ بِالْإِيغَاضِ
لَا وَلَا خَاطِبًا بِذَمِّ زَمَانٍ   أَتَشَكَّى مِنْهُ نُدُوبَ عِضَاضِ (٣)
قَدْ كَفَانِي الْإِمَامُ مَا قَدْ عَنَانِي   وَانْتَضَانِي مِنْ خَلَّةِ الْإِنْفَاضِ
وَاجْتَنَيْتُ الْغِنَى بِمَدْحِي غَضًّا   مِنْ أَيَادٍ لَهُ رِطَابٍ غِضَاضِ

---

(١) جانب من الأضداد

(٢) الوكد بالضم السعي والجهد

(٣) الندوب جمع ندبة بفتح النون وهى الأثر الباقى على الجلد من جرح أو غيره

لَمْ أُجِبْ نَحْوَهُ الْفَلَاةَ وَلَا أَقْـ ـبَلْتُ نِقْضًا أَهْوِى عَلَى أَنْقَاضِ (١)

تَتَرَامَى بِيَ الْمَفَاقِرُ طَوْرًا وَاعْتِرَاضًا كَرَمْيَةِ الْمِعْرَاضِ (٢)

بَعْدَ أَنْ حَلَّتِ النُّحُوسُ مَحَلِّى وَهَوَى نَجْمُ أَسْعُدِى لِانْقِضَاضِ

فَتَكَ الْيَأْسُ بِى فَأَهْدَى صُدُودًا مِنْ وَصُولٍ كَفَتْكَةِ الْبَرَّاضِ (٣)

وَأَرَانِى تَحِيفُ الْهَجْرِ لِلطَّيْ رِ بِمَا نَسِّى تَحِيفُ الْمِقْرَاضِ (٤)

وَاقْتَضَانِى دَيْنَ الشَّبَابِ مَشِيبٌ فِيهِ عَسْفٌ لَهُ وَقُبْحُ تَقَاضِى

عَجَبِى لَهُ كَيْفَ أَوْجَبَ ذَنْبًا لَمْ يَكُنْ عَنْ تَسَلُّفٍ وَاقْتِرَاضِ

ظَالِمٌ مُنْصِفٌ سَرِيعٌ بَطِىءٌ سَابِقٌ رَكْضُهُ بِغَيْرِ ارْتِكَاضِ

فَتَسَوَّدْتُ بِالْبَيَاضِ وَعُذْ تُ بِهِ عَنْ وِصَالِ بِيضٍ بِضَاضِ

وَاكْتَسَيْتُ الْوَقَارَ بِالْكُرْهِ مِنِّى وَنَضَتْ بِشْرَتِى لَيَالٍ نَوَاضِى

وَأَتَتْنِى قَوَارِضٌ مِنْ أُنَاسٍ مِثْلَ وَقْعِ الشِّهَابِ فِى الْأَغْرَاضِ

---

(١) النقض المهزول من السير والأنقاض النوق أو الجمال المهزولة

(٢) المفاقر الحاجات والمعراض سهم بلا ريش ، دقيق الطرفين غليظ الوسط يصيب بعرضه دون حده

(٣) البراض بن قيس الكنانى أحد فتاك العرب المشهورين وبسببه نشبت حرب الفجار بين قومه بنى كنانة وبين قيس عيلان وفى الأصل كفيئة

(٤) فى الاصل « وأرانى كخيف »

كُلُّ وَاهِي الْقُوَى نَؤُومٍ إِذَا مَا   نَهَضَ النَّاسُ لِلْعُلَى رَبَّاضِ
تَرَكَتْنِي لِمَا أُحَاذِرُ مِنْهَا   حَرَضًا هَالِكًا مِنَ الْأَحْرَاضِ
عَلِمَ اللهُ مَا الَّذِي كُنْتُ أَلْقَى   فِيكُمُ مِنْ تَأَلُّمٍ وَامْتِعَاضِ
لَمْ أَذُقْ مُذْ رَكِبْتُ رَاحِلَةَ الْـ   ـخَوْفِ إِلَى الْآنَ لَذَّةَ الْإِغْمَاضِ
لَا أُطِيقُ الدِّفَاعَ عَنْكَ وَلَا   أَمْلِكُ غَيْرَ الْهُمُومِ وَالْإِرْتِمَاضِ
زَارَتْنِي أُسُودُ حِقْدٍ عَلَيْكُمْ   لَمْ تَغِيبْ بِغَابَةٍ وَغِيَاضِ
وَفَرَانِي الزَّمَانُ مِنْهُ بِنَابِ   بَعْدَكُمْ مُرْهَفِ الشَّبَا عَضَّاضِ
وَانْتَحَى آكِلًا لِلَحْمِي وَرَضَّ الْـ   ـعَظْمَ مِنِّي بِكَلْكَلٍ رَضَّاضِ
وَاكْتَحَلْتُ السُّهَادَ وَالْحَذَرَ الـ   ـدَّائِمَ خَوْفًا بِمِرْوَدٍ مَضَّاضِ
مِنْ حَسُودٍ مُنَافِسٍ لِي عَلَيْكُمْ   لِبِحَارِ اغْتِيَابِكُمْ خَوَّاضِ
مُبْغِضٍ لِي لِمَا أُسِيرُ فِيكُمْ   مِنْ مَدِيحٍ عَلَى الْأَذَى حَضَّاضِ
فَأَرَانِي الْإِلٰهُ مَا كُنْتُ أَرْجُو   هُ وَعُوِّضْتُ أَحْسَنَ الْإِعْتِيَاضِ
يَا إِمَامَ الْهُدَى اسْتَمِعْ لِوَلِيٍّ   سَائِرٍ فِي مَدِيحِكُمْ رَكَّاضِ
بَذْلُ النَّفْسِ وَاجِبٌ لَكَ مَحْضُ الـ   ـنُّصْحِ مِنْ أُسْرَةٍ لَكُمْ أَمْحَاضِ
كُلُّ عَاصٍ بِجِلْدَتِهِ الْعُمْـ   ـرَ فَهُمْ هَانِئُوهُ بِالْخَضْخَاضِ

يَفْضُلُ النَّاسَ فى الشَّجاعةِ والبأْ   سِ كَفَضْلِ الدِّيسِ لابْنِ مَخَاضِ
قُبْلَةُ الحَرْبِ حين تجتنبُ الحرْ   بُ وتَرْدى خُيولُها فى العِراضِ
عَضُدَ المُلْكِ فيه بالأَيْدِ الـ   ـعالِمِ شافى المَحْلِ بالإحْمَاضِ
باذلُ الرَّأْىِ سالكٌ شُعَبَ عَزْمٍ   ما المَصَاعِيبُ فيه كالأحْفَاضِ
أَخْصَبَتْ أَرْبُعُ الوَرَى بإمامٍ   قاتِلِ المَحْلِ جابِرِ المُنْهَاضِ
عَرَفَ النَّاسُ فَضْلَهُ مِثْلَ ما يُعْـ   ـرَفُ قَصْدُ السِّهامِ بالإنْبَاضِ
مَنْ رَأَى حُبَّهُ كنافلةِ الـ   ـفَرْضِ فإنِّى أَراهُ كالإفْتِرَاضِ
أَيَّدَ اللهُ مُلْكَهُ بوزيـرٍ   مُسْتَقِلٍّ برأيـهِ نَهَّاضِ
عالمٍ بالزَّمانِ قد راضَ منهُ   جامحًا آبيًا على الرُّوَّاضِ
لم يَطُفْ باليقينِ من ظَنِّهِ الـ   ـشَّكُّ ولا حالَ دونَهُ باعْتِرَاضِ
ضَرَبٌ فى لُهًى ولَيْكَ ماضٍ   وسَوادٌ على عَدُوِّكَ قاضِى
ناصحٌ لم يَخُضْ ضَحْضاحَ غِشٍّ   فى الزَّمانِ المَاضى مع الخُوَّاضِ
مَوَّلَ اللهُ بيتَ مالكَ منهُ   باجْتِماعٍ منهُ لا بارْفِضَاضِ
غيرَ ما غافلٍ اذا انتحلَ النُّصْـ   ـحَ بِشَكْوَى مُغَاضِبٍ أو مُرَاضِى
مِنْ أُناسٍ أَقْلامُهُمْ أَسْهُمُ المُلْـ   ـكِ ولَكِنَّها بغيرِ وِفَاضِ

جَامِعَاتٍ لِلأَمْرِ بَعْدَ افْتِرَاقٍ   جَابِرَاتٍ لِلْعَظْمِ بَعْدَ انْهِيَاضِ (١)
مَا رَأَتْ سَاعِيًا عَلَى الْبَيْنِ إِلَّا   قَيَّدَتْ سَعْيَهُ بِغَـــيْرِ الأُبَاضِ
نَفَثَتْ بِالْمِدَادِ سُمًّا عَلَيْـــهِ   نَفْثَ أَنْيَابِ حَيَّةٍ نَضْنَاضِ
فَابْقَ يَاسَيِّدَ الْمُـــلُوكِ لَهُ تُبْ   رِمُ بِالرَّأْيِ مِنْهُ كُلَّ انْتِقَاضِ
وَتَمَلَّ النَّيْرُوزَ تِسْعِينَ عَامًا   سَامِيًا وَالْعَدُوُّ ذُو إِعْضَاضِ

فقال لي ـ وكان عالما بالشعر ناقدا ـ : ما أعرف مثل هذه الضادية لقديم ولا محدث وإنها لَحُمَتُكَ رميت بها كما كانت ـ قَدْ جَبَرَ الدِّينَ الإِلَهُ فَجَبَرْ . . . ـ حمة العجاج رمى بها . فقلت له يبقى الله سيدنا وهاهنا حماة مثلها كثيرة .

وكان من أول ما خاطبنا به أن قال : والله لقد جاءني هذا الأمر وما شرعت فيه ولا أحببته ، ولا علم الله ذاك مني في سر ولا علانية ، لا جهلا مني مافيه من الشرف والجلالة (٢) لكني لتغير الأحوال وقلة الأموال وكلب الجند وخاب الدنيا وإنه يستصحبني من الغم والأسف والغيظ والاهتمام اكثر مما يؤمل من السرور واللذة ، فما أجد في زماني مياسير من الكتاب والتجار يجمل بمثلهم الملك ويلجأ المهم اليهم مثل ابن الجصاص في التجار ومن يقاربه ، وأرجو أن يعينني الله

(١) في الأصل للظلم ولا معنى لها
(٢) في الأصل تقرأ بالوجهين : الخلافة والجلالة

بجميل نيتى ، فقد ضقت ذرعا بما دفعت اليه فقلت له إذن يعينك(١) الله يا أمير المؤمنين . ويوفقك بشهادة من رسول الله صلى الله عليه بذلك ووعدبه قال وكيف ذاك ؟ قلت :

حدثنا إبراهيم بن عبد الله النميرى قال حدثنا حجاج بن منهال عن المبارك بن فضالة عن الحسن بن أبى الحسن عن عبد الرحمن بن سمرة قال قال لى رسول الله صلى الله عليه يا عبد الرحمن لاتسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسئلة وكلت اليها ، وإن أعطيتها عن غير مسئلة أعنت عليها . فقال لى : قد والله سرنى الله بهذا الحديث ولست أشك الآن فى عون الله لى وتوفيقه إياى .

ثم قطع المجلس، قطعه ما لقيه من إعنات القاهر له وخوفه لقتله أباه فى ليله ونهاره ومادفع اليه من مداراة من لاتعرف طريقته ولا يوثق بدينه ، ولا بعقله ولا تؤمن بوائقه ، ولا ترضى خلائقه . إلى أن قال أليس بابن المعتضد؟ وأخ المقتدر وعم لنا ؟ هذا والله عار لا يرحض وعيب لايزال ثم نبهتنا سهامه .

فقلت قد أزال الله عن سيدنا كل عيب، وألحق به كل حسن ، وله فى رسول الله صلى الله عليه أسوة حسنة هذا عمه أبو لهب أنزل الله عز وجل فيه وفى امرأته سورة من القرآن يعرفها كل إنسان ويلفظ بها كل لسان فما ألحقه عاره وقد ولده جد رسول الله عبد المطلب ، وهذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ابن عم رسول الله صلى الله عليه

(١) فى الأصل يغنيك ويظهر أنه تحريف

كان يهجوه قبل إسلامه ثم أسلم وشهد حنينا مع رسول الله صلى الله عليه وحسن أثره وما زال محموداً مرضياً إلى أن توفى ويقول له حسان بن ثابت وكان كافراً :

أَبُوكَ أَبٌ حُرٌّ وَأُمُّكَ حُرَّةٌ   وَقَدْ يَلِدُ الْحُرَّانِ غَيْرَ نَجِيبِ
فَلَا يَعْجَبَنَّ النَّاسُ مِنْكَ وَمِنْهُمَا   فَمَا خَبَثٌ مِنْ فِضَّةٍ بِعَجِيبِ (١)

فقال لى « قد والله سرنى جميع ما جرى وأرانى طريق المسلاة وأعتقنى من هم كان قد ملكنى وغلب على. أعلمت أن الناس يظنون أن هذا من قول حسان، إنما هو لأبى سفيان صخر بن حرب . وأنا قد كنت أظن ذلك حتى عرفتنيه فقلت له. إن حسان هجاه بقصيدة فيها بيت يقال إنه ما سمع بهجاء قط أنصف منه . وهو قوله

هَجَوْتَ مُحَمَّدًا فَأَجَبْتُ عَنْهُ   وَعِنْدَ اللهِ فِى ذَاكَ الْجَزَاءُ
أَتَهْجُوهُ وَلَسْتَ لَهُ بِمِثْلٍ   فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الْفِدَاءُ (٢)

هذا أنصف بيت قيل قط من هجاء .

قال الصولى: وما حكيت من ألفاظه التى مرت، وما أحكيه من كلامه بعد فهو كما أحكيه أو شبهه أو مقارب، إذ كنت لا أقدر على أن أحفظ لفظه على حروفه وأنا أحفظ معناه

وكان والله إذا جمع نفسه وأحضر خاطره [ك] أنه ينطق بلسان المنصور

(١) فى الأصل من فصه
(٢) الرواية المشهورة بكفء

إذا أراد الكلام فى معنى من المعانى ، كذلك خيل إلى . أو المأمون من بلاغته وحسن سلوكه سبل المعانى وما أخطأه من شىء فلن يخطئه أن يكون أحسن الناس علماً بالشعر ونقداً له كما ينقده العلماء به . وإنه من أطبع ملوك بنى العباس فى الشعر وأكثرهم شعراً وأكرمهم عشرة لجلسائه وما رأيت ولا سمعت بخليفة أحسن منه أخلاقاً ولا أسمح بكل شىء بالمال والطعام حتى يفرط ، وبالثياب والطيب مابخل بشىء قط ولا تعاظمه شىء يهبه ولولا انباء اشتهرته كثيراً ، عالماً بما فى ذلك من العيب محتملا له على بصيرة لظننت أنه لا يقدم أحد عليه .

فكنا بين يديه فى ذلك اليوم ثلاث ساعات من الليل نشرب وكان هو لا يشرب ، قد ترك النبيذ جملة ثم انصرفنا وكان النوروز فى تلك الأيام فجلس على بركة مرصصة الجوانب والمجارى حسنة قد عملها وأحضرنا فجلسنا حول البركة وملئت ماء وأمر فرمى فيها بمثقلات كافور كبار وصغار ، ثم قال لنا كل من وقف بين يديه مثقلة فهى له فوقفت بين يدى بعضنا مثقلة وقدام بعضنا مثقلتان أنا منهم وقفت لى صغيرة وكبيرة ، باعهما لى ابن خزابة بثلاثة آلاف[1] درهم ودفع إلينا ندا كثيرا وعنبرا ، ووصل الجماعة بصلات مختلفة على أقدارهم عنده

ثم واصل الجلوس بعد ذلك إلى أن كثر شغب الحجرية والساجية فى طلب المال فقطع الجلوس معنا مدة لئلا يقولوا إنه مشغول بلذاته . ولما قبض على القاهر حبس فى بيت وطولب بأموال

(١) فى الاصل بثلاثة ألف

فلم يقر بشيء وكأنه عرف ماله عند الراضى لسوء ما كان يعامله به فعذب عذاباً شديدا فما أنعم بشيء. فأمر بعض الناس فكحله فأعماه وتردد(١) المكروه عليه فما أقر بشيء ووجد له مال يسير وآلة فأخذت وحسن وفاء زيرك له فأعجب ذلك للراضى فاصطنعه وحسنت خدمته له فتمكنت عنده حاله وغلب عليه فأحسن اليه إحسانا كثيرا وأقطعه البستان المعروف بالشفيعي ووهب له من أنواع الطيب ما كان أمله يقصر عن مثله، وكذا من الجواهر والبلور وآلة الذهب والفضة — وما رأيت البلور عند ملك أكثر منه عند الراضى، ولا عمل ملك منه ما عمل ولا بذل فى أثمانه ما بذل حتى اجتمع منه له مالم يجتمع لملك قط.

عظم فى أول أيام الراضى أمر مرداويج(٢) الديلمى بأصبهان، وتحدث الناس عنه أنه يريد تشعيث الدولة وقصد بغداد وأنه لمساهم لصاحب البحرين مجتمع معه على ما يحاوله؛ ثم ورد الخبر بأن غلمانه قتلوه وأن رئيس الغلمان غلام يعرف ببجكم، وأنه خرج عن أصبهان ومعه جماعة من الأتراك قد رضوا به صاحباً لهم ورئيسا عليهم، فزعم ابن ياقوت أنه هو الذى دبر ذلك وكاتب فيه الغلمان ووجه برسل إليهم يحضهم على ذلك ويرغبهم فى حسن العائدة عليهم فى العاجل من جهة الخليفة، وفى الثواب بطاعتهم للخليفة ونفذت كتبه إلى بجكم

(١) فى الأصل وترود

(٢) فى الأصل مرداويح بالحاء المهملة والمعروف من كتب التاريخ ما ذكرناه

والغلمان بتحقيق ظنونهم ، والتقدم اليهم لقصد مولاهم وقتله ليبلغ لهم ما أملوه .

ودخل ابنا المنجم احمد بن يحيى وعلى بن هارون فأنشدا الراضى فى يوم خميس شعرا يهنيانه بهذا الفتح ، وتخلفت أنا لشىء وجدته ثم دخلت إلى الراضى فى يوم السبت بعد الخميس بيومين وأنشدته :

ضَحِكَ الدَّهْرُ بعد طول عُبُوسِ   طَالعاً بالسُّعُودِ لا بالنُّحُوسِ
وأتتنا الأيامُ معتذراتٍ   لابسَاتٍ نعيمَها بعدَ بُوسِ
بالإمامِ الرَّاضى المُطِلِّ على الآ   دابِ شَمْسِ المُلُوكِ وابنِ الشُّمُوسِ
سبعةٌ من خلائفٍ وَلَدُوهُ   لَمْ يَكُنْ ذا لغيره من رئيسِ
رَضِىَ الرَّاضِىَ الإلهُ لِمُلْكٍ   أَوْضَحَ النَّهجَ منه بعدَ الدُّروسِ
فهو كالخصبِ بعد وافدِ جدبٍ   رُعِىَ الغَضُّ منه بعدَ اليَبِيسِ
آنسَ اللهُ بالخليفةِ مُلْكاً   مُوحِشَ الرَّبعِ واهِنَ التَّأسيسِ
فهو يختالُ فى الجديد من اللبـ   ـسَةِ والحُسْنِ بعدَ لُبْسِ الدَّرِيسِ
يا نسيمَ الحَيَاةِ أضحكتَ دهرًا   كانَ لولاكَ دائمَ التَّعبيسِ
انَّ أيامَكَ اللذاذَ كوصلِ الـ   ـحِبِّ طيبًا ونومةِ التعريسِ
مردواجُ بسيفِ حظكَ مقتو   لٌ فأهونْ بذاكَ من مرموسِ

قَصَفَتْهُ رِيَاحُ أَيَّامِكَ الْغُـــرِّ فَأَخْمَدْنَ مِنْهُ نَارَ الْمَجُوسِ
ثُلَّ عَرْشُ اللَّعِينِ أَسْرَعَ مِمَّا سُلِبَ الْعَرْشُ مِنْ يَدَىْ بِلْقِيسِ
وَتَوَلَّتْ بِمَأْتَمِ الدَّهْرِ أَيَّا مٌ أَتَتْنَا تَجُرُّ ذَيْلَ الْعَرُوسِ
بَعْدَ كُفْرٍ لِنِعْمَةٍ وَقَبِيحٌ كُفْرُ عَبْدٍ فِى نِعْمَةٍ مَغْمُوسِ
وَجَزَى الْمُسْلِمِينَ تُؤْخَذُ قَسْرًا بِخُرُوجٍ عَلَيْهِمُ وَمُكُوسِ
حَابِسَ الْمَالِ عَنْهُمُ مُسْتَضَامٌ بِاتِّسَاعِ الْأَذَى وَضِيقِ الْحُبُوسِ
وَكَأَنَّ الْعِيَالَ إِذْ فَقَدُوهُمْ أُنْشِرُوا فِى الْبِلَادِ بَعْدَ الرُّمُوسِ
وَكَأَنِّى بِهِمْ حَمَايِلَ إِقْبَا لِ طَوِيلِى الْإِطْرَاقِ وَالتَّنْكِيسِ
حَسَّهُمْ سَيْفُكَ الْحُسَامُ فَأَضْحَوْا هُمَّدًا مِنْهُ مَا لَهُمْ مِنْ حَسِيسِ
يَا حُلَى الزَّمَانِ يَا زِينَةَ الْأَرْ ضِ وَرَأْسَ الْمُلُوكِ وَابْنَ الرُّءُوسِ
إِنَّ نُصْحِى وَصِدْقَ وُدِّى قَدِيمٌ لَمْ أُشَبِّهُ بِالزُّورِ وَالتَّدْلِيسِ
قَبْلَ أَنْ يَأْكُلَ الزَّمَانُ شَبَابِى خَالِسًا غُرَّتِى بِشَعْرٍ خَلِيسِ
مَا أُطِيلُ الْمَقَالَ خَوْفًا لِإِضْجَا رِ إِمَامٍ مُؤَيَّدٍ مَحْرُوسِ
وَأَرَى النَّاسَ أَظْهَرُوا بِمَدِيحٍ لِىَ مِنْهُ الْبُكُورَ بِالتَّغْلِيسِ
رُبَّ بَذْلٍ سَقَيْتَنِى مِنْهُ كَأْسًا فَأَعِدْ لِى مُدَارَ تِلْكَ الْكُئُوسِ

حينَ شرّفتنى فكنتُ بنعما ... كَ جليساً من قبلُ كلّ جليس
ثمّ أفردتنى خصوصاً ببرّ ... مفرَد طاهر من التدنيس
إنّ بينى وبينَ دهرى حرباً ... جاوزت حربَ داحسٍ والبسوس
أنا منه لغَير هجر ووصل ... واقفٌ بينَ لوعة ورسيس
فاعتبر ما شكاه عبدُك منه ... ثمّ داوِ الخناقَ بالتنفيس
هو فى مخلب الزّمان فريسٌ ... فارحم الآنَ نفسَ هذا الفريس
واسقه من سُلاف جودك بذلا ... فاقَ طيباً سُلافةَ الخندريس
يطلق الشعرَ فى أناسٍ وشعرى ... وقفُ مدحٍ على الإمام حبيس
لم تزل فى القديم تلبَس منه ... مستجدَّ الطراز غيرَ لبيس
لا أعلّى به لعلوة فكراً ... فى مشيبٍ لها ولا للعميس (١)
مدحٌ لم يزد عليها زيادٌ ... وهو خاشٍ ردى أبى قابوس
لا ولا حاكَ مثلهنّ جريرٌ ... عند إيحاش ربعه المأنوس
قام هذا المديحُ بالعذر منّى ... نائباً عن نشيد يوم الخميس
فالقه بالنجاح يا أكرمَ الأمّـــة أعطى به يمينَ غموس

---

(١) علوة اسم امرأة ويقال امرأة متعامسة أى تتستر فى شيبتها ولا تتهتك

لى سبق المديح فيك على النا   س وفخر بالسبق فى التأسيس
هى حال ليس الشباب وإن فضـ   ـل خيرا فيها من التعنيس
يا إماما به أمرت عرى الحـ   ـق وحلت معاقد التلبيس
أيد الله ملكه بوزير   عالم بالزمان طب رئيس
ضامن بالوفاء منه رضى اللـ   ـه بحفظ الرئيس والمرءوس
ظمئ الملك قبله فسقاه   ريه من زلال نصح مسوس
حاصد للعدى بأقلام رأى   تقطع السيف عند حمى الوطيس
كيده وافد عليهم بيوم   قمطرير بما يشق عبوس
بان فضلا على الكفاة كما با   ن على ابن اللبون فضل السديس
طاب اصـ   وبابنه طاب فرعا   غرس الملك منه خير غريس
قد أمر الزمان طوعا عليه   فسخا بعد نفرة وشموس
فترى الناس خاضعين اليه   من قيام بأمره وجلوس
أمتع الله بالوزير إماما   خص من نصحه بعلق نفيس
وأطال البقاء للملك الرا   ضى إله أصفاه ود النفوس

وقد يعلم الله تعالى أن الراضى بالله فى حال إمارته وأخاه هارون لما

أمر نصر الحاجب أن يتقدم إلى بخدمتهما ، وان يجعل على نوبة لهما يومين فى كل أسبوع ففعل ذلك دخلت إليهما فرأيتهما ذكيين فطنين عاقلين إلا أنهما خاليان من العلوم ، فعاتبت ابن غالب مؤدبهما على ذلك وكان الراضى أذكاهما وأحرصهما على الأدب ، فحببت العلم اليهما واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة فتنافسا فى ذلك وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه وقرآ على الأخبار والأشعار فقلت إن الحديث أولى بكما وانفع لكما من هذه وهو أولى أن يبتدأ به وجئتهما بأعلى من بقى من الزمان إسنادا ، وهو أبو القاسم ابن بنت منيع ، واختلف اليهما مجالس ونسخت لهما علو حديثه ومشايخه ، مثل على بن الجعد وابن عائشة وأبى نصر التمار ، وجميع علوه ومختار حديثه ، واحتجنا إلى أن نبره بدنانير ، فوجه إلى من جهة والدتهما « والله ماعندنا دنانير لهذا المحدث ، ولا بنا حاجة إلى مجيئه » فعرفت نصرا الحاجب ذلك فقال « خذله من مالى كل شىء يريده » فأوصل إليه فى مدة شهرين أربعمائة دينار .

وقرآ على من كتب اللغة كتباً كثيرة منها خلق الإنسان للأصمعى فمضى خدم سمعوا ذلك إلى المقتدر وإلى والدته ، فقالوا لهما : « إن الصولى يعلمهما أسماء الفرج والذكر » فدعا المقتدر نصر الحاجب فعرفه ذلك ، ودعانى نصر الحاجب . وكان من أحسن الناس عقلا ، فسألنى عن ذلك ، فعرفته السبب فيه فقال : جئنى بالكتاب ، فجئته وعرفته أن هذا من العلوم التى لابد للفقهاء والقضاة منها ، وأنهم

يلجأون إلى أهل اللغة فيها وأخذ الكتاب وأدخله إلى المقتدر وعرفه ماعرفته فأزال كل شيء خفته . ثم قلت للراضى بالله قدأمرت أن تجلس فى غد ليملك بحضرتك ابن الجواليقى بدار السيدة. وقد وعدوا جماعةفيهم الحسين بن اسماعيل المحاملى ، وسيبكر إلى هاهنا فى غد فارفع مجلســـه وأقبل عليه وانبسط فى مذاكرته ، وإنى أحب أن يسمع الناس وصفك والثناء عليك من مثله ، ففعل جميع ذلك . ثم حضرت وانقضى أمر الاملاك ، فأخذ المحاملى بيد أبى بكر الخرقى ، وقال « ما رأيت فى أهل هذا البيت شيخاً ولا كهلا ولا حدثا يشبه هذا الفتى يقول حدثنا وأخبرنا وينشد ويعرب، وهذا كلهمن فعل هذا ـ وأومأ إلى ـ فأحب أن تتحمل رسالتى إلى القهرمانة ريدان ، وتقول لها ما الذى فعلتم بمن صير هذا الأمير فى هذا الحال،فقلت أنا لأبى بكر الله يعلم ماأفعل هذا الا لله عز وجل ، لأنى أقول لعلهما أن يليا من أمور المسلمين شيئاً فينفعهم الله بهما .وجعلت أقتضى أبا بكر الجواب فدفعنى أياما ثم قال لى أنت فى طرف والقوم فى طرف أديت إلى ريدان قول القاضى فقالت لى « إن هذه المحاسن من هذا الرجل عند السيدة ومن يخدمها مساو[ىء]فقل له عنى ياهذا ، مانريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء ، وهذا أبوهم قد رأينا كل ماتحب فيه وليس بعالم . فاعمل على ذلك » فأتيت نصرا الحاجب فأخبرته بذلك فبكى ، وقال : كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم ! فقلت والله ما أعود اليهما بعد هذا . فقال ولا لك حظ فى ذلك . ولكن امض ساعة فى الأيام ثم اقطع

وكان ابن أبى الساج فى هذا الوقت بواسط عازما على لقاء القرامطة ، وكنت أنفذت اليه رسالة طويلة فى كتاب عملته له أوصيه فيه بالمطاولة ، وهى رسالة حسنة ـ قد سرقها الناس منى ـ تجمع ضروبا من العلوم ، فجاءنى جوابه مع كاتب له يعرف بابن حراشة ، وفى آخر الكتاب

« وقد بلغنى خبرك وقول من قال لا نريد أن يكون اولادنا علماء وإنا لله على ما بلى الناس به » وأفزعنى ذلك وخفت أن يظن أنى المبدى لهذا ، والمتكلم به فصرت إلى نصر الحاجب فعرفته ذلك ، فقال إن لابن أبى الساج خدما فى الدار ، لا يخفون عنه الأنفاس . وهذا إنما علمه من جهتهم ، فسكنت نفسى إلى ذلك وانقطعت عنهم ، وكان لهم بعدى هنة سر (١) لحجبتهم لها كل أحد ، وكان ثم قوم قد نفسوا على موضعى منهم . وكان الراضى وعدنى بفص كنت استحسنته فكتبت اليه بقصيدة أسأله فيها التوجيه إلى بالفص ، فكتب إلى « إنما أتفرخ بما يرد على من جهتك ، فاكتب إلى بشعر صادى قافيته الفص » فعملت القصيدة وكتبت بها اليه وهى :

أَلَا قُلْ لِخَيْرِ النَّاسِ نَفْسًا وَوَالِدًا ... وَرَهْطًا وَأَجْدَادًا مَقَالَةَ مُخْتَصِّ

مُحَمَّدٍ الْمَأْمُولِ وَالْمُقْتَدَى بِهِ الْـ ... أَمِيرِ أَبِى الْعَبَّاسِ ذِى الْفَضْلِ لَا النَّقْصِ

وَمَنْ جَمَعَ الْآدَابَ بَعْدَ افْتِرَاقِهَا ... وَثَقَّفَهَا بِالْبَحْثِ مِنْهُ وَبِالْفَحْصِ

(١) فى الأصل اسر لحجبتهم

دقيق حواشي الذهن هذب طبعه — ومحص في قرب المدى أيما محص
بعيد القبول من حسود مكاشر — تخلف عن أولاه بالنزع والفرص
لئن ساغ لي أكلي وشربي فإنني — كذي شرق من غيبتي عنه مغتص
وقد كنت ذا حظ لديه وزلفة — فجاء الذي حاذرت فيه على غفص
بفسخ الذي سدى وألحم باطلا — وقد وقصاه عاجلا أيما وقص
من أكلب خوزستان نغل محقر — ضئيل خفي الشخص وصورد الدرص
وألهب منه الجمر بالنفخ حابل — علوق بأذناب الأكاذيب كالشص
بنو معورات الطرق جاءوا بعورة — ذوو الأنف الذكاء والأعين الرمص
أولوا بطنة في باطل وتكذب — وصدقهم يأوي إلى أبطن خمص
فما أسندوا قولا إلى ذي تماسك — ولا شيدوا زور المقال على إص
وبالقصر قوم إن رأونا تبلغوا — وحطوا لنا الأعياق كالرخم القص
تلاقت بتأليب علينا جفونهم — وفرقت الأقوال بالثلب والغمص
وما قبلوا نصح العروضي في الذي — رآه ورصوا إفكهم أيما رص
وقد هطلته غيبة من سحابهم — وكالوا له صاعا من النث والقص
وهب له في بعده لك قاصف — من الحزن يثني صبره عنك بل بقص

فغص بشرب من فراقك آجن ... عصوف بجدواه أمر من العفص

وإن أنجز الإمكان يوما بجلسة ... لديك أتاك القول بالشرح واللخص

فأدنيت حقا قد أطيح بشخصه إلى ... نزوان القوم بالزور والقنص

فأقبل العيش الغرير بقربكم ... وأسحب فى لذاته أذيل القمص

بحق أفاض الدلب فاضل شربة ... من الهم حتى جاءنى الأمر من فص

وأطلع شخص الحق عندك وجهه ... إلى أن يقود القرب منطق مستقصى

تحيفنى ريب الزمان ببعدكم ... تحيف مقراض المجازف فى القص

إليك ترامت بى الأمانى همة ... على لحق الأقراب ضامرة حص

وخوص سقتها الآل كأس هجيره ... فأفنته بالوجد المواشك والرقص

إلى ابن الذى أحيا البرية عدله ... فشبه بالفاروق فيهم أبى حفص

وقد كان لى وعد عليك بخاتم ... عاوق بلحظ العين مستملح الشخص

شريف إذا ما رفعوه لسيد ... تعاظم واستعلى به شرف الفص

فلا أنا طالعت الأمير بذكره ... بتعريض قول فى الخطاب ولا نص

ولا أنجدتنى منه فى ذاك حظوة ... تذكر إنجازا ولست بذى حرص

وإنى لأرجو أن يسرى لبسه ... فيأخذ منه اللبس أخذة مقتص

وَإِنْ لَمْ يَكُنْ كَرْعٌ يُقَاوِمُ غُلَّتِي ... يَرَى قَنْعَنَا فِيهِ بِالرَّشْفِ وَالْمَصِّ
إِذَا لَمْ يَكُنْ كُلُّ الَّذِي يَشْتَهِي الْفَتَى ... فَفِي الرَّأْيِ أَنْ يَرْضَى وَيَقْنَعَ بِالشِّقْصِ
وَلَسْتُ كَمَنْ يُمْضِي عَلَى الظَّنِّ حُكْمَهُ ... وَيَجْعَلُ إِسْنَادَ الرِّجَالِ إِلَى حَصِّ
وَإِنِّي لَأُغْلِي الْمَدْحَ إِلَّا عَلَى الَّذِي ... يُغَالِي بِإِعْطَاءٍ وَلَسْتُ بِذِي نَقْصِ
بِذِي هَامَ قَلْبٌ لَا بِخَرِيدَةٍ بِهَا ... يَمِيسُ بِهَا غُصْنٌ رَطِيبٌ عَلَى دِعْصِ (١)
صَلِيبَةُ عَزْمِ الْقَلْبِ كَالصَّخْرِ قَلْبُهَا ... عَلَى أَنَّهُ يُكْتَنُّ فِي جَسَدٍ رَخْصِ
وَلَا بِشَمُولٍ لَذَّةِ الطَّعْمِ قَرْقَفٍ ... مَنَاسِبُهَا فِي عُمْرِ كَرْكِينَ وَالْقُفْصِ
فَلَوْ كَانَ فِي حِمْصٍ يُرَجَّى شَبِيهُهُ ... لَسَاقَ مَطَايَا الرِّجَالِ إِلَى حِمْصِ
أَمِيلُ إِلَى شُرْبِ الْكِرَامِ بِغُلَّتِي ... وَلَسْتُ لِأَوْشَالِ اللِّئَامِ بِمُمْتَصِّ
فَقُولُوا لِمَنْ قَاسَ الْأَمِيرَ بِغَيْرِهِ ... تَأَيَّدْ فَمَا الْكَيْلُ الْمُحَصَّلُ كَالْخَرْصِ
تَيَمَّمْتَ زُورًا فِي الْمَقَالِ وَبَاطِلًا ... لَدَى خَرْقٍ سَادَ الصُّخُورَ عَلَى رَهْصِ
مَحَاسِنُ هَذَا الْخَلْقِ مِنْكَ ابْتِدَاؤُهَا ... وَيَجْذِبُهَا ذُو كُلْفَةٍ مِنْكَ كَاللِّصِّ
كَذَا الْمَجْدُ لَا بِالْمَالِ يَجْمَعُ شَمْلَهُ ... وَبِالدُّورِ شِيدَتْ بِالْقَرَامِيدِ وَالْجِصِّ
فَلَا زِلْتَ لِلدَّهْرِ الْمُمَلَّكِ مَالِكًا ... يُطِيعُكَ فِيمَا تَشْتَهِيهِ وَلَا يَعْصِي
وَحُزْتَ مِنَ الْأَعْمَارِ أَقْصَى نِهَايَةٍ ... تَفُوتُ مَدَى الْإِحْصَاءِ فِيهَا يَدُ الْمُحْصِي

(١) كذا رواية الأصل ولعل الصواب بذا هام قلب لا بحب خريدة

فوجه بخاتم فصه ياقوت سمانجونى ووجه معه بصلة ، وكتب إلى « ما أعرف والله مثل هذه الصادية لأحد ، وقد بخستك فى القيمة اضطرارا لا اختيارا إلى أن يستقيم الزمان إن شاء الله »

وإنما آتى من الأشعار التى قلتها فى الراضى بطرف ، للحاجة إلى المعنى الذى قيلت فيه ، وإلا فالشعر كثير فيه . وقد أتيت فى عملى أخبار المقتدر بشىء يسير منه ، إلا أننى آمل أن لا يستهجن الأدباء ما أورد منه لصلاحه وصفوته ، وصعوبة قوافيه ، وسلامته مع ذلك من تكلف يهجنه ، وسخافة لفظ ترذله إن شاء الله .

وتمزق الأمر بين محمد بن ياقوت ومحمد بن على بن مقلة . واستبد ابن ياقوت بالأمر دونه ، ولم يمض أمرا إلا بتوقيعه . ونظـــر فى الأموال ، ورمى بأكثر أمره إلى كاتبه محمد بن أحمد القراريطى ، إلى أن أظهر الوزير إطباق دواته ، وترك النظر فى شىء البتة ، فإذا اضطر أن يوقع فى أعمال أو ينظر فى أموال عرضت توقيعاته على ابن ياقوت ، فما أراد أمضاه رضيه وقع فيه بامضائه وما لم يرده لم يوقع فيه فبطل ، ولم يلتفت إلى توقيع غيره . فما زال الوزير يعمل فى أمره حتى قبض عليه وأنا أذكر ذلك فى حوادث السنين إن شاء الله .

وكنا ليلة نشرب مع الراضى ، فوصلنا وجىء برغيف كبير بحرف وافر قد عمل من ند فرمى به الينا . وقال انتهبوه فبدرونى . فاستلبوه دونى وسخفوا وتبذلوا حتى تكشف واحد منهم ، وكل ذلك بعينه فسألته العوض فقال « صف أمرك معهم وصف الزيدية فإنك

مشغوف بها ، وأنا على العبور عليها حتى أعوضك» وانصرفت فعلمت فى ذلك قصيدة زائية هى من خير زائية قيلت قط ، فلذلك أذكرها وكان ذلك فى أيام النيروز وهى : —

بَارَكَ اللهُ للأمير أبى الـــعباس خير الملوك فى النيروز
وأراه أولاده الغر أجدا   دًا بملك نام وعز عزيز
فهو أولى به وبالجود فيه   من ابرويز ومن فيروز
لهم فى الهلال هرمزروز   ولنا الدهر فيك هرمزروز
فاقتبل جدة الزمان بعام   بارز باللجين والإبريز
ضاحكات أيامه طائعات   طاعة الحب بعد طول النشوز
واقض حق النيروز فيه بكأس   مزعج سقيها بكأس وكوز
فيه نقش ملون من يدى من   لم تشبه معايب التلويز
طلعت شمس وجهه تحت داجى الـــ   ـشعر الجعد صبغة الشيروز
من عقار ترى الفتية منها   عجزت عن كمال حسن العجوز
يشتكى كرمها الأوام لدى القطـــ   ـف وما زال كارعا فى البزوز
وعلى مقبل من السعد محجو   ب عن النحس والأذى محجوز
بالزبيدية المشهرة الحســـ   ـن وحوز اللذاذة المأحوز

وصنوف من الجواهر تبدو   كل يوم من كنزها المكنوز
ياسمين حكى قراضة تبر   فتقوا طيبه بمرماحوز
يضحك الورد عنده بين نسريـــن وبستان نعمهم آيروز (١)
ورياح من الرياحين أدت   نشر مسك بعنبر معروز
وبها من حمائم هام زنج   مشرفات الطلى على سينيز
ومياه يشكو الجداول أبساً   لم تمزقه حادثات النزوز
وبنارنجها المحمل تبراً   ومياه من آسها المجزوز
ونخيل ترفع النوع منها   عن جوار الأنقال والشهريز
وبها الطلع مثل بيض أكف   برزت من مخصرات القزوز
وتجافت عنها الجفوف فشبهـــن كماماً مفتقات الدروز
كم زمان مضى بها مستلذ   ليلنا فيه مثل ليل الحزيز
قبل أن ترحل البوارح عنا   وتحط الرحال من تموز
رضى الراضى الإله لملك   عز الدين أيما تعزيز (٢)
فهو بالله فى محل أمان   تحت حرز من القضاء حريز

---

(١) كذا بدون إعجام مع ضم الهاء وفى قاموس ادى شير (بستان ابروز) وهو نبات
(٢) فى الأصل عز ذا الدين مع فتح النون

أيد الله ملكه بنصيح   راز منه الزمان أذكى مروز
بوزير مؤيد الرأى قد حا   ز بيمن التدبير خير محوز
فكنوز الآباء ثابتة منه   كل يوم مجدد بكنوز
قلم يملك الورى فهو أمضى   من حسام على الأعادى جروز
ومن السهم حين يستلب العمـ   ـر اختطافا وعامل مجلوز
حتف الله مردواج بحد   منه فى أنفس الورى مركوز
كم عدو أباده غير مقبو   ن بمردى الردى ولا مجنوز
وكذا يستمر فى كل عاص   ونبيط لهم عتاة وخوز
غرزوا كالجراد نسل فساد   محق الله ذاك من تغريز
فهو كالشهد للنصيح الموالى   وكسيف على العدا مهزوز
لم يضق بالأمور صدرا ولا أصـ   ـبح فيها كحائر ملهوز
وعلى كذاك غير ظنين   فى مراعاته ولا ملموز
بل ينادى الأعداء منه برأى   غير مستنقص ولا مغموز
فرداه الشباب ضاف عليه   وهو ذو حنكة ورأى مريز
كم عدو يبيت منه على صـ   ـحة جسم بليلة المنكوز

يا أجلَّ الملوك عقلاً وعلماً   مفرد السبق غيرَما ملزوز
لكَ عبدٌ كساك فاخرَ مدحٍ   رائقٍ لُبسُه لباسَ الخزوز
لم يشنه ذكرُ السباسب والوصـ   ـفُ لعيسٍ تحت الرحال جموز
من قوافٍ على سواه صعابٍ   سُبَّقِ الجري ظاهرات البروز
خطرت نحوك القوافي بمدحٍ   غيرِ مستهجنٍ ولا مكزوز
بين صادٍ وبين ضادٍ وسينٍ   ثم زاي مبينة التبريز
سائلُ الطبع مشرقُ اللفظ سهلٍ   ما تغشّيه ظلمةُ التكزيز
فائضٍ ماؤه يجيء مطيعاً   غيرَ مستجلَبٍ ولا منحوز
يرجع الشعر عنه حين يساميـ   ـه بأنفٍ مجدَّعٍ محزوز
من يرم نسج مثله تختطفه   لامعاتٌ من ذلك التطريز
قصر المخلف المعلم عن فيـ   ـهن صيود معاود التكريز
وكذا لا يقاس بين خسيفٍ   فائضٍ عدُّها ببئرٍ نكوز
جزت فيه ميدان قوم أراهم   شعراءً بالخط والتجويز
يستميزون لفظ غيرهم فيـ   ـه غلاباً كغارة التكليز
بقوافٍ مدوسةٍ ومعانٍ   مخلقاتٍ ومنطقٍ مرموز

وَكَزُوهُ لِيَلْحَقُوهُ فَآبُوا بِقَصِيرٍ عَنِ المَدَى مَوْكُوزِ
حُرِمُوا الطَّبْعَ صَاغِرِينَ فَسَارُوا مِنْ طَرِيقٍ إِلَيْهِ غَيْرِ مَجُوزِ
عَجَبٌ وَالقَضَاءُ يُقْعِدُ ذَا القُـوَّةِ عَنْ خُطْوَةِ الضَّعِيفِ العَجِيزِ
كَيفَ يَحْوِى التَّجْوِيدَ صَاحِبُ قَلْبٍ مُوجَعٍ مِن تَأَسُّفٍ مَوْخُوزِ
لَا أَرَى كَارِعًا لَهُمْ فِى إِنَاءٍ لَا وَلَا فِى بِحَارِهِمْ ذَا نُهُوزِ
لَيْسَ لِى غَلَّةٌ تُحَصَّلُ مِمَّا فِى مَوَازِينِهِمْ وَلَا فِى قَفِيزِ
لَا وَلَا لِى فِى أَرْضِهِمْ قِيدُ شِبْرٍ فِى وِهَادٍ لَهُمْ وَلَا فِى نُشُوزِ
دَرَّةُ الغُزْرِ هَامِيَاتٌ عَلَيْهِمْ وَلَنَا دَرَّةُ القَطُوعِ العَزُوزِ
غَرَّزُوا أَرْجُلَ الطَّمَاعَةِ فِى رُكْـبٍ أَخَسَّتْ مِقْدَارَهُمْ وَغُرُوزِ
لَوْ يَكُونُ التَّجْوِيدُ دَارَ ثَوَاءٍ لَمْ يَجُوزُوا مِنْهَا مَدَى الدِّهْلِيزِ
قُلْتُ إِذْ جُوِّزَتْ بِغَيْرِ انْتِقَابٍ لَكِ حَظُّ القِنَاعِ فِينَا فَجُوزِى (١)
فَازَ مِنْهُمْ جَمَاعَةٌ بِأُنَاسٍ وَاتِّكَالِى عَلَيْكَ فِى التَّفْوِيزِ
لَسْتُ أَرْجُو سِوَاكَ بَعْدَ إِلٰهِى عِنْدَ تَقْصِيدِهِمْ وَلَا التَّرْجِيزِ
وَوَزِيرَيْنِ جَهَّزَانِى بِجُودٍ نَعَشَانِى بِذَلِكَ التَّجْهِيزِ

(١) فى الأصل انتقاب مع فتح الكاف فى لك

حينَ عَىَّ الزّمانُ عن ذِكرِ حَقّى جَبرًا فاقتَضِ بجُودٍ وَجيزِ
أَنتَ أَدرَى بالشّعرِ من قائليه فاقْضِ فيه بالحَزمِ والتّعجيزِ
وكذا العِلْمُ بالمحرّكِ والسّا كِنِ فى نَحوهِمْ وبالمَهْمُوزِ
لَيسَ إلّا الّذى يَضُمُّهمُ المَجْـلِسُ للانتحالِ والتّمييزِ
فَهُمُ فوقَ مَنْ يرَى قَولَ حقٍّ غيرَ مُستنكَرٍ ولا مَنهُوزِ
فَأجزِنى بقَدرِ علمِكَ بالأَشْـعارِ يا خَيرَ مُنعِمٍ ومُجيزِ
بِدَنانيرَ لا أُحالُ على الجَهْـبذِ فيها ولا على كُتُبٍ رُوزِ
ورَغيفُ النّدّ الّذى غَصبُونيـه وأَكرِمْ بذاكَ من مَخْبُوزِ
غَلَبَتنى عَلَيه أيدى نِهابٍ نَهَزَتهُ بحَظِّها المَنهُوزِ
سَبَقَتنى الَيه سَبْقَ ذِئابٍ خاطفاتٍ بِهِزّةٍ وأَزيزِ
كانَ خِتلًا منهم كخَتلِ الحَوارِىّ سَيفُ الله ذى الرّدى جُرموزِ
لَو خَشينا البِدارَ منهُم لَعِشنا فيهم كاللّيُوثِ فى الأَمعُوزِ
ثُمّ آبوا بجانبٍ طَيّبِ النَّشْـرِ وأُبنا بجانبٍ مَخبوزِ
لَهفَ نفسى عليه مُلقًى كتُرسٍ وافرِ الحَرفِ مُشرفِ التّقريزِ
فَدموعى من التّأسّفِ تَجرى جَرْىَ وَفراءَ وافياتِ الخُروزِ

جَمَزَتْنِي فَوَايِتُ الحظِّ منهُ وَابْلاَنِي مِنْ حَظِّيَ الْمَجْمُوزِ
قَدْ رَأَى سَيِّدِي وُقُوفِي حَيْرا نَ كَمُصْمِي الرَّمْيَةِ الْمُتْرُوزِ
فَابْقَ يَا سَيِّدِي بَقَاءَ ثَبِيرٍ غَيْرَ ما مُزْعَجٍ وَلَا مَحْقُوزِ
وَتَمَلَّ السُّرُورَ سائِرَ مُلْكٍ غَيْرِ مُسْتَنْقَصٍ وَلَا مَبْزُوزِ
تَتَخَطَّى مَدَاسَ كُلِّ إمامٍ قاهِرَ العِزِّ غَيْرَ مَا مَعْزُوزِ

فلما أنشدته إياها استحسنها وقال « ما أعرف زائية مثلها بل لا أعرف زائية إلا للشماخ، وتلك عجوز وهذه شابة » ثم عوضني أحسن تعويض بصلة وند وعنبر .

ولما جاء بجكم وهزم ابن رائق قال لنا ما أحسن هذه الأبيات ، فى المعنى الذى نحن فيه وأنشدنا

إذا قُلْتُ يَبْرا بَعْضُ داءِ عَشِيرَتِي تَلاَقَتْ غُوَاةٌ واسْتَجَدَّ نُشُورُ
كما نُشِرَتْ مَخْشِيَّةُ العَرِّ بَعْدَ مَا عَلاَ اللَّوْنَ بُرْءٌ ظَاهِرٌ وطُرُورُ
وَمَوْلًى عَصَانِي واسْتَبَدَّ بِرَأْيِهِ كَمَا لَمْ يُطِعْ بِالْبَقَّتَيْنِ قَصِيرُ
فَلَمَّا رأى أَنْ شَتَّ أمْرِي وأَمْرُهُ وَوَلَّتْ بأَعْجَازِ الأُمُورِ صُدُورُ
تَمَنَّى حُبَيْشٌ أَنْ يَكُونَ أَطَاعَنِي وَقَدْ حَدَثَتْ بَعْدَ الأُمُورِ أُمُورُ

كذا أنشدني تمنى حبيش ثم قال أتعرف مثله ؟ قلت لا ولكن نحوه

لطارق بن ديسق اليربوعى :

إِذَا أَنْتَ جاوَرْتَ أَمْرَأً السَّوْءِ لم تَزَلْ غوائلُهُ تأتيكَ من حَيْثُ لاتَدْرِى
وفينا وإنْ قيلَ اُصْطَلَحْنا تَضَاغُنٌ كما طُرَّ أَوْبارُ الجرابِ عَلَى النَّشْرِ

ثم قلت إن سيدنا أطال الله بقاه نشأ فى حجر الصواب، فمن أين له تمى حبيش؟ فقال لى من حيث لا يطيف براويه عيب، فقلت لو أن أبا عمرو بن العلاء روى هذا لكان أخطأناسه[١] فقال : إن الطبرى يقول هذا فى كتاب تاريخه (٢) فقلت له : الطبرى ليس فى الغريب مثله فى غيره روى الأصمعى وأبو عبيدة وابن الأعرابى وأبو عمرو الشيبانى

تمى نبيشاً أن يكون أطاعنى

ومعناه أنه تمنى شيئا (٣) بعد مافاته يقال رأى هذا نبيشاً إذا رآه فى آخرة وقد فات ، قال بلال بن جرير :

كَمْ نَاصِحٍ قَدْ قَالَ لى ومَا وَشَا إنَّكَ لم تَنَاشْ لِوَصْلِ مَنْ أَشَا

يقول لم تطلبه فى أوله وأنشدته :

تَنَاءَتْ عَنْكُمْ عُدُسُ بنُ زَيْدٍ فَلَمْ يَعْرِفْكُمْ إلَّا نُبَيْشَا

يريد إلا أخيرا فقال لى فلعل الوراق أخطأ عليه قلت لا ولكن الطبرى رأى نبيشاً فى كتاب ولم يدر ماهو فظنه حبيشاً اسم رجل وهذا الشعر لنهشل بن جزى (٤) النهشلى وهو فى الخزانة فوجه فطلبه فلم يجده

---

(١) فى الأصل أخطأ ناسا (٢) الذى فى الطبرى تمى نبيشاً
(٣) كتب بهامش النسخة بخط مغاير تمنى نبيشا (٤) فى الطبرى حرى

فقلت له وهذا ايضا عجب ، يتحدث الناس بأن سيدنا مع جلالة علمه وعلو نعمته عمل خزانة كتب كما عمل متقدمو الخلفاء ، طلب فيها شعر هذا الشاعر المشهور فلم يوجد ! قال فما الحيلة وقد شغلنا بغيرها عنها ؟ قلت كتب عبيدك لك فتبتدىء فى عمل الأشعار من الخزانة ، تبدأ بمضر ثم ربيعة ثم اليمن ، فما لم يكن فيها حمله عبيدك من كتبهم ، وما كان سماعا لعبيدك أو شيئاً لا يعتاضون منه ، نسخه وراقوك الذين تجرى عليهم . وجلده مجلدو الخزانة فسكت كالمفكر . فقلت له إن الذى قلته ليس لشىء أجتلبه إنما هو حيف على كتبي ، ولكنى آنف أن يتحدث الناس بشىء يفعله سيدنا لا يكون فى نهاية الجلالة . فقال ويحك فاذا جاء ما يشغل كيف نصنع ؟ قلت يجعل سيدنا هذه الخزانة للأميرين ، ويقتصر على ما يريد النظر فيه ، قال أما هذا فنعم فأمر باخراج الكتب اليه يوما يوما ، وأجلسنا فميزناها وقسمها بين يديه ، بين ابنيه واقتصر على ما أراد ووهب لنا الباقى فاقتسمناه . وكان أكثره ما يباع وزنا .

تفسير الابيات

النشر : أن يجرب البعير فيبرأ غير بر تام ، وتبقى بقية من جربه أى قليل فينبت وبره عليه فيكون ظاهره برء وباطنه سقم ، يريد الشاعر وكذلك نحن ظاهرنا جميل وصلح ، وباطننا شر وحقد ونحوه :

وقد يَنبُتُ المرْعَى عَلَى دِمَنِ الثَّرى　　　وتَبْقَى حَزَازَاتُ النُّفُوسِ كما هيا

وهو النشر بفتح الشين ، وإنما يسكنها الشاعر لضرورة الشعر .

ثم لم يرض، حتى سأل القاضى عن هذا ، فقال رواه الطبرى على خطأ والصولى كثير السماع فمن هذا لا يحكى إلا صوابا . حدثنى القاضى بذلك وقال لنا الراضى بالله كأنى بالناس يقولون أرضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى، حتى يتحكم فى المال ويتفرد بالتدبير ؟ ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد قبلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى : فسلمت إلى ساجية وحجرية يتسحبون على ويجلسون فى اليوم مرات ، ويقصدونى ليلا . ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال وكنت أتوقى الدماء فى ترك الحيلة عليهم ، إلى أن كفانى الله أمرهم . ثم دبر الأمر ابن رائق فدبره أشد تسحبا فى باب المال منهم ، وانفرد بشربه ولهوه . ولو بلغه وبلغ الذين قبله أن على فرسخ منهم فرسانا قد أخذوا الأموال واجتاحوا الناس فقيل لهم اخرجوا إليهم فرسخا لطلبوا المال وطالبوا بالاستحقاق ، وربما أخذوه ولم يبرحوا ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية ، بل على أسبابى وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل ، وأكثر ما فيه أن يسألنى فيه كلب من كلابهم فلا أملك رده ، وإن رددته غضبوا وتجمعوا وتكلموا فلما جاء هذا الغلام جاء من لا يقول لى صنعتك أو أجلستك كما كانوا يقولون بل اجترأنا عليه بالاصطناع ، ووجدته إن تعدى أحد من أصحابه لم يرض إلا بقتله والمبالغة فى عقوبته . وإن بلغه أن عدوا قد تحول فى ناحية نهض إليه فسبق خبره من غير اعتساف لى بطلب مال ولا تلبث لوفاء استحقاق ، فرضيت ضرورة به وكان أوفق لى وأحب إلى ممن قبله ، وكان

الاجود أن يكون الأمر كله لى كما كان لمن مضى قبلى ، ولكن لم يجر القضاء بهذا لى !

وكان دعا بجكم مرات ما منها مرة إلا وهو ينفق عليه فى خلعه ، وما يحمله معه عشرين ألف دينار وزيادة عليهما من صوانى ذهب وفضة وعنبر وندومسك وكافور وبلور .

وعلم أن عادته فى داره وحشمه ألا يشرب الماء إذا جاءه حتى يذوقه بين يديه الذى جاء به يصب منه فى إناء معه فيشربه ثم يناوله إياه فكان يستعمل الراضى معه هذا إذا حمل اليه لون وضع بين يدى الراضى أولا فأكل منه ثم وضع بين يدى بجكم وكذلك النبيذ وجميع ما يوضع بين يديه ، وكان يستعفيه من هذا فلا يعفيه.

ولقد قبل فى آخر دعوة دعاه فخذه ويده فضمه الراضى اليه وأخرج من أصبعه خاتمين فوضعهما فى أصبعه أحدهما يشبه الجبل فى حمرته وكبره ، فنظر ابن حمدون إلى ونظرت اليه واغتممنا أن يكون الجبل فى يد غيره ففطن لنا ، فلما انصرف بجكم قال لنا قد رأيت نظركما وقت الخاتم وأحسبكما ظننتماه الجبل ليس به ولكنه أقرب فص فى الدنيا شبهاً به .

ولقد قال لى بجكم بعد موت الراضى ، وأنا معه بواسط ، وعلى رأسه من خدم الراضى جماعة : إن هؤلاء حدثونى أن الراضى أراد أن يقبض على فى بعض دعواته ، أفكان كذا؟ فقلت له : الأمير يعلم أن الراضى لا يرجى فى هذا الوقت ولا يخاف ، وبالله ما استبنا منه ذلك فى حال

صحوه ولا سكره ولا جده ولا هزله . وما كان إلا محباً للأمير مغتبطاً به ، ولقد كان يتصنع فى مدح ابن رائق حين كرهه ويقرظه ويصفه فما كان يخفى علينا ضميره فيه هذا من قبل ان يظهر لنا ما فى نفسه عليه فقال لى صدقت والله وكذب هؤلاء ، وما يدريهم ؟ كان الأمر عندى كما قلت ثم حدثته بما قدذكرته من قول الراضى « أنا أعلم أن الناس يقولون .. » فضحك وقال ما كان إلا نهاية فى عقله ودهائه وملقه ، ـ يريد بجكم هذا وإن لم يلفظ بهذا اللفظ ـ ولكنى أعتب عليه بانه كان شديد الجبن يؤثر لذته وشهوته على رأيه. فعجبت والله من عقل بجكم ، جاء والله بعيبيه اللذين ما كان فيه غيرهما ثم حدثته أنا كنا نقف على مكاتبته الأمير سرا ليأذن له فى المصير إلى بغداد ويشكو إليه ما كان يجرى عليه من ابن رائق فيكتب اليه

«عليك بالوفاء لمن اصطنعك ، وأحسن اليك» إلى أن كتب اليه الامير «أعوذ بالله أن يكون مولاى يريد قتلى كما يريده ابن رائق لأنه أعطانى جيشاً بمال معلوم ثم لم يوفنى استحقاقهم ، وهذا يبقى على دمى » وأنه لما ورد عليه كتاب الأمير بهذا كتب اليه : «والله ما أحب أن يتأذى بشىء أقل جندك وأتباعك لموضعك عندى ، وما يستحقه شجاعتك ومناصحتك فكيف أحب ماذكرته فيك وإذ صار الامر إلى هذا ، وجعلت وصيتى لك بالتمسك بالوفاء وحسن العهد سببا لزوال أمرك فما أحب هذا ، افعل مايصلحك »

فلما قرأ الأمير هذا الكتاب أقبل إلى بغداد . فقال كان كذا والله

ما جئت حتى جاءنى هذا الكتاب. قلت ثم وقفنا فى وقت من الأوقات أن الأمير اتهمه بأنه كاتب فى أمره بعض من يصلح للمكاتبة فى مثله وأن ذلك اتصل به فوجه إلى الأمير «قد علمت الحال التى كنت عليها لابن رائق فى كراهتى له فى آخر أيامه وما أجرى اليه بما يستوجب به إزالة أمره ومكاتبتك لى فيه بما كاتبت . فان كنت مع تلك الحال أذنت لك فى مكروهه ،أو تغير عليه مع سخطى وغضبى فإنى سأكاتب فيك على بعد ما بيننا، وأنا فى هذا الوقت مغتبط بك راض بجميع فعلك وأمرك » فضحك بحكم فقال كذا كان وأزال هذا جميع مابقلبى مما توهمته وعلمت أنه صادق فيه .

قال الصولى : وما رأيت الراضى يقرظ أحدا تقريظه الأمير أبى بكر محمد بن طغج فإنه كان يصفه ويرضى جميع ما هو عليه ،وإذا جاءته هدية من قبله استحسن جميعها وفرق علينا منها .وكان يقول إذا ذكره «رجل كبير العقل حسن الطاعة ،يشبه أجلاء الموالى الماضين وما أدرى بما أكافئه» ثم أمر فكتبت عنه كتب بأنه قد سماه الأخشاذ وأمره أن يسميه به جميع الناس.

ولما جاءته هديته فى آخر أيامه التى كان فيها الخدم الذين يغنون ويرقصون قال «لقد خصنى بما لم يملك مثله خليفة قط - وكان ربما قال بغير حضرة من لا يثق به - لو كان مثله عندى وكان جيشه مكان هذا الجيش، فانه أشبه بجيش آبائى ،وأشد تمسكا بطاعتى»

ولقد ذكره يوما فقرظه ووصفه وكان قد تغير لابن رائق تغيرا أبداه

لى وللعروضى حتى يقرئنا رقاعاً له اليه وجواباته له ، وربما أقرأنا أهاجى قد هجاه بها

فقال بعقب وصفه للأمير الأخشاذ وذمه لمن ذم كيف كنت حدثتنى عن عمارة بن عقيل مع خالد بن يزيد الشيبانى، وتميم بن خزيمة بن خازم التميمى؟ فقلت له:

حدثنى القاسم بن اسمعيل أن عمارة حدثه أنه أضاق فصار إلى تميم بن خزيمة وهو تميمى من رهطه، فسأله فاعتل عليه فجاء إلى خالد ابن يزيد الشيبانى وهو من ربيعة بعيد النسب منه فسأله فأعطاه وأكرمه واعتذر اليه فقال عمارة يفضل خالدا عليه :

أَأَتْرُكُ إنْ قَلَّتْ دَرَاهِمُ خَالِدٍ   زِيَارَتَهُ إِنِّى إِذاً لَمُلِيمُ
فَلَيْتَ بِثَوْبَيْهِ لَنَا كَانَ خَالِدٌ   وَكَانَ لِبَكْرٍ بِالثَّرَاءِ تَمِيمُ
فَيُصْبِحَ فِى قَوْمِى أَغَرَّ مُحَجَّلٌ   وَيُصْبِحُ فِى بَكْرٍ أَغَمُّ بَهِيمُ

ولعمارة أهاج فى تميم ومدح لخالد بن يزيد كثير.

فقال لى الراضى لما سمع هذا «فليت!» يريد فليت لى الأخشاذ بابن رائق ،وهذا ظريف مما كان يقوله ولكنه ينبىء عن جميعه ، وكذلك صنعت فى أشياء اختصرتها لئلا يطول الكتاب بها

ولم يزل الراضى ذكيا عاقلا مذ كان صبيا قرأ يوماً أبياتاً من الشعر فى الغزل ، فقال لى اعمل فى نحوها فعملت :

يا مَلِيحَ الدَّلَالِ رِفقاً بِصَبٍّ   يَشْتَكِى مِنكَ جَفْوَةً وَمَلَالاَ

نطق السُّقْمُ بالّذى كانَ يُخْفى   فَسَلِ الجسْمَ إنْ أَرَدْتَ سُؤَالاَ
قَدْ أَتَاهُ فى النَّوْمِ منْكَ خَيالٌ   فرآهُ كما اشْتَهَيْتَ خَيالاَ
يَتَحامَاهُ للضَّنى أَلْسُنُ العَذْ   لِ فَأَضْحى لاَ يَعْرِفُ العُذَّالاَ

فقال لى سأعمل فى نحوها فتنحى وأخذ دواة وعمل بحضرتى :

قلبى لاَ يَقْبَلُ المحَالاَ   وأَنْتَ لاَ تَبْذُلُ الوِصَالاَ
ضَلَلْتُ فى حُبِّكُمْ فَحَسْبى   حَتَّى مَتَى أَتْبَعُ الضَّلالا
قَدْ زارَنى منْكُمْ خيالٌ   فَزِدْتُ إذْ زَارَنى خبالاَ
رأى خيالاً علَى فراشى   وما أراهُ رأى خيالا

فلحن هذا الشعر بعض الطنبوريين، وغنى فيه فحدثه بها مضحك كان يدخل اليه، أنه حضر مجلساً غنى فيه بهذا الشعر فقال هو هذا لسيدنا الأمير. فقال كاتب كان فى المجلس هو لفظ الصولى وشعره فحلفت على ذلك وأقام على قوله. فقال له «عرفنى هذا الكاتب» فظن أنه يريد سوءا فيه. فقال «لعلك توهمت أنى غضبت من قوله لا والله، ولكنى استحسنت علمه بالشعر لأن الصولى علمنى الشعر وأنا أتبع ألفاظه وأنحو مذهبه. فلما قال هذا ما قال وهو لا يعرف حقيقة أمرى، علمت أنه لم يقل هذا إلا عن علم بالشعر، فأحببت بذلك أن أحسن اليه، إذ كانت فيه هذه الفضيلة» فعجبت من حسن عقله وتمييزه.

وكنا يوما بين يدى الراضى ،وهو يشرب فلغط الجلساء فجذب الدواة والدرج وكتب فيه شيئاً وناولنيه فإذا فيه :ـ

لما بَرِمْتُ براحى وانْقضَى الأَدَبُ قَرَنْتُها بأُناسٍ شأنُهُمْ إرَبُ
تراهُمُ الدهرَ لا يَرْوُونَ من لغط علَى المُدام فلا التذُّوا ولا شربوا

ولم يزل الراضى نحو سنتين من خلافته ،لا يشرب النبيذ ونشربه نحن بين يديه . وربما شرب الجلاب وأنا مصوب له ذلك مساعد عليه حتى أغواه أصحابنا فقال « إنى أعطيت الله عهدا أن لا أشربه أبدا »

وكتب رقعة بلفظه بيمينه وعرضها على الفقهاء، فوجد رخصة فوجه بألف دينار إلى لأتصدق بها عنه وشرب :

وقال لى يوما أنشدنى تشبيب قصيدتك البائية فى ابن فرات فانه عندى أحسن تشبيب سمعته قط فأنشدته

سَيّدى أَنتَ إنّنى بكَ صَبٌّ بينَ أَيدى الهُمومِ والشّوقِ نَهْبُ
وشَفيعى إلَيْكَ أَنّى مُحِبٌّ وقَديماً أُحِبَّ مَنْ لا يُحِبُّ
بَعَثَ الحُبُّ لى سَقاماً فأَعْدى ى حُزْناً مداوماً ما يَغِبُّ
لَيسَ لى نِيَّةٌ أُسَلّى بها النّفـــس لمَا قدْ رأَى ولا لى قَلْبُ
ضاعَ صَبْرى وأَخْلفتنى ظُنُونٌ كاذباتٌ يلَذُّها مَنْ يَصَبُّ
غيرَ أَنّى أَرِحْتُ مِنْ قَوْلِ لاحٍ هُوَ هَمٌّ علَى الفؤادِ وكَرْبُ

عَذَلَ العَاذِلُونَ فيكَ وقالُوا   ما عَلَى من أَحبَّ مثلكَ عَتْبُ
لكَ خدٌّ مُوَرَّدُ اللَّوْنِ سَوْلٌ   وَفَمٌ طَيِّبُ المُجَاجَةِ عَذْبُ
وَجبينٌ تلألأَ الحُسْنُ فيه   كهلال تكَشَّفتْ عنهُ حجبُ
وجُفونٌ مُفَتَّراتٌ مراضٌ   وحديثُ المُؤَنَّثُ اللَّفظِ رَطْبُ
وقَوامٌ للرِّيحِ فيهِ اُخْتِكَارٌ   يَتَثَنَّى تثنِّيَ الغُصْنِ شَطْبُ
أَخْصَبَ الحُسْنُ في جميعكَ إلَّا   أَنَّ حظِّي من كُلِّ ذَلكَ جَدْبُ
لَهفَ نفسي عليكَ لو أَنْصَفَ الحـــبُ لَذَلَّ الغداةَ لي منكَ صَعْبُ
لا أُسَمِّيكَ خيفةً بلْ أُعدِّي   عنكَ طَرْفاً دُمُوعُهُ فيكَ سَكْبُ
وَعَدَدتَ الهوى عليَّ ذُنوباً   إنْ يَكُنْ ذا فحُسْنُ وجهكَ ذَنْبُ
ايمر الزمان صفحا عليْنا   لَمْ يُنلْ طائلٌ ولمْ يُقْضَ نَحبُ
ظَلَمَتْنِي كظُلْمِكَ السِّنُّ حتَّى   شَابَ رأْسي ودعوةُ الشَّيْبِ سَبُّ
سَلَبَتْنِي ثَوْبَ الشَّبابِ الثَّلاثُو   نَ وللشَّيبِ بعدَ ذلكَ سَلْبُ
وأحالتْ دُهْماً على الرَّأسِ شُوباً   لَيْسَ يجْرِي بخيلهِ اللَّهْوُ شُهْبُ
إنْ يَكُنْ سارَ عامدًا لِدمَشق   وطَواني كَما طوَى الشَّمسَ غَرْبُ
فهوَ للقلبِ حيثُ ما مال ذِكْرٌ   وهُوَ للطَّرْفِ حيثُ مادارَ نُصْبُ

حُسْنُ رَأْىِ الْوَزِيرِ عَوَّضَ فيه فَهُوَ لِلْجُودِ والْمَكَارِمِ رَبُّ

وهى طويلة . فجلس طويلا ، ثم أنشدنى ما عمل ولم يقطعه بعد فإذا هو

أُشْهِدُ اللهَ أَنَّنِى بِكَ صَبٌّ لِفُؤَادِى من شدّة الوَجْدِ وَجْبُ

حارَ فى الجِسْمِ يَوْمَ وَدَّعْتُ دَمْعٌ فاضَ منهُ مَعَ التَّسَتُّرِ غَرْبُ

ياعليّـــــلا فَدَتْهُ مِنِّى نَفْسٌ بَيْنَ أَيْدِى الإِشْفاقِ والشَّوْقِ نَهْبُ

سَلَبَ الْقَلْبَ وَالْمُنَى وَافِدُ السِّـــنِّ وَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ لِى قَلْبُ

إِنْ أَمُتْهُ فى هَوَاكَ فَالْمَوْتُ دائِى أَنْتَ فى الْبُعْدِ لِلَّوَاحِظِ نُصْبُ

فَوَقَتْكَ الرَّدَى حُشَاشَةُ نَفْسٍ لَمْ يُجِرْها مِنَ التَّبَاعُدِ قُرْبُ

ثم قال لى قد أغرت عليك ، فقلت له إن رأى سيدى أن ينعم على ويقطع عمله لهذه الأبيات ، ففعل . ثم قال لى بعد عرفنى بما أردت بقطعى الأبيات؟ قلت إن أبياتى جهدت نفسى حتى جاء تشبيهها كما وصفه سيدنا وترتجل أبياتا فينشدها الناس معها فيرون أبياتى أجود ، وما أحب أن يرى الناس لعبد شيئاً أفضل مما يملكه مولاه من أشباهه .

وحدثنى الراضى قال لما قتل القاهر مؤنساً وبليق وابن بليق أنفذ رءوسهم إلى مع الخدم يهددونى بذلك وأنا فى حبسه لأنى كنت فى حجر مؤنس ، ففطنت لما أرادو قلت ليس الا مغالطته ، فسجدت شكراً لله وأظهرت للخدم من السرور ما حملهم على أن جعلوا التهدد بشارة

وجعلت أشكره وأدعو له فرجعوا بذلك وكتبت اليه :

بَقيتَ أميرَ المؤْمنينَ على الدهرِ ... برَغمِ الأعادى نافذَ النّهْى والأمْرِ
شفَيْتَ غليلاً كان لوْلاكَ قاتلاً ... وخفّفْتَ همّاً ضاقَ عنْ حمْله صدْرى
وقُمْتَ بحقّ الله فى قتْلِ معْشَرٍ ... سَعَوْا فى الْبلادِ بالفَسَادِ وبالْكُفْرِ
وثأْرِ أخٍ سادَ الْأنامَ ولمْ تكُنْ ... لتغفُلَ عنْ ثأرِ عراكَ ولا دَثْرِ
ولسْتَ بليثٍ أفلتتْه فريسةٌ ... وقد علقتْ بالنّابِ منهُ وبالظُّفْرِ
ولا حَيّةٍ ينجو بنَفْثٍ لديغُها ... ولا صارمٍ يهوى لضربٍ ولا يبْرى (١)
فعشْتَ لدين الله تجبُرُ وهنَه ... وبلّغْتَ أقصى ما هويتَ من العمْر
ويا ليْتنى أُسعدتُ فيكَ بنظْرةٍ ... أُوفّى بها حقّ المحامد والشُّكْرِ

فلما قرأها دعانى فقال ماشفيتك فأظهرت السرور وأكثرت الدعاء فنفعنى والله ذلك عنده ، وحال عما أراده بى إلى غيره .

وكان الراضى وعدنى وهو امير أن يشرب ليلة ، وأنا أحتال فى المصير إليه سراً ، فصرت إلى داره بالمخرم ليلا فلم أصل ، واشتغل بزائر زاره فلم يشرب ، وكتب إلى من الغد :

ولَيْلَةٍ منْ سيّئاتِ الدّهْرِ ... توقَّدَ الشّوْقُ بها فى صدْرى
توقُّدَ النّـــارِ بذاكى الجمْرِ ... أُنْسيتُ ما أشْرَبه لذكْرى

(١) فى الاصل تنحو بنفث

مُغْرًى بنسيانى وطول هجرى ‏ ‏ ذا سطوة ونخوة وكبر
وقدرة يجهل فيها قدرى ‏ ‏ ثم أتى مزورة بالعذر
أفديه من واف ومن ذى غدر ‏ ‏ يبخل عنى بقليل نزر
فاعذر فهذا خبرى وأمرى ‏ ‏ متى أرى سرى يحث جهرى
بوصل بدر فاضح للبدر ‏ ‏ يسكرنى باللحظ قبل سكرى
يا طالبا قتلى لغير وتر ‏ ‏ يهنيك هجر منك يفنى عمرى

ولما هزم بجكم لابن رائق خرج إلى الشام ، وصار أميرا مكانه دعانى الراضى فأنشدنى :

أبعد ما قد حلبت الدهر أشطره ‏ ‏ محاربا لخطوب حكمها جارى
وفلقت حيلى هام الرجال أرى ‏ ‏ والغيب يخمد ما أذكيت من نار
صممت عن صبوات يستجيب لها ‏ ‏ ناس بأوتار لهو ثار أوتار
وفل لذات لهوى جيش عارفتى ‏ ‏ وقلم العزم منى نقر أوتارى
حتى رحضت بتحريضى العدو على ‏ ‏ قتل العدو ثياب الذل والعار
كذاك من تنهض السادات همته ‏ ‏ لا يغمض العين مغلوبا على ثار
ورب خطب دجا ذل الجبان له ‏ ‏ وقد فراه بأنياب وأظفار
لم يحتنك ليله حتى صدعت له ‏ ‏ صبحا من الرأى لا يعشى به السارى

فَقُلْ لِمَنْ يُلْهِبُ الإِهمالُ غُرَّتَهُ   أُسْتُغْنِ عَنْ صِدْقِ إيقاعٍ بإِنْذارِ
وَلَا تُمِرَّنَّ حَبْلًا لِلْخِلافِ فَقَدْ   رأيتَ نقضي وإحْكامي لإمرارِ
لا تَبْسُطَنَّ رِماحًا لا زِجاجَ لَها   إلى سُيُوفٍ مُطيحاتٍ بأعْمارِ
فإنَّها حينَ تُدْنيها لِمَلْحَمَةٍ   تَبْرِي بكُلِّ رَقيقِ الحَدِّ بَتّارِ
وعِشْ بِنِيَّةِ صِدْقٍ تَسْتَدِرُّ بها   رِسْلَ الحَياةِ بِعُرْفٍ لا بإِنْكارِ
أو فَاسْحَبَنْ ذُيُولَ الذُّلِّ مُقْتَسِرًا   وَانْظُرْ بطَرْفٍ خَفِيِّ اللَّحْظِ غَدّارِ
لا يُحْرَمُ المَرْءُ فِي وِرْدٍ يُحاوِلُهُ   حَتَّى يُوَجِّهَ فيهِ وَجْهَ إِصْدارِ

ثم قال لي كيف تراه ؛ فحلفت أنه ماقال في جودته خليفة قط ولكن فيه شيء يغيره ، قال وما هو قلت قولك :

حتى رحضت بتحريضي العدو على   قتل العدو ... ...

اجعله بتحريضي الولي على قتل العدو ، فقال صدقت والله خرج الكلام على ما في نفسي فغيره فقال إنما عنيت ذهاب الساجية والحجرية بابن رائق ، قلت أخاف أن يتأول أنه لبجكم وابن رائق لأنك عملته بعقب أمرهما. قال صدقت وكنت عملت أبياتا على قافية الشين :

غَشِيَتْني مِنَ الهُمومِ غَواشٍ   لِعَذُولٍ يَلُومُ فيكَ وواشِ
لَوْ يُلاقُوا الَّذي لَقِيتُ مِنَ الوَجْـ   ـدِ لِشَوْقٍ بَيْنَ الجَوانِحِ ناشِ
نَمَّ بالسِّرِّ عِنْدَهُمْ دَمْعُ عَيْني   إنَّ سِرَّ المُحِبِّ بالدَّمْعِ فاشِ

مَنْ عَــذِيرِى لِظَالِمٍ أَتَامَنهُ فِى زَمَانِ الوِصَالِ لِلْهَجْرِ خاشِى
أَخَذَ الْقَدَّ مِنْ قَضِيبٍ رَطِيبٍ وحَكَى أَعْيُنَ الظِّبَاءِ العِطَاشِ

فأنشدتها الراضى فى إمارته . فعمل فى قافيتها ومعناها :

نُحُولُ الْجِسْمِ مِنْ وَاشٍ وَدَمْعِى لِلْهَوَى فَاشِى
لِأَنِّى فِى زَمَانِ الْوَصْـــلِ مِنْ هَجْرِكَ لِى خَاشِى
لِإِصْغَارِكَ لِلشَّكْوَى وَإِصْغَائِكَ لِلْوَاشِى
فَأَوْحَشْتَ بِإِدْنَاهُ وَآنَسْتَ بِإِيحَاشِ
عَرَانِى سَقَمٌ نَاشٍ بِهَجْرٍ مِنْكُمُ نَاشِى

وعملت أيضا :

حُبٌّ لِأَحْمَدَ قَدْ فَشَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَا
يَهْتَزُّ فِى حَرَكَاتِهِ مِثْلَ الْقَضِيبِ إِذَا مَشَى
خَدَّاهُ مِنْ بَرَدِ الدُّجَا وَالْمُقْلَتَانِ مِنَ الرَّشَا
لَمَّا ظَفِرْتُ بِوَصْلِهِ وَمَلَكْتُ مِنْهُ مَا أَشَا
أَحْلَى الْبَرِيَّةِ أَوْ عَــلَى عَيْنِ الَّذِى يَهْوَى غِشَا
وَتَنَاوَمَتْ عَيْنُ الرَّقِيــبِ لِحَثِّ أَقْدَاحِ الْوَشَا

وَفَشَا الْحَدِيثُ بِحُبِّنَا   وَالْحُبُّ يَحْسُنُ إِنْ فَشَا
عَبَثَ الْوُشَاةُ بِوَصْلِنَا   حَسَدًا فَقُبِّحَ مَنْ وَشَا

فعمل هو :

أَفْرَحَ الْقَلْبَ وَالْحَشَا   مُفْتَنٌ لَحْظُهُ رَشَا
مَلَكَ الْجِسْمَ حُبُّهُ   فَبَرَاهُ كَمَا يَشَا
لَا يُجَازِى عَلَى الْوِصَا   لِ وَلَا يَقْبَلُ الرِّشَا
شِئْتُ أَنْ يَرْحَمَ الْمُحِـ   ـبَّ وَهَيْهَاتَ مَا أَشَا
يَا هِلَالًا إِذَا بَدَا   وَقَضِيبًا إِذَا مَشَى
أُفْشِ وَصْلًا فَإِنَّ هَجْـ   ـرَكَ لَا كَانَ قَدْ فَشَا

وكان الراضى بالله وصلنا وهو فى الزيدية، وأقام بها أياما وعملت له فيه قرية كما يعمل للملوك، أنفق عليها مال، ثم فرقها علينا ووهب لنا ثيابا. فلما عبر بلغه أن الناس تكلموا فى إعطائه لنا وإسرافه فى أمرنا فقال :

لَا تَعْذِلِى كَرَمِى عَلَى الْإِسْرَافِ   رِبْحُ الْمَحَامِدِ مَتْجَرُ الْأَشْرَافِ
أَجْرِى كَآبَائِى الْخَلَائِفِ سَابِقًا   وَأُشِيدُ مَا قَدْ أَسَّسَتْ أَسْلَافِى
إِنِّى مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ أَكُفُّهُمْ   مُعْتَادَةُ الْإِخْلَافِ وَالْإِتْلَافِ

ولما ملك بجكم واسط فى آخر خروجه إليها وفعل بابن رائق ما

فعل وقتل، أنشدنى الراضى:

يا عُمْـــدَةَ السُّلْطَانِ ولَيْثَ هذا الزّمانِ
ومُشْتَرِى الحَمْدَ مِنِّى بأوْفَرِ الأثْمانِ
فَكَكْتَ أَسْرِى مِنْ كَفِّ طارقِ الحَدَثانِ
فصِرْتُ أَسْبِقُ جَرْيًا وقَدْ مَلَكْتُ عِنانى
فَأَنْتَ حَرْبُ عَدُوِّى وسِـــلْمُ مَنْ وَالَانى
والسَّيْفُ مِثْلُ لِسَانِى إذَا تَعَايَا لِســـانى
تَسُرُّنى كُلَّ وَقْتٍ فى غَيْبَةٍ وعِيَانِ
فَشُكْرُكَ الدَّهْرَ لَاشُكْـــرُ غَيْرِكَ شَانى

ومن كرم الراضى وشريف أخلاقه أن ابن حمدون كان يبارى على بن هارون المنجم فى الشرب بين يديه ، وإذا شرب أحدهمـــا خماسية قبل صاحبه رفعها ليراها الراضى ففعل ذلك مراراً كثيرة، إلى أن ضجر الراضى فقال كأنها قوارير بول ترفع بين يدى طبيب وهو مع ذلك لحلمه وكرمه يضحك لما يفعلانه ويثيب عليه إلى أن فعلاذلك يومافقال لهما وقدتلاحيا : لا عليكما الأمر عندى سواء فى فعل جميعكم من زاد فى شربه فإنما فعل ذلك سروراً بنا ونشاطا لمجلسنا وإنما بقى على نفسه لخدمتنا وأحب به مطاولتنا فقبلنا الأرض بين يديه وحلفنا

أنه ما جلس مجلساً أكرم عشرة منه لعبيده ، وأقبلنا عليهما فقلنا : أبقى لكما الآن شيء بعد هذا فقصرا عن كثير فعلهما ذلك مما تركاه فى وقت:

ومن كرمه أنه كان كلما أراد الشرب وضعت بين أيدينا صوان فيها خماسيات مطبوخ ومغاسل وكيزان ماء ليشرب كل واحد منا ما يريد ، ولم يكن يفعل ذلك الخلفاء إلا خصوصاً بالواحد بعد الواحد، وبالجماعة فى وقت من الدهر . وإن كان الخدم الشرابية يجيئون بالأقداح فيناولونها الجلساء فيشربونها ويردونها عليهم ، وربما أرادوا من الخدم ماء لأقداحهم فيما كسونهم فيه ، وكان يأمر بأن يوضع بين أيدينا الفواكه الرطبة واليابسة فننال منها كما ننال فى بيوتنا ، وما كانت الخلفاء تفعل بجلسائها ذلك إلا فى الحين إن فعلوه .

وكان كثيرا يقول لكرمه ووفائه ومحبته أن يؤكل طعامه: أمر النبيذ اليكم اشربوا ما شئتم وأمر الأكل إلى لا بد من مطالبتكم به حتى تأكلوا معى ، ويمدح من يزيد أكله بين يديه وينفعه ذلك عنده . ولقد تعشينا ليلة بين يديه فجاءونا بخبز سميذ كبار ما رأينا أحسن مما خبز فعزل العروضى رغيفاً وقال نوبتى فى غد فى بيتى ، وقد استحسنت هذا الرغيف وأريد أكله فى غد فاستبنت أنه قد سر لما فعل العروضى.

وجاءت جامات فيها بوارد فعزلت جاما وقلت: ما ذقت والله أطيب من هذه الباردة وأنا كالشبعان وأريد أن آكلها فى غد مع العروضى فإنا شريكان وفرغنا من الأكل وجاسنا ورفع الرغيف والجام ، ثم وضع بين العروضى الرغيف بعينه وفوقه دراهم قد ملأته ووضع بين يديه

جام فيه دراهم مثل مافى الرغيف فضج الجلساء لذلك وسألوا أن يفعل بهم مثل ذلك فقال إلا أن هذين استطابا طعامنا فأزلا منه لغد مايقصر عن كفايتهما فأحببنا أن نتمم أمرهما بما فعلناه ولم يكن لكم سبب فى مثل هذا فنفعل بكم كما فعلناه بهما . فانصرفنا ولم يأخذ أحد شيئا غيرنا وأعطينا الرغيف والجام كما رفعا ، فكان فى الجام ألفا درهم وكذلك على الرغيف .

ولما ورد قتل ياقوت على الحجرية اضطربوا اضطرابا شديدا واجتمعوا إلى الراضى بالله وقالوا قبضت على ابنه أبى بكر لغير ذنب فحبسته ، ثم قبضت على أخيه أبى الفتح ثم كتبت إلى ابن البريدى فى قتله ، فجلس لهم وأحضر القاضى ، وأحضر معه من العدول أبا الحسن الهاشمى بن أم شيبان ، وابن عمه عبد الوهاب ، وجلس الراضى لهم ليلا . فدخلوا إليه وهو على كرسى ، فلغطوا وكان الصغار أشد كلاما وأبسط ألسنا من كبارهم وقوادهم . فتركهم حتى تكلموا بكل ماأرادوه وأخرجوا مافى أنفسهم ، ثم أقبل عليهم رابط الجأش ذرب اللسان فكلمهم أحسن كلام ، وقال : إن كان هذا الأمر قد صح عندكم ، فعرفونى من أى وجه صح لأعرفها كمعرفتكم ؟ وإن كان ظنا فالظن يخطىء ويصيب ، وإنما ظننتم هذا بمجىء أخ البريدى أبى الحسن إلى الدار هذه الأيام ، وإنما كان يجىء بكتب أخيه يشكو معاملة ياقوت ، ثم أخرج فصولا من كتب ، فدفعها إلى القاضى فقرأها عليهم ، وفيها جوابات من ياقوت إلى ابن البريدى ، وقد أنفذها ابن البريدى إليه ثم قال له

ماقبلت فى ابن البريدى إلا رأى محمد بن ياقوت ، والآن فقد وتقدم على الخبر ، وأنا أعزلهم وأنفذ الجيوش إليهم ، وأخرج معكم إن أردتم ثم كلمهم القاضى وفرقهم .

وكنت وهو أمير بعد اعتللت فى يوم نوبتى عنده ، فكتبت رقعة أعتذر فيها بالعلة لتخلفى عن خدمته فوقع إلى :

وَصَلَتْ رقعةٌ فَأَوْصلَتِ الْوَحْـــشَةَ لَمَّا أَتَتْ بِشَكْوَى الأَنِيسِ
بُدِّلَ الْقُرْبُ بِالْبِعَادِ فَبُدِّلْـــتُ بِيَوْمِ السُّرُورِ يَوْمَ عَبُوسِ

فكتبت الجواب :

وَصَلَتْ رُقْعَةُ الْأَمِيرِ الرَّئِيسِ غُرَّةِ الدَّهْرِ وَالْخَطِيرِ النَّفِيسِ
فَأَزَالَتْ مَا كُنْتُ أَشْكُو وَأَهْدَتْ لِي نَعِيمًا وَأَذْهَبَتْ كُلَّ بُوسِ
وَأَتَى الشِّعْرُ مُبْرِئًا وَشِفَاءً وَأَنِيسًا يَفُوقُ كُلَّ أَنِيسِ
حَسَنَ اللَّفْظِ مُطْرِبًا كُلَّ مَنْ يَسْـــمَعُ إِطْرَابَ زَابِدَاتِ الْكُؤُوسِ
قَدْ جَلَاهُ الطَّبْعُ الْمُغَاثُ بِحِذْقٍ لِعُقُولِ الْوَرَى جِلَاءَ الْعَرُوسِ
أَضْحَكَ اللهُ بِالْأَمِيرِ زَمَانِي وَلَقَدْ كَانَ قَبْلَهُ ذَا عُبُوسِ
صِرْتُ مُذْ قَدَّرَ الْإِلَهُ جُلُوسِي مَعَهُ سَيِّدًا لِكُلِّ جَلِيسِ
ضَاقَ شُكْرُ الْعَبِيدِ عَنْ بِرِّ مَوْلًى مِثْلَ ضِيقِ الْغُفْرَانِ عَنْ إِبْلِيسِ

وكنا يوما نشرب بين يديه ، فرأيت من ذكائه وسرعة خاطره ما جعلت أعجب منه ، وذلك أنه سأل عن شعر فقال أحمد بن يحيى هو لدعبل فقلت أنا هو لمحمد بن الحجاج البغداذى فلاحانى . فقلت له : إن أقرب من أنشدناه لمحمد أبوك عن أبى هفان ، وكان ذكره فى كتبه فأمسك وضحك الراضى ، وقال فأنشدنيه ، فأنشدته وهو مقبل على يسمع :

زَمَنٌ بِمَا طَابَ سُقِيتَ زَمَانَا ... مَا كُنْتَ إلاَّ رَوْضَةً وَجِنَانَا

أَصْلَحْتَنِى بِالجُودِ بَلْ أَفْسَدْتَنِى ... وَتَرَكْتَنِى أَتَسَخَّطُ الْإِحْسَانَا

مَنْ جَادَ قَبْلَكَ كَانَ جُودُكَ فَوْقَهُ ... لَمْ أَرْضَ قَبْلَكَ كَائِنًا مَنْ كَانَا

وليس الشعر هكذا ، إنما قال :

من جاء بعدك كان جودك فوقه ... لم أرض بعدك كائنا من كانا

فلم أستحسن أن أنشده بعدك فى أول البيت وبعدك فى آخره . فأنشدته كما ذكرت ، فقال : محمد بن يحيى الصولى يحيل الشعر إذا أنشده ، ما كذا قيل ، فقال له فكيف الشعر فأنشده :

من جاد بعدك كان جودك فوقه ... لم أرض بعدك كائنا من كانا

ففطن أنى قلبت اللفظ عمداً لما فيه ، وأن هذا مما لم يفطن له أحمد فقال له : تلك رواية الصولى ، وهذه روايتك أنت فقال كذا والله ياسيدى قال الشاعر ، وكذا أنشدنى أبى . فقال له : قد علمت كما أنشدك أبوك أيضا لنفسه ! إن كنتم قريش فمه ! فسكت وانقطع الكلام .

وكان إذا ذكر أبيات يحيى بن على هذه يشتد غيظه ويقول أقوالا يسمعها سائر الجلساء، لا أحب ذكرها، ويسرنى منه بأن يقول قد شفى القلوب ابن المعتز بجوابه

وأنشدنى يوما العروضى جواباً ليحيى فى غير شعر عمله أحسن والله فى بعضه. ولكنى لا أذكره للطعن الذى فيه.

واعتللت وهو أمير فتأخرت عن خدمته، والنوبة التى كانت على فكتب إلى رقعة فيها:

يا عليلاً جَعَلَ السَّا   عَةَ إذْ غابَ شُهُورَا
ولَقَدْ كانَ به الـ   ـدَّهْرُ إذ جاءَ قَصِيرا
لِعُلُومٍ لا أرى الـ   ـدَّهْرَ لَهُ فيها نَظِيرا
صَرَفَ اللهُ الأذى   عَنْكَ ولَقَّاكَ سُرُورا

فكتبت الجواب:

يا أميرًا ما رأَيْنَا   مِثْلَهُ فَضْلاً أميرا
يا أبا العَبَّاس يا شَمْـ   ـساً ويا بَدْرًا مُنيرا
يا كَبيرَ العَقْلِ والْـ   آداب مُذْ كانَ صَغيرَا
والَّذى نَكْذِبُ إنْ   قِسْنابِهِ يَوْماً نَظِيرا
قَدْ أَتَى عَبْدَكَ شِعْرٌ   مِنْكَ خَلاَّهُ حَسيرا

بَعْدَ سَبْقٍ مِنْ خِطَارِ الـــشِّعْرِ مَنْ كَانَ خَطِيرَا

حَسَنُ اللَّفْظِ يُحَاكِي ... رَصْفُهُ الدُّرَّ النَّثِيرَا

مَلَأَ الجِسْمَ شِفَاءً ... وَحَشَا القَلْبَ سُرُورَا

كَانَ مِنْ عَارِضِ شَكْـ ... ـوَايَ وَمِنْ دَهْرِي مُجِيرَا

لَيْسَ مَا يَذْخَرُهُ عِنْـ ... ـدِي مِنَ الشُّكْرِ يَسِيرَا

سَوْفَ أُهْدِي مِنْهُ رَوْضًا ... جَاوَرَتْ مِنْكَ غَدِيرَا

كَمْ عَسِيرٍ عَادَ لِي مِنْ ... حُسْنِ نُعْمَاكَ يَسِيرَا

قَدْ يَرَى العَبْدُ وَإِنْ ... قَلَّ بِمَوْلَاهُ كَثِيرَا

سنة ثلاث وعشرين وثلاثمائة

مات فى المحرم منها ابراهيم بن خفيف ، صاحب ديوان النفقات وتقلد موضعه محمد بن يحيى بن شيرزاد ، وتقلد الزمام عليه سعيد بن عمرو بن سنكلا . وفى هذا الشهر ظهر ابن خزابة بعد استتار ، وصودر على مال كثير ، وضج الناس من غلاء السعر ، وكان الخبز قد صار إلى أربعة أرطال بدرهم ، وأظهر قوم من بنى هاشم المصاحف وشكوا الجوع .

ومات إبراهيم بن حماد لسبع خلون من صفر ، ودفن إلى جانب قبر إسماعيل بن إسحاق .

واحتبس القطر فنادى السلطان بخروج الناس للاستسقاء ، فخرج

أهل الجانبين فى يوم الأحد لثمان ليال خلون من شهر ربيع الأول ، وخرج الأئمة فصلوا بالناس ودعوا وانصرفوا .

ووافى كتاب قاضى اصبهان لأربع عشرة بقيت من شهر ربيع الأول بقتل مرداويج ؛ وكان السبب فيه أنه جعل عسكره صنفين صنف منهم جيل وديلم وهم خواصه وأهل بلده الذين فتح بهم الرى ونواحيها ، ومنهم صنف أتراك وأهل خراسان ، ثم استخص نفرا من الأتراك فوجد الديلم من ذلك وعاتبوه عليه ، فقال إنما اتخذت الأتراك لأقيكم بهم ، وأقدمهم يحاربون بين أيديكم ، وأنتم خاصتى وأنا بكم ولكم . فبلغ ذلك الأتراك فأجمع رأيهم على قتله ، فأوصوا الغلمان الصغار الذين فى خدمته ووكدوا عليهم بالتركية أن يفتكوا به ، فقتلوه فى حمام . وجاءهم الذين واطأوهم على ذلك وأخرجوهم من الدار ، وركبوا دوابه وساروا فاضطربوا فقالوا نجعل علينا رئيسا فرضوا ببجكم وأخذوا من داره مالا عظيما وآنية فضة وذهب ، وكان قد تكبر وتجبر ووضع التاج على رأسه مكللا بأحسن الحب والياقوت وجلس على سرير فضة حواليه ذهب ، وكان مرصعاً بجوهر وقال أنا أرد دولة العجم وأبطل دولة العرب ، وصار ببجكم والغلمان الذين معه الى ابن رايق فقبله أحسن قبول ، وغمره بالإحسان وخلع على غلام الراشدى بحمص وأعمالها .

وقبض السلطان على ابن شنبوذ لما رفع عليه من قراءته بما لا يجوز ، وشهد عليه بشهادات فأحضر دار ابن مقلة وحضر ابن مجاهد

وجماعة من القضاة والفقهاء، فنوظر فتاب ورجع عن رأيه فكتبت رقعة نسختها:

«يقول محمد بن أحمد بن أيوب المعروف بابن شنبوذ إنى كنت أقرأ حروفا تخالف مافى المصحف المنسوب إلى عثمان رحمه الله، الذى اتفق عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وعلى تلاوته، ثم بان لى أن ذلك خطأ فأنا منه تائب وعنه مقلع وإلى الله منه برىء، إذ كان مصحف عثمان هو الحق الذى لا يجوز خلافه»

وكتب بخطه فى أسفل هذه الرقعة:

«يقول محمد بن أحمد بن أيوب مافى هذه الرقعة صحيح وهو قولى واعتقادى، أشهد الله على ذلك ومن حضر، وقد كتبت هذا بخطى فمتى خالفت ذلك أو بان منى غيره، فأمير المؤمنين أطال الله بقاه فى حل وتبرئة من دمى»

وكتب يوم الأحد لسبع خلون من شهر ربيع الآخر فى سنة ثلاث وعشرين وثلثمائة وذلك كله فى مجلس الوزير أبى على.

ودعا الأئمة فى يوم الجمعة بالجانب الشرقى والغربى بعد دعائهم للراضى لابن ياقوت وقرظوه، فبلغ ذلك الراضى فأنكره وأمر بأن يقلد مكان أبى عمر حمزة بن القاسم من ولد العباس بن محمد على الصلاة بجامع الجانب الغربى أبو جعفر عبد الله بن إسماعيل بن إبراهيم بن عيسى بن جعفر بن المنصور ويعرف بابن بريه، وأن يقلد مكان أبى الحسن أحمد بن الفضل بن عبد الملك من ولد العباس بن محمد أبو بكر

محمد بن الحسن بن عبد العزيز على الصلاة بالجامع الشرقى ، وأن يقلد أخوه الصلاة بجامع السلطان.

وشغب المؤنسية فى طلب الأرفاق وقطعت الجسور وأرجف الناس بابن ياقوت أنه قتل فركب فى الجانبين وأزال الإرجاف بركوبه وسكن الناس .

وتوفى أحمد بن عبد العزيز الجوهرى صاحب عمر بن شبة بالبصرة لخمس بقين من شهر ربيع الآخر .

وقبض على محمد بن ياقوت يوم الإثنين لست خلون من جمادى الأولى ، وعلى كاتبه أبى إسحاق القراريطى وعلى نجاح كاتبه على الجيش فقبض من ابن ياقوت على رجل كامل فى عقل وعلم وشجاعة وصيانة وعفاف .

واجتمع الحجرية والساجية فقالوا : لا نرضى بأن يكون بدر الخرشنى والياسرطة بغداد فسفر بينهم وبين بدر ورفق بهم حتى رضوا به وبلغ السلطان أن أبا الفتح بن ياقوت يضرب الحجرية والساجية على الراضى ، ليفتكوا به وتوقع البيعة لبعض إخوته فقبض عليه وهو بين يديه يخاطبه ووكل بدوره فلم تنهب وحمل ما فيها ليلا إلى دار السلطان.

وخلع الراضى على غلامه ذكى للحجبة يوم الثلاثاء لسبع خلون من جمادى الأولى وغضب صغار الحجرية لابن ياقوت ، وقالوا يناظر بحضرتنا فإن وجب عليه شىء وإلا أطلق فداروهم حتى سكتوا وأمر بقبض ضياع ابنى ياقوت ، وحمل القراريطى إلى دار الوزير وأخذ خطه

بمال قيل إنه ثلاثة ألف ألف درهم أو أقل.

ومات ابن المبشع الشيعي ، وكان يروى عن عمر بن شبة لليلتين بقيتا من جمادى الاولى . وفى جمادى الاولى خلع على أبى الحسين على بن محمد لخلافه أبيه . وزاد أمر الحنبلية فى هذا الوقت ونهبوا دكاكين بباب الشام لأن البربهارى مضى بعود أمر عبد الله بن أحمد بن حنبل وعاثوا فى مربعة شبيب فأنكر السلطان ذلك وأمر بطلب الدلاء وابن رمضان فلم يوجدا.

وكان النوروز لثمان خلون من رجب ، ووجه الراضى إلى أخيه العباس وأحضره الدار مع طائفة منهم أبو القاسم كاتب نازوك ثم أخرج العباس بين الظهر والعصر . وحضر الوزير والقاضى عمر ابن محمد وحضرنا ، فكتب القاضى كتابا بيده ولم يكتبه الوزير . وقال للقاضى فى هذا شروط أنت بها أحذق وعليها أقوم . فكتب كتابا حسنا عن حلف العباس ومن معه ، أنه ما نكث ولا خرج عن طاعة.

وفى آخر جمادى ولى أبو العلاء سعيد بن حمدان أعمال ابن أخيه الحسن بن عبد الله فنفذ فى خف من الجيش فأنزله دارا له لما صار إلى الموصل وأطمعه فى التسليم اليه ، ثم قبض عليه وقتله غلمان الحسن وعظم ذلك على الوزير ، وأصلح آلة للخروج ، وحلف أنه لا بد له من أن يوقع به أو يصير إلى الحضرة ، ويؤدى عشرة ألف ألف دينار.

وقبض على على بن عيسى يوم الاربعاء لأربع بقين من رجب . جاء راغب الخادم فحمله إلى دار السلطان ، ثم صاعد به إلى دار الوزير ،

وأخذ خطه بخمسين ألف دينار

وكان الاصل فى هذا أن الراضى زعم أن ابن حمدان الحسن وجه اليه بخمسة آلاف دينار على يد ابن طليب الهاشمى ، ليوصلها الى الراضى ، فلم يفعل ذلك . فكان الراضى بعد نكبة على بن عيسى يحلف أن عليا اختان الخمسة الألف . فكنت أقول له لو تأمل سيدنا هذا من أين وقع ، وأن عليا لا يمد عينه إلى خمسة آلاف دينار ، وهو أبعد الناس من هذا ، وكنت أحدثه عنه بما أقدر إزالة ما وقع بقلبه ، فلا يقبل إلى أن ضرنى ذلك عنده وسعى بى قوم من الجلساء إلى الوزير فانحرف عنى بعد ميل ، وحرمنى بعد إعطاء

وكثر ضجيج بنى هاشم فى شكوى الضر وسودوا وجوههم ومنعوا الإمام يوم الجمعة بالجانب الغربى من الصلاة ، فصلى بعد جهد مخففا للخطبة

وتوفى فى آخر رجب أبو عبيدة القاسم بن إسماعيل المحاملى المحدث ودفن بمقابر الدير . ووجه الوزير إلى منازل أبى الفرج بن حفص وولده فكبسهم فيها ، وطلبهم فلم يوجدوا فهدم دورهم وجمر نخيلهم ، ونقل ما وجد لهم من الأثاث . وكان ذلك لرقعة زعموا وجدت فيها تضمن ابن حفص للوزير وجماعة معه بمال خطير

وخرج الوزير مصاعدا إلى الحسن بن عبد الله لخمس خلون من شعبان ، ومعه خلق من الحجرية والقواد ، واستخلف على الحضرة ابنه أبا الحسين . وأطلق على بن عيسى إلى منزله بعد أدائه المال ، وانحدر

إلى ضيعته بالصافية لأيام خلت من شعبان ، وانتقل والده إلى الصافية جمال بغداد ، ومن لا يرى الناس مثله . ومات نسيم البشرانى الخادم للنصف من شعبان فأمر الراضى أن يرد ما كان اليه إلى كاتبه أبى عمرو فأبى أن يقبل ذلك إلا برئيس من الخدم يكون الاسم له ، وحشم الشراب ومن يخدم فيه مضمومون اليه ، وهو يكفى أمر الخدمة فجعل الراضى ذلك إلى زيرك الخادم القاهرى

وفى هذا الشهر خرج مفلح الأسود إلى بيت المقدس أشير عليه بذلك لكراهة الراضى مقامه بالحضرة ، ولعهدى به وقد دخل ليودعه وهو يبكى ويضطرب ، ويقبل الأرض . ويشكو أن فراقــه لمولاه كفراقه لحياته . والراضى يقول هذا وجه كنت تحبه ، وحيث ما كنت فأنت لى وقريب منى وعنايتى تلحقك . ثم خرج على كره منه

وورد الخبر بدخول الوزير إلى الموصل أول يوم من شهر رمضان على اختيار عمل له . ومات أبو عبدالله بن المهتدى لليلتين خلتا من شهر رمضان ، وكان قد حدث وكان فقيها مشهورا ، له حلقة يجتمع اليه الناس ، وفى هذا الشهر قطعت يد رجل فى ناحيـة بشرى المؤنسى وطيف به فى الجانبين ، ونودى عليه هذا جزاء من يسعى فى الأرض فسادا لأنه اتهم بأن جماعــة من الحجرية كانوا يجتمعون فى دار له بدرب النهر لبيعة يوقعونها ، فقرر وضرب فقال أنا مقتول ، فلم أوقع غيرى فمنى ووعد العفو فابتدأ يقر ، فذكر جليلا من الحجرية ، وأراد أن يذكر غيره ، فأمر الراضى بترك سؤاله وقال : ماحاجتى أن أفسد

نيات قوم إذا عرفتهم لم أجد من ينصرنى عليهم ويعاوننى لعلمهم بوقوفى على أمرهم فقيل له لا يذكر أحدا وهذا من جيد رأى الراضى ، وكان قد حفظ عنى أن المأمون لما قتل ابن عائشة وجد فى منزله قماطر فيها مكاتبات بعض الجندله ، فجلس وأحضرها وجمع الناس ، وقال : أنا أعلم أن فيكم المستزيد والعاتب ، وإن نظرت فى هذه الكتب فسدت عليكم وفسدتم على ، وقد وهبت مسيئكم لمحسنكم . وأمر فأحرقت القماطر وأسفرت وجوه القوم واستصيب رأيه

ووقع بالكرخ حريق عظيم فى شوال أحرق العطارين والصيادلة وأصحاب المدهون والخزازين والجوهريين ، وكان عظيما . وقبل ذلك بقليل وقع حريق دونه فى أصحاب الحناء والاشنان فآثاره باقية إلى وقتنا هذا ، ما رد الى حالته لما يتزايد من خراب البلد

وانصرف الوزير من الموصل ولم يبلغ ما أراد فأقام بالبردان لثلاث بقين من شوال لينقضى كسوف الشمس ، وكان لليلتين بقيتا من شوال ثم دخل فى أول ذى الحجة وخلف بالموصل على بن خلف بن طياب على الخراج ، ويانسا المؤنسى على الحرب

ووافى فى هذا الوقت جميع من كان مع محمد بن خلف زوج أخت ابن الحوارى بالخيل مفلولين هزمهم الديلم ، فيهم ابن عمرويه وابن الفارقى

وولى لؤلؤ طريق مكة ، وكان غلاما للمتهشم فخرج بالناس فلقيهم القرامطة يوم الاربعاء لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة ،

بطيز ناباذ فقاتلهم أشد قتال ، إلى أن خذله أصحابه وأصابته ضربات فطرح نفسه مع القتلى ثم دب ليلة الخميس إلى أن صار إلى الكوفة فاستتر . وكان من انقضاض الكواكب فى ليلة الاربعاء التى قطع على الحاج فى صبيحتها ، فلم يفلت منهم أحد مالم يعهد مثله بالكوفة وطيز ناباذ موضع الوقعة ، وكان عندنا ببغداد من ذلك ما لم نر مثله ولا سمعنا به قط واستؤسر ابن حاتم ، وكان قد تقدم فى قافلة الخوارزمية فقتلوا كلهم ، وصار إلى القرامطة ألفا جمل عليها أصناف البز والأمتعة وأفلت القراريطى من حبس الوزير وتحدث الناس أنه أطعم الموكلين طعاما فيـــه بنج .

وأحضر الراضى جعفر بن المكتفى فحبسه لشيء بلغه عنه ثم أخرجه الينا مرات نسائله ونخاطبه ، وأرسلت إلى والدته تسألنى الكلام عنه فما بقيت غاية أنا والجلساء فى ذلك حتى أطلقه ، وذلك لما أوجب الله عز وجل على من حق المكتفى ، واصطناعه إياى وإحسانه إلى ، وكثر الضجيج ببغداد لما نال الحاج ووثب العامة بأصحاب المعاوز فى الطرق والمساجد . ونال الراضى من ذلك أمر عظيم ، وصام أياما ، وكان يقول : لو كان لى مال كمال المكتفى حين فعل ذكرويه بالحاج ما فعل ، فطلبه بالجيش والأموال حتى قتله لما رضيت والله إلا أن أخرج بنفسى إلى البحرين . ولكن ماحيلتى فى جند مستحثين ، قد ملكوا الأمر دونى وعوز مال ، وانخراق هيبة إلى الله أشتكى وبه أستنصر .

والحجرية والساجية يعيبونه كل يوم حتى يجلس لهم مرات بالليل

والنهار لا يريده أحد منهم فيحتجب عنه . وصودر أبو يوسف كاتب أم جعفر المقتدر بالله ، على أحد وعشرين ألف دينار . وحمل الحسن ابن هارون مالا ، وحمل جماعة منهم مصانعة عن أنفسهم . ووافى الحسن بن عبد الله من الموضع الذى كان صار اليــــه فولى نقيطا المؤنسى نصيبين وقلد الديلمى القائد الذى كان معه بلد لأن من كان بالموصل لم يتجاوزها .

وأحضر فى يوم الجمعة لثلاث عشرة خلت من ذى الحجة القاضى عمر بن محمد ومعه أبو أيوب السمسار فنظرا إلى ابن ياقوت ميتا لا أثر فيه، وأنه مات حتف أنفه وصلى عليه أبو أيوب ودفن فى مقبرة لهم فى الشارع الأعظم فوق سوق السلاح . ومات أحمد بن محمد البستانبان المحدث وكان ينزل عند دار ابن الحوارى ،وولد سنة أربعين ومائتين وكان حافظا للحديث فى ذى الحجة

وفى ذى الحجة طولب أبو الحسين على بن محمد البريدى بمال فصودر على مائة ألف دينار عن جماعتهم نصفها معجل ونصفهـــا مؤجل .

وأرجف الناس بأنه يسعى للخصيبى بالوزارة فطاب وكبست مواضع بسببه وجرد كاتبه ابن رمـكة ليضرب من أجله فخاف أنه لا يعرف مكانه .

سنة اربع وعشرين وثلاثمائة

كان لبنى هاشم وثوب فى المحرم بإمام الجامع الغربى فخاتلهم حتى صلى

ركعتين خفيفتين قرأ فى الثانية الحمد وقل هو الله أحد وخطب بكلمات يسيرة. وصاروا من غد إلى الجامع الشرقى فوثبوا بالقاضى وماتركوه يخطب، فانصرف مفلتا من أيديهم، وأمر الوزير أن يفتتح الخراج فى هذا الشهر فضج الناس من ذلك. ومات فى هذا الشهر أبو منصور ابن جبر النصرانى، وما اصطفى بن يعقوب النصرانى صاحب بيت مال الخاصة من قبل مؤنس الخادم، وورد تابوت ابن دولة الحسن بن على ابن محمد بن الفرات الى بغداد من الشام، وذكرت عنه فى ولايات تولاها أمور قبيحة من الظلم. وغرق القاضى ابن كاس فأخرج وبقى أياما ومات. وشغب العامة لغلاء السعر فى مسجد الرصافة ودخل الجند فى طلبهم إلى الصحن فصعدوا الى السطوح وغتوا الفرسان بالحجارة حتى هربوا وحارب الجند العامة يوم السبت بباب الطاق فأخذ السلطان جماعة فضربهم بالسياط وأدارهم. وأشار الوزير بأن يسعر المكوك من الدقيق بثلاثة دراهم فما نفع ذلك. ونادى بأن يتعامل الناس بالغليظ من الدراهم والممسوح طلبا للرفق بهم. ووقع بين الحجرية والساجية فى صفر خلاف فمشى بينهم قوم فاصطلحوا.

وقلد فى هذا الشهر الحسن بن عبد الله من تكريت إلى آمد، وفورق على مال واستقام أمره، وأزيل عنه من بالموصل. ومات فى يوم الخميس للنصف من ربيع الأول هارون بن المقتدر بالله أبو عبد الله وكان كاملا فى عقله وأدبه وأظهر الراضى حزناً شديدا عليه، وقال لنا هذا على أنه كان يسعى على هذا الأمر ويكاتبه فيه جماعة منهم ابن ياقوت

وقال لى: كنت أعرف محلك منه أفرثيته بشىء؟ فقلت نعم وإنما انتظرت الاستئذان فى إنشاده فقال جئنى به فى غد وأنشدنيه مفرداً، ثم أمر بإدخالى إليه من غد وكنت بكرت قبل حضور أهل نوبتى فأدخلنى فأنشدته:

تَعَزَّ ياخَيْرَ الْوَرَى عَنْ أخٍ لَمْ يَشُبِ الْإِخْلَاصَ بِاللَّبْسِ
كَانَ صَدِيقاً وافراً وُدُّه صَدَاقَةَ الْأَنْفُسِ وَالْجِنْسِ
تَعَزَّ عَنْهُ بِنَبِيِّ الْهُدَى مُحَمَّدٍ أُدْخِلَ فِى الرَّمْسِ
وَهُوَ حَبِيبُ اللهِ فِى أرْضِه مؤيَّدًا بِالْوَحىِ وَالْقُدْسِ
سَمَّاكَ بِالرَّاضِى لِتَرْضَى بِمَا تُسْلِفُ مِنْ أمْرٍ وَمَا تُنْسِى
قَدْ أَنْذَرَ الدَّهْرُ تَصَارِيفُهُ بِأَلْسُنٍ نَاطِقَةٍ خُرْسِ
يُخْبِرُنَا عَنْ مَوْتِه كَوْنُهُ بِغَيْرِ إِذْكَارٍ وَلَا حَدْسِ
كَانَ نَسِيبًا لِإِمامِ الْهُدَى بِالْوُدِّ وَالْأُلْفَةِ وَالْأُنْسِ
ونِسْبَةُ الْجِسْمِ شَتَاتٌ إِذَا لَمْ تَتَآلَفْ نِسْبَةُ النَّفْسِ
وَكَانَ فَرْعًا ذَاكِيًا غُصْنُهُ مُهَذَّبًا مِنْ خَيْرِ ما غَرْسِ
وَكَانَ فِى السُّودَدِ ذَا هِمَّةٍ وَكَانَ فِى النِّعْمَةِ ذَا غَمْسِ
أَرْسَى عَلَيْهِ دَهْرُهُ مِثْلَ مَا أَرْسَى عَلَى سَاكِنَةِ الرَّسِّ

إِنْ صُرِفَ الدَّهْرُ إِلَى مَا مَضَى ... عَادَ سُرُورُ النَّاسِ ذَا عَكْسِ
حَوَادِثُ الأَيَّامِ شَقَّاقَةٌ ... تُقَرِّبُ المَأْتَمَ بِالعُرْسِ
يَعْتَقِبُ المَرْءُ بِهَا حَالُهُ ... بِوَطْئِهِ الحَزْنَ إِلَى الوَعْسِ
مَنْ عَزَّ بِالدُّنْيَا هَفَا قَلْبُهُ ... وَعَادَ مِنْهُ النُّورُ ذَا طَمْسِ
وَزَالَ فِي تَلْوِينِهَا عَقْلُهُ ... وَغَالَهُ طَيْفٌ مِنَ اللَّقْسِ
مَنِيَّةٌ إِنْ لَمْ تُفَاجِ الفَتَى ... كَانَتْ لَهُ بِالسُّقْمِ ذَاتَ مَسِّ
لَهْفِي عَلَيْهِ وَقَلِيلٌ لَهُ ... لَهْفِي وَهَلْ يَرْجِعُ لِي أَمْسِي
لَهْفِي عَلَى مُنْتَخَبٍ حِلْمُهُ ... أَرْجَحُ مِنْ رَضْوَى وَمِنْ قُدْسِ
وَأَيْنَ الأُولَى كَانُوا شُمُوسَ الوَرَى ... لُيُوثُ حَرْبٍ غَيْرُ مَا شُمْسِ
جَرَى عَلَى السُّودَدِ مِنْهُمْ كَمَا ... شُيِّدَ بُنْيَانٌ عَلَى أُسِّ
فَافْرِسْ لَهُ صَبْرًا يُزِيلُ الأَذَى ... فَالدَّهْرُ لِلإِنْسَانِ ذُو فَرْسِ
يَنْعَمُ مِنْهُ جِسْمُهُ تَارَةً ... ثُمَّ تَرَاهُ جَاسِيَ الجَسِّ
فَلَمْ تَزَلْ فَوْقَ المُلُوكِ الأُولَى ... مِنْ عَرَبٍ سَادُوا وَمِنْ فُرْسِ
مَنْ لَا يَرَى حُبَّكَ فَرْضًا فَمَا ... أَدَّى فُرُوضَ اللهِ فِي الخَمْسِ
فِدَاؤُكَ النَّاسُ جَمِيعًا عَلَى ... رَغْمِ عَدُوٍّ لَكَ شَكْسِ

فَالْخَلْقُ مِنْ وارد رفه إِلَى الْـــمَوْتِ وَذِى عَشْرٍ وذى خِمْسِ
أُولُهُم مُنْتَظِرٌ آخِـــرًا   فَهُوَ عليه الدَّهْرَ ذُو حَبْسِ
حَتَّى يَجيؤا وكِفَاتٌ لَهُمْ   وَلَا يُرَى لِلْقَوْمِ مِنْ حِسِّ
وَبَعْثُهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَا كُلِّهِ   لِخَابِلِ الْجِنَّةِ وَالإِنْسِ
تَخْشَعُ أَصْوَاتُهُمْ خِيفَةً   فَلَا تُنَاجِى بِسِوَى الْهَمْسِ
دَاعِى الْمَنَايَا خَاطِبٌ كُفْوَهُ   كَخِطْبَةِ الْمُعْتَـــامِ لِلْعِرْسِ
يَسْمُو إِلَى الأَنْفُسِ فِى قُدْرَةٍ   مُنَكِّبًا عَنْ سَاقِطٍ جِلْسِ
تَلْعَبُ بِالْمَرْءِ اللَّيَالِى كَمَا   قَدْ تَلْعَبُ الأَقْلَامُ بِالنِّقْسِ
تُرْضِعُ بِالأَنْعَامِ ذَا عِزَّةٍ   يُفْطَمُ بِالْبُؤْسِ وَبِالتَّعْسِ
تُتْبِعُ نُعْمَاهَا بِبَأْسَائِهَا   وَيَعْقُبُ الصِّحَّةُ بِالنُّكْسِ
فَالْحُرُّ فِيهَا أَبَدًا حَائِرٌ   مِنْ سَوْمِهَا الْغَالِى عَلَى مَكْسِ
يَتْعَبُ فِيهَا أَبَدًا جِسْمُهُ   وَإِنَّمَا الرَّاحَـــةُ كَالْخَلْسِ
يَخْدَعُ فِيهَا بِالْمُنَى نَفْسَهُ   وَوَافِدُ الْمَوْتِ بِهِ مُرْسِى
يَنْسَى الَّذِى يَأْتِى بِهِ صَرْفُهَا   وَالآمِلُ الْغَرَّارُ قَدْ يَنْسَى
تَلْبَسُهُ مِنْ طَمَعٍ غَفْلَةٌ   بِالْمَطْعَمِ الْمَلْذُوذِ وَاللُّبْسِ

فَأَسْلَمَ اللهُ إمَامَ الْهُدَى   فَمَا عَطَاءُ الدَّهْرِ بِالنَّحْسِ
كُلُّ الْوَرَى أَنْتَ وَكُلٌّ يرى   عَبْدَكَ مِنْ عَالٍ وَمِنْ نِكْسِ
بَقَاؤُكَ الْفَوْزُ لَنَا وَالْغِنَى   نُصْبِحُ فِيهِ مِثْلَ مَا نُمْسِى
شَوَى صُرُوفُ الدَّهْرِ مَالَمْ تُصِبْ   فِى الرَّطْبِ إِنْ عَاثَتْ وَفِى الْيَبْسِ
مَنْ تَاجَرَ الدَّهْرَ بِلَا صَرْفِهِ   فَصَارَ مِنْ رِبْحٍ إِلَى وَكْسِ
فَأَسْلَمَ الْكُلَّ فَلَا بَأْسَ أَنْ   يُرْزَأَ فِى السُّدْسِ وَفِى الْخُمْسِ
إِنْ غَيَّبَ الْبَدْرَ كُسُوفٌ فَقَدْ   لَاحَتْ بِسَعْدٍ غُرَّةُ الشَّمْسِ
مَا طَالِعُ الْأُمَّةِ يَا سَيِّدِى   إِذَا خَطَاكَ الْخَطْبُ بِالْبَخْسِ

فما فرغت من الإنشاد حتى بكا بكاء شديدا ، ثم قال لى أنت كنت حدثتنى أن المأمون قال لمحمد بن عباد المهلبى لما مات أخوه أبو عيسى ، وكان أحب الناس إليه : يا محمد حال القدر دون الوطر . قلت له قد كان ذاك ، فقال والله ما كان المأمون لأبى عيسى بأشد حبا منى لهارون ولا أصح نية فيما ورى عنه . ودفن هارون فى داره بقرب الجسر ، وحضره طول يومه الوزير والقواد ، وكل نزع سيفه ومنطقته إلى أن دفن بعد العصر وانصرفوا فقال بعد ذلك : لولا أنى لا أدرك ثارى لقتلت بختيشوع الطبيب ، سقى أخى هارون درهم سقمونيا حتى قتله ورمى بكل ما فى جوفه ؛ وإن كان المشئوم ما تعمد ذلك ، ولكنه أعمى القلب ،

قصير العلم بليد الفكر ، مرزوق فى أيامه ، محظوظ .

وأشاع الناس بأن ابن رايق يريد الصعود من واسط إلى بغداد ولحقه الناس من بغداد ، فظن الساجية والحجرية أن ذلك بمكاتبة الراضى . فتكلموا فى ذلك فكتب إليه لا تجىء ووجه بماكرد وينال وعبد الله بن على كاتب نسيم ؛ يناشدونه فى مقامه وقدموا من عنده يوم الخميس لست خلون من شهر ربيع الآخر .

ومات فى هذا الوقت على بن العباس النوبختى وقد قارب ثمانين سنة وكان حسن الأدب والشعر وكان ابنه الحسين يكتب لابن رايق ويدبره أمره . وقدم شيخ هاشمى من سر من رأى يقال له إبراهيم بن عبد الصمد بن موسى فحدث واجتمع إليه ، وذكروا أنه ولد سنة أربع وعشرين ومائتين . وكان عنده علو إسناد مفقود فى وقته ، الموطأ عن مالك عن أبى مصعب الزبيرى وروى عن أبى سعيد الأشج وعبد الجبار بن العلاء العطار . فتكلم الناس فى سماعه والتهبت له سوق ثم طفئت ورجع إلى سر من رأى .

واستحق الساجية والحجرية ، فطالب الوزير مياسير التجار بأموال يعجلونها ويكتب لهم بها سفاتج فاستتروا . وضرب ابن جبير الدقاق ، وأخذ منه مال وأمر من كان ينزل بسور المدينة أن ينتقل لتباع المنازل

ووجه الحسن بن عبد الله بمائة كر دقيقا ، يفرق بسر من رأى وبغداد على الأشراف والضعفى ، ففرح به الناس وحدرت زواريق كثيرة للتجار فصلح السعر . وبلغ الحجرية والساجية أن بدرا الخرشنى

والمؤنسية والرجالة قد عزموا على حربهم بأمر السلطان ، فتنكروا لهم فخرج بدر ومن معه إلى الصحراء يوم الثلاثاء ، لثلاث خلون من جمادى الأولى وقالوا كيف صار الساجية والحجرية يأخذون المال وقت استحقاقهم ونحن نؤخر بقسم المال بيننا ! وصار الحجرية والساجية إلى الحلبة وأقاموا بها واستظهر السلطان بعض الاستظهار ببعض اليلبقية [1] والهارونية وغلمان أم المقتدر . ثم إن الحجرية والساجية أخرجوهم عن الدار ، وصار الخرشنى إلى مسجد الجامع بالرصافة فضرب خيمة هناك وتبعه جعفر بن ورقاء ولؤلؤ وغيرهم

وكان الراضى قد اختص جعفرا وشاوره فحسن أثره فى رأيه وفضله . وقال الساجية والحجرية للراضى : قد أشاع الناس أنا محاصروك فاخرج فصل الجمعة بالناس ليزول ذلك . فخرج فصلى بالناس فى مسجد الدار ، وما علم به الناس. وقال للحجرية وللساجية أنتم خاصتى وثقاتى . وسفر جعفر بن ورقاء بين الناس فأصلح الأمر . ووعد الناس بأن الخليفة يصلى بهم فى الجمعة الثانية فما تخلف أحد ، وما كنت أنا علمت بصلاته أول جمعة فحضرت فى الثانية ووجدت إسحاق بن المعتمد حاضراً فدخلنا المقصورة وخرج الراضى فعلا المنبر ووقعت عينه علينا فخطب فأوجز ونزل وصلى بالناس فقرأ سورة الجمعة فى أول ركعة وفى الثانية سبح اسم ربك الأعلى أتم قراءة وأحسنها ودخل وانصرفنا . فابتدأت أعمل شعرا أصف فيه

---

١ لعلها البايقية نسبة إلى أتباع ابن بليق

خطبته ، فوافتنى رقعة بخطه وفيها : أبقاك الله يا محمد قد لحظك طرفى وأنا أخطب وأنت إلى جانب إسحاق قريب منى ، غير بعيد عنى فعرفنى على تحرى الصدق واتباع الحق كيف ما سمعت وهل تهجن الكلام بزيادة فيه أو اختل بنقص منه أووقع ذلك فى لفظه أو إحالة فى معناه جارياً فيه على عادتك فى حال الإمرة غير مقصر عنها للخلافة إن شاء الله فكتبت إليه جواب الرقعة بعد أن أتممت القصيدة

أمير المؤمنين أدام الله دولته وأطال فى الملك مدته أجل خطرا وقدرا ، وأسنى مجدا وفخرا . وأوسع خاطرا وفكرا من أن يبلغ خاطب خطابته أو يروم بليغ بلاغته أو يدرك فيها واصف صفته إلا بما تناله طاقته وتبلغه غايته

ولما وصل إلى عبده سؤاله عن حسن ما وعاه وسمعه وجليل ما حفظه ولقنه من كلامه فى خطبته وتصرفه فى حسنه عجز عن بلوغ كنهه لسانه ولم يؤده شرحه وبيانه ففزع فى وصف ذلك إلى قول من كان أقوم بوصف مثله وأشد استقلالا به وأحسن أداء له وهو حسان ابن ثابت فى وصف كلام جده عبد الله بن عباس نضر الله وجهه وصلى على روحه فانه قال فيه :

إِذَا قَالَ لَمْ يَتْرُكْ مَقَالاً لِقَائِلٍ ... بِمُنْتَظِمَاتٍ لاَ تَرَى بَيْنَهَا فَصْلاَ

كَفَى وَشَفَى مَا فِى النُّفُوسِ فَلَمْ يَدَعْ ... لِذِى إِرْبَةٍ فِى الْقَوْلِ جِدًّا وَلاَ هَزْلاَ

يَقُولُ مَقَالاً لاَ يَقُولُونَ مِثْلَهُ ... كَنَحْتِ الصَّفَا لَمْ يُبْقِ مِنْ غَايَةٍ فَضْلاَ

وقد عمل عبد أمير المؤمنين أبياتاً فى وصف ذلك جعل أمام مدحه تشبيباً لم يخله من تشبيه مبتدع ومعنى منتزع، إذ كان الأمر قد تقدم إليه أن يجعل ذلك فى صدور قصائده، وأوائل مدائحه وهو يأمل أن يقع من استحسان سيده بحسب تفضله عليه، واصطناعه أياه والأبيات:

أسرك يا مناى ولا أسوك   وأنفى بالهوى عرض الشكوك
وأحميك الذى تخشين منه   كما يحميك من عار أخوك
لقد بلغت فيك مدى المنايا   وما بلغت مدى عشر سنوك
ارى الهجران منك يحيل صبحى   وما أذنبت ليلاً ذا حلوك
ودهر الوصل يحكى لى ربيعاً   يشابه نبته خلى الهلوك
رياض تمرج الالحاظ فيها   منورة الأعالى والسموك
بهار قد حكى العشاق لوناً   على قضب حكتهم فى النهوك
وورد مثل خد منك راض   جوار فم تبسم عن مسوك
ويضحك أقحوان فيه يحكى   لنا ثغراً تكشف عنه فوك
تطلع بين ذاك وبين هذا   شقائق مثل أعراف الديوك
مداهن من عقيق نظمتها   يدا خرقاء واهية السلوك
حلفت بغرة الراضى فإنى   أراه حقيقة فوق الملوك

بأخّاذ لِمَا يُرْجَى أُلوف ... وعيّاف لما يُخشَى ترُوك
عَبُوس فى انتهاك المُلْك فظّ ... وطَلْق فى مذاهبه ضحُوك
نَهُوض بالخُطوب إذا اعترَتْه ... فَرَاهَا هبّة السّيف البَتُوك
عشيق المُلْك جاء بلا كتاب ... يُرجى الوَصْلُ منه ولا الأُلُوك
فَمَن للبُخل يُمسِكُ ما حواه ... فما هو بالبخيل ولا المَسُوك
أجلّ النّاس آراءً وعِلْماً ... مَقالٌ ليس يقرنُ بالأفوك
وما أحياه من سُنَن تعفّت ... فدار صلاحها دور الدَّموك
رَكُوبٌ للمنابر سار قَصْداً ... إليها وهى حائرة السُّلوك
فذكّرنا مقالٌ منه فصلٌ ... مقالَ المصطفى بحرى تبوك
فأطلع منه شمسُ المُلْكِ سعداً ... وكانت نحسةً بشفا الدُّلوك
لأعتمدَنّ سير المدح فيه ... بإرقال يبرُّ على الرّتوك
أحوكُ من القصائد وشى مدحٍ ... تفضّله على الوشى المحوك
لقد فَتَكَ الزّمانُ بسوء حالى ... فأنقذنى من الزمن الفتوك

فتأخر الجواب عنى يومين ، ثم وافت رقعة يقول فيها قد استحسنت
١٥ الشعر غاية الاستحسان ، ورأيتك تكلفت فيه ما لا يجب عليك من
زوم الواو فى أرداف القافية ورأيت المدح مليحاً قد وقع كله فى

القسم(١) ورأيت الأوصاف فى صدر الأبيات فى نهاية الحسن، تقدمت فيها كل من وصف ما وصفت، وخاصة بيت البهار لتشبيه شيئين فيه. وقد تأملت البيت الأخير وأنفذت إليك فى هذا الوقت ما تبنى به المنهدم من حالك، إلى أن تنجلى الهبوة التى نحن فيها إن شاء الله. ومع الرقعة صرة ديباج مختومة بخاتم راغب الخادم، فيها ثلاثمائة دينار.

وتنكر الساجية والحجرية للوزير، بعد أن صالحوا الخرشنى، ورجع الجميع إلى منازلهم. وانحدر الوزير إلى دار السلطان بأرزاقهم، فعرفهم أن لا مال عنده، فوثبوا به وقبضوا عليه، والسلطان يراهم. فوثب ودخل وأمر راغباً أن يتسلم الوزير ويكون فى يده، وأن لا تجرى جناية عليه. ونهب الناس داره ودار ابنه الملاصقة لداره، وطرحوا فيها النار، ونهب جماعة من كتابه.

وأحضر أبو على عبد الرحمن بن عيسى فى هـــذا اليوم، فولى الوزارة وهو يوم الإثنين لأربع عشرة ليلة بقيت من جمادى الأولى بعد أن عرض السلطان الوزارة على على بن عيسى واستعفاه فأعفاه.

وكان من العجائب المشهورة أن دار ابن مقلة أحرقت فى مثل اليوم الذى أمر فيه بإحراق دار سليمان بن الحسن بباب محول، وفى مثل ذلك الشهر بينهما حول كامل، وظهر فى عشية هذا اليوم سليمان ابن الحسن والخصيبى.

---

١ كذا فى الأصل ولعله النفس

واستوحش الخرشنى لما فعله الساجية والحجرية. وتحول فنزل دار الحسن بن هارون، وشغل عن العامة فعاثوا، ثم صار اليه جماعة من الحجرية فحلفوا له أنه واحد منهم فرضى ورجع إلى داره وكتب على حيطان ابن مقلة :

أَحْسَنْتَ ظَنَّكَ بِالْأَيَّامِ إِذْ حَسُنَتْ ۞ وَلَمْ تَخَفْ سُوءَ مَا يَأْتِى بِهِ الْقَدَرُ

وَسَالَمَتْكَ اللَّيَالِى فَاغْتَرَرْتَ بِهَا ۞ وَحِينَ تَصْفُو اللَّيَالِى يَحْدُثُ الْكَدَرُ

وتحته « صنع بدارك مثل ما صنعت بدار سليمان »

وحول ابن مقلة إلى دار الوزير أبى عبد الرحمن، فأحسن اليه وسلمه إلى هنكر وما كرد ليكون فى أيديهما، ويناظره سليمان فى الأموال بحضرتهما فى يوم الأحد لثمان ليال بقين من جمادى الأولى فى دار النوشرى بقرب الحبس.

واتصل بالسلطان أن أبا الفتح بن ياقوت قد حبب جماعة من الأولياء وحملهم على الفتك بالخليفة والبيعة لأخيه عبد الواحد، فقبض عليه بين يدى الخليفة، وثب به الخدم وحبسوه فى حجرة لأربع ليال بقين من جمادى الأولى. وصرف الخرشنى عن شرطة بغداد لليلتين بقيتا من جمادى الأولى، وولوا كاجو الجانب الغربى، وجعل الجانب الشرقى إلى أبى الفتح تتج الحجرى وأخيه أبى الفوارس سخرباس شركة بينهما.

وناظر سليمان ابن مقلة وانفرد له ابن الحارث فلقى ابن مقلة منه

عنتا وأعطى خطه بمال يقال إنه ألف ألف دينار ، عنه وعن جميع أسبابه ، أربعمائة ألف دينار منها معجلة. ثم لم يحمل شيئاً فحرك السلطان على بن عيسى واخاه الوزير فى ضمان ابن مقلة ، فوجها اليه بالخصيبى فقرر الأمر على نحو الأول ، على أن تقوم ضياعه وتؤخذ ، وينجم الباقى فى سنتين .

وعز الخبز والدقيق فلم يوجد أياما ببغداد ، ووقع فى الناس طاعون عظيم فتفانوا ببغداد وما سواها . وضرب الخصيبى ابن مقلة ضرباً مبرحا ، وأحاله على جماعة منهم ابن المغلس الفقيه فاعترف بخمسة آلاف دينار عنده لابنه أبى الحسين وأمر بحملها فحملها ، ومات فى تلك الليلة من سكتة عرضت له ، وكان فقيها على مذهب داود جدلا موسرا ، وذلك لأربع خلون من جمادى الآخرة .

وفى هذا الشهر رخصت الأسعار ، وبلغت الساجية والحجرية أن السلطان على الخروج إلى الموصل . فقالوا هذه حيلة علينا ، وقالوا لجعفر بن ورقاء هذا عملك ثم بطل ذلك .

وتوفى يوم السبت لأربع خلوق من رجب أبو محمد العلوى الرملى رحمه الله ، ولو قلت إنى ما رأيت أفضل منه فى دينه وزهده وكرمه ، لما خفت إثما . ودفن ببراثا وكان من لم يلحق الصلاة عليه يصلى على قبره أياما .

وطلب سعيد بن عمرو بن سنكلا ـ عند ابى الحسن على بن عيسى وعند أخيه أبى على ـ ما كان يجده عند غيرهما فعز ذلك عليه ولم يستحلا

أن يمدا أيديهما إلى أموال الناس . فحمل الراضى على عزلهما ، فقبض على عبد الرحمن يوم الإثنين لست خلون من رجب . وخلع على أبى جعفر محمد بن القاسم الكرخى وولى الوزارة ، وكانت مدة أيام عبد الرحمن خمسين يوما ، وسلم ابن مقلة إليه ليناظره ، ووجدت له خزانة فى دار ربطة فيها ذهب وفضة ومتاع يساوى نحو مائتى ألف دينار.

وقبض على أبى عبد الله بن عبدوس وصودر على مائتى ألف دينار ، فتكلم سعيد بن عمرو فى حطيطته والوزير يخالفه حتى شرق الأمر بينهما ، فكان ذلك سبب زوال الكرخى وأدى ثمانين ألف دينار وأطاق. وصودر على بن عيسى وأخوه ، وصرفا إلى منازلهما من دار الوزير . ومات أبو بكر بن مجاهد القارىء يوم الجمعة للنصف من شعبان ، ولم ير مثله ولا رأى هو مثل نفسه فى علمه ، وخلف مالا صالحا. وورد تابوت جحظة من واسط ، وكان شخص إلى ابن رايق . فيا بعد مابين الإثنين ! على أن جحظة كان أحذق الناس بصناعته ، وكان له شعر صالح ، وكان يروى أخباراً عمن رأى ، ومات أيضا قريض المغنى ، غلام محمد بن داود فى هذا الوقت .

وقبض على عبد الله بن يونس ، وعلى ابن شبيب وطولبا بأموال فلم يوجد عندهما ماظنه من يسعى بهما ، فأخذ من الساعى بابن يونس مال وكان كالشريك له . وصودرا على شىء يسير وأطلقا. وصودر ابن مقلة فى شهر رمضان على مائة ألف دينار فإذا أداها أطلق ، وضمن المال عنه ابن قرابة وحوله إلى داره . وتحقق ابن قرابة بأمر الوزير

الكرخي وغلب عليه ، وورد الخبر فى شهر رمضان بقتل ياقوت قتله غلمان اللوش البربرى فاضطرب الحجرية فوجه الراضى يحلف أن ذلك قدساءه ، وما كان له إذن . وضج الحنبلية فيه من أمر ابن شنبوذ ، فحمل إلى دار السلطان ونوظر ، والسلطان يسمع من وراء حجاب وتاب وحبس . واستتر الوزير الكرخي يوم الإثنين لثمان خلون من شوال وأحضر سليمان بن الحسن فخلع عليه للوزارة وانصرف إلى منزله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة خلت من شوال .

وفى هذا الشهر مات المعروف بزنجى الكاتب ، وكان مقدما فى الكتبة مذ أيام أحمد بن محمد بن الفرات وهو الذى اصطنعه . وكان كاجو وينال انحدرا إلى ابن رايق ، فوصلهما ورجعا ثم انحدر كاجو وما كرد وتكنجور وصافى قواد الساجية ، وانحدر معهم أبو جعفر بن شيرزاد والحسن بن هارون وأبو بكر بن الصيرفى انحدروا بخلع السلطان على ابن رايق ليكون أمير الأمراء ، فوافت الأخبار إلى بغداد يوم الجمعة لسبع خلون من ذى الحجة بأن ابن رايق قبض على قواد الساجية فحبسهم وحبس معهم الحسن بن هارون ، وتقطع أصحابهم وفروا وسلبوا ونهبوا .

وورد كتاب ابن رايق يعتد على السلطان بقتله أعداءه المارقة الطغاة قرىء على المنابر . ووافى بغداد لؤلؤ غلام المتهشم والياً الشرطة من قبل ابن رايق ، فتسلم البلد يوم الخميس لثمان بقين من ذى الحجة ، وبث خلفاءه فيه وعزل تتج وسخرباس ، ودخل ابن رايق بغداد يوم السبت

لست بقين من ذى الحجة ، وخلع عليه ونزل فى الحلبة فى دار السلطان وطالبه بالخروج إلى واسط ليتم تدبيره ويريحه من الحجرية . وورد خبر الطير من فاتك بأن صغار الساجية قصدوا داره لكبسها واستخراج قوادهم منها ، وأنه رمى إليهم برءوسهم واستبقى الحسن بن هارون وصافيا وكان ابن رايق أنفذ محمد بن يحيى بن شيرزاد وقت قبضه على الساجية إلى بنى البريدى فى أشياء بينه وبينهم .

سنة خمس وعشرين وثلاثمائة

خرج الراضى إلى واسط لليلتين خلتا من المحرم ، فوصل إلى واسط يوم الأربعاء لخمس خلون من المحرم ، وابتدأ ابن رايق فى عرض الحجرية فلم يصبروا على ذلك ، واجتمعوا فحاربوه لأيام بقين من المحرم ، وكانوا مستظهرين عليه حتى خرج بجكم كمينا عليهم ، فوضع السيف فيهم فولوا منهزمين وأسر من رؤسائهم جماعة فيهم خمارجور أسر وبه ثلاث عشرة ضربة وسلحجور ويمن القروانى وبه ضربة قد ذهبت بإحدى عينيه وفارس بن ينال ، وغرق خلق منهم وتقطعوا فى الصحارى وسلبهم أهل القرى وقتلوهم. وكتب إلى لؤلؤ بالقبض على من ببغداد منهم وإحراق منازلهم وغنم بجكم وأصحابه غنيمة عظيمة من دوابهم وسلاحهم وأموالهم ، وكان أبو الحسين على بن محمد البريدى قد وافى واسط فأوصله ابن رايق إلى الراضى حتى خاطبه ، وولاهم الأهواز والبصرة ، وخلع عليه ابن رايق الخلع التى كان الراضى خلعها عليه

حين ظفر بالحجرية وركب معه ، ورجع السلطان إلى بغداد فدخلها يوم الإثنين لثمان خلون من صفر وقدم ابن رايق معه فنزل دار مؤنس ونزل بجكم دار محمد بن خلف النيرمانى بشريعة سوق الدواب ، ونزل القرامطة فى البصلية وتفرق باقى أصحابه. وكان الحجرية ببغداد قد حاربوا لؤلؤا قبل قدوم الخليفة فحاربهم فى رحبة العامة من بعد العصر إلى المغرب فظفر بهم وتفرقوا وكان ابنا الصلحى قد نظرا فى الأمور لكتبتهما لابن رايق ، فلما قدم فسد أمرهما ودار أمر ابن رايق على الحسين بن على النوبختى ، وهو الذى دبر له جميع ما مضى وبلغه هذه الحال .

ومات الجريرى المحدث أبو أحمد لسبع خلون من المحرم . ومات القاضى ابن أبى الشوارب يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من المحرم . ومات بسر من رأى إبراهيم بن عبد الصمد الهاشمى المحدث الذى كان قدم بغداد وخلع على بجكم ليوم الإثنين لسبع خلون من شهر ربيع الآخر ، وولى إمارة بغداد وعقد له لواء لولاية المشرق إلى خراسان .

وخلع على لؤلؤ لإمارة الكوفة ، وخلع على عمر بن محمد لقضاء القضاة . وصلح أمر أبى على بن مقلة لأنه طرح نفسه على ابن روح النوبختى فكلم له الحسين بن على بن العباس كاتب ابن رايق فأصلح أمره ، وأوصله إلى الأمير فأمره بفتح بابه .

ومات ابن نزار فى النصف من شهر ربيع الأول ، وفيه تقلد الخصيبى أزمة جميع الدواوين وخلع على ينال وولى الجبل وجرد

جماعة من الحجرية مع هنكر للجبل واستحلفوا وأطلقت أرزاقهم فخرجوا إلى الدسكرة وهم نحو خمسمائة ، فأوقعوا بأكراد وأعراب فغنموا غنيمة عظيمة ثم مضوا إلى بنى البريدى فغلظ ذلك على السلطان وأمر بالنداء أنه إن وجد أحد من الحجرية بعد ثلاث قتل . ولحق من كان بقى من الساجية ببغداد بالموصل بأصحابهم فإن من كان منهم ببغداد فى وقت الحادثة على قوادهم لحق بالحسين بن عبد الله بالموصل وأحسن إليهم وأرزقهم وصرفهم ، فلحق بهم من كان ببغداد ، وكان من رؤسائهم بالموصل شفيع الخف .

ومات فى شهر ربيع الآخر أبو بكر بن أبى الأزهر ، وزعم أن مولده سنة ثلاث وثلاثين ومائتين ، وكذبه أصحاب الحديث لادعائه السماع من أبى كريب وسفيان بن وكيع وإسحاق بن الضيف ونظرائهم .

ووافى القرمطى الكوفة فى آخر شهر ربيع الآخر فخرج ابن رايق لثلاث خلون من جمادى الأولى إلى مضربه بالياسرية فى أحسن عدة وأكمل زى ومعه بجكم وأحمد بن نصر القشورى وجماعة من القواد ونفذ بجكم فى المقدمة الى القصر فوجدوا لؤلؤا ولحقهم ابن رايق ومعه بجكم إلى النعمانية، ثم رحلوا الى واسط ليزيلوا أمر ابن البريدى .

ومات ابن ميسر المحدث بواسط وكان سيدا . ومات أبو يوسف كاتب أم المقتدر يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة .

وأمر بلعن البريديين ببغداد ، وأشهد الراضى القضاة والعدول على نفسه أن قد رد أمر البريديين فى حربهم أو تركهم أو لعنهم أو مقاطعتهم الى ابن رايق وأنه يرضى كل شىء يعمله فى أمرهم وطلب أسبابهم ببغداد وكتب على أملاكهم صوافى.

وقلد لؤلؤ بغداد يوم السبت لست خلون من رجب وخلع عليه. وصار إليه من عمل الكوفة إلى بغداد ، ومن الأنبار إلى بغداد ، ومن النعمانيـة إلى بغداد .

ومات ابرهيم الجاثليق يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان وقبض أبو عبد الله الكوفى على ابن شيرزاد لتسع بقين من شعبان وظفر بفتنة جارية البريدى فعذبها ابن مقاتل، فقالت له وهو يعذبها « ياابن مقاتل من الرفش إلى العرش ! »

وصار ابن رايق إلى دجـــلة البصرة فواقعه أصحـاب البريدى فهزموهم وصارت البصرة لهم خاصة . وقطع أمر ابن شيرزاد على تسعين ألف دينار بخمسـة وعشرين ألف دينار منها ضياع ، وما بقى فبعضه معجل وبعضه مؤجل وأطلق إلى منزله لست بقين من رمضان وتألف لؤلؤ العيارين وأصحاب العصبية وأثبت بعض العيارين . ووصل أبو الفتح الفضل بن جعفر بن فرات إلى بغداد فى شوال . ووصل إلى الخليفة ، واستوزر يوم الخميس لسبع خلون منه .

وكان بجكم قد هزم البريديين وملك الأهواز فصاروا إلى البصرة والأبلة وأقاموا بها ومعهم قوادهم وأكثر رجالهم قبل هذا الوقت

وصار فاتك حاجب ابن رايق إلى دجلة البصرة ليأخذ البصرة فلقيه بالمفتح إقبال فهزمه ورده إلى الجامدة . ومات شيخ مسند يعرف بالزعفرانى ، نزل دار عمارة وانحدر الوزير والقاضى عمر بن محمد والكوفى فى ذى القعدة إلى واسط ،إلى ابن رايق .

ومات أبو مزاحم موسى بن عبيد الله بن يحيى فى ذى الحجة ،وكان عنده إسناد ليس بالرفيع . ورجع الوزير إلى بغداد ولم يلق ابن رايق لأنه خاف أن يطالبه بمال . ودخل الكوفى بغداد لاثنتى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ، خليفة لابن رايق فجمع مالا وخرج إليه لثلاث بقين من ذى الحجة .

سنة ست وعشرين وثلاثمائة

رجع القاضى عمر بن محمد إلى بغداد لليلتين خلتا من المحرم . ونزل الوزير داره التى على دجلة بين القصرين، ووجه إلى يأمرنى أن أحمل إليه كتاب الكتاب الذى ألفته فاستحسنه ، وكان جميع من يدخل إليه ممن يأنس به ويعلم أنه يفهم يقول له : لقد سرنى أنه بقى فى الزمان من يحسن أن يؤلف مثل هذا ! ووصانى بثلاثمائة دينار وأعطى الحشم رزقه وألحق اسمى بهم وأطلق رزقى وزاده فى جملة المال وكان ابن مقلة قد أخرجنى من جملتهم وأفردنى لما جالسه ابنا المنجم وشغلانى عنده فكاتبته بأشعار يغفر بها الكبائر من الذنوب فما عطف على ! منها أنى مدحته بقصيدة ما مدح بمثلها قط، فما استمع الشعر منى ، فأنفذته على

يد أبى بكر بن الخياط النحوى ، فلما قرأه قالا له قد هجاك فى القصيدة فقال ابن الخياط أين الهجاء من هذه القصيدة ؟ قالا قوله :

مَا عَلَى الأَرْضِ مَادِحٌ لَكُمُ قبْلِى وَحَقِّى مَا بَيْنَكُمْ مَهْضُومُ

وأنت فقد مدحك قبله عبيد الله بن عبد الله ، وابن بسام فكيف صار هو أول من مدحك !

فقال ابن الخياط انما عنى الرجل ما على الأرض ما بقى أحد مدحكم قبلى ، ولم يقل ما تحت الأرض ، وأعانه أبو عبد الله أخو الوزير وناظر فيه على حق وصواب ، وهو لا يسمع إلا قولهما قال فلم يكن لنا حيلة .

وأنا أذكر الشعر وإن كان طويلا لخصال : منها أنه حسن ، ومنها أنه مامدح بمثله ، ومنها تكذيب من زعم أنى هجوته فيها وهو :

أَنَا من بَيْنِ ذَا الْوَرَى مَظْلُومُ وَإِذَا مَا خَصَمْتُهُمْ مَخْصُومُ
تَتَخَطَّانِىَ الْحُظُوظُ فَآسَى وَمَكَانِى من عِلْمِهِمْ مَعْلُومُ
كَمْ تَرَى فى الزَّمَانِ مِثْلِى حَتَّى لَمْ يَرِمْنِى الْوَزِيرُ فِيمَن يَرُومُ
قَدْ تَعَدَّانِىَ اخْتِيَارُ كَرِيمٍ وَهُوَ طَبٌّ بِالاخْتِيَارِ عَلِيمُ
وَهُوَ أَعْلَى الْكُفَاةِ مَجْداً وَفَضْلاً إِنَّ ذَا مَا عَلِمْتُ حَظٌّ جَسِيمُ
لَيْسَ هَـٰذَا إِلَّا لِتَأْخِيرِ حَظٍّ حَقُّهُ حِينَ يُنْصِفُ التَّقْدِيمُ
لَسْتُ أَشْكُو أَبَا الْحُسَيْنِ وَحَاشَا هُ لَهُ دُونَ ذَلِكَ التَّعْظِيمُ

أَنَا لَوْ لُمْتُهُ ـ وَقَدْ خَصَّ غَيْرِي   بِدُنُوٍّ مِنَ الْوَزِيرِ ـ مُلِيمُ
أَتُرَانِي أَخْلَلْتُ بِالْعِلْمِ حَتَّى   شَدَّ مِنِّي التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ
لَوْ رَمَى بِي الزَّمَانُ عِزًّا تَلِيدًا   لَمْ يَرُضْنِي الذَّكَاءُ وَالتَّعْلِيمُ
كَيْفَ نُجْلِي عَلَيْهِ أَبْكَارَ لَفْظٍ   وَلَهُ فِي الْأَنَامِ مِثْلِي نَدِيمُ
أَتَظُنُّ النِّدَامَ تَرْضَى بِهٰذَا   لَا وَمُحْيِي الْعِظَامِ وَهِيَ رَمِيمُ
أَيْنَ مَنْ جَالَسَ الْخَلَائِفَ قَبْلِي   وَافِرٌ حِينَ تُسْتَخَفُّ الْحُلُومُ
طَائِرِي سَاكِنٌ وَفِكْرِي عَزُوفٌ   عَنْ فُضُولِ الْمُنَى وَلَحْظِي سَلِيمُ
وَكَلَامِي قَدْرُ الْكِفَايَةِ إِلَّا   شَرْحُ عِلْمٍ وَجَانِبِي مُسْتَقِيمُ
فَأَعِينُوا عَلَى الزَّمَانِ بِعَدْوَى   إِنَّ ذَنْبَ الزَّمَانِ عِنْدِي عَظِيمُ
لِي عِدَاتٌ طَيْرُ التَّقَاضِي عَلَيْهَا   طَلَبًا لِلنَّجَاحِ مِنْكُمْ تَحُومُ
وَالْوَزِيرُ الصَّغِيرُ فِيهَا زَعِيمٌ   بِالَّذِي أَرْتَجِي وَنِعْمَ الزَّعِيمُ
هِيَ دَيْنٌ عَلَيْهِ وَهُوَ مَلِيءٌ   مُنْصِفٌ مِنْ الْعِدَى وَدَهْرِي ظَلُومُ
لِعَلِيٍّ عَلَى الْأَنَامِ اعْتِلَاءٌ   حَادِثٌ مِنْ جَلَالِهِ وَقَدِيمُ
وَرِثَ الْمَجْدَ مِنْ غَطَارِفَ شُمٍّ   غُرَرٍ لَا يُعَدُّ فِيهِمْ بَهِيمُ
فَهُوَ يَنْحُو الْوَزِيرَ فِي كُلِّ فَضْلٍ   لَيْسَ يَنْحُو الْكَرِيمَ إِلَّا كَرِيمُ

أنفسٌ تعشق المكارمَ وَفقًا　　فرّقتها على ائتلاف جسوم
فعليّ محمّد بن عليّ　　طاب فرعاهما وطاب الأروم
ذاك بدرٌ لنا وهذا هلالٌ　　ذا هواء لنا وهذا نسيم
لم تلد مثله الملوك كلّا　　فهو ثار من العدو منيم
منطق يشغل اللحاظ بحسن　　فهو ثاو عليه ليس يريم
تسترد العيون حسنا اليه　　مثل ما يسترد دينا غريم
ونفاذ يقري الولي سرورا　　ويرد العدو وهو كظيم
لو تمناه والد ما عداه　　وإليه في أمره التحكيم
لم يمحض بمثله مقرب الدهـر　　ولا استام شبهه من يسوم
لو يحابي النجوم في طالع المجـد　　لقلنا حابته فيه النجوم
ليس يأتي بمثله الدهر فضلا　　هو عن ذاك غير شك عقيم
كل رهن في سؤدد أغلقوه　　فله السبق فيه والتسليم
انتم يا بني علي نجوم　　للورى في الضياء ليست تغيم
خيمت فيكم محاسن حظ　　لاح منها للناس در عظيم
قلم جامع بيانا وحسنا　　ما حوى فيه مثلكم إقليم

تَتَبَاهَى بِهِ القَرَاطِيسُ حُسْنًا　　مِثْلَ وَشْيٍ تَرُوقُ مِنْهُ الرُّقُومُ
وَكَلَامٌ كَأَنَّهُ زَهَرُ الرَّوْ　　ضِ بَدَتْ لِلنُّجُومِ مِنْهُ نُجُومُ
قَدْ أَحَاطَتْ بِهِ عُيُونُ المَعَانِى　　وَأَضَاءَتْ فِى جَانِبَيْهِ الظُّلُومُ
لَكُمُ إِنْ تَسْقِهِ الجُودَ جُودٌ　　وَاقِعٌ دُرَاهُ وَخِصْبٌ مُلِيمُ
وَسَحَابٌ مِنَ النَّوَالِ وِسَاعٌ　　ضَاقَ عَنْهُ سَحَابُهُ المَرْكُومُ
مَدْحُكُمْ وَاجِبٌ عَلَىَّ كَفَرْضٍ　　لَيْسَ فِيهِ لَغْوٌ وَلَا تَأْثِيمُ
لَيْسَ لِى فِى تَأَخُّرِى عَنْكُمُ ذَنْـ　　ـبٌ وَإِنِّى مِنْ أَجْلِهِ مَهْمُومُ
كُلَّمَا جِئْتُ حَالَ دُونِى حِجَابٌ　　وَتَعَالَتْ لَهُ عَلَىَّ الهُمُومُ
كَسَرَتْ دُونِىَ الحَوَاجِبُ غَمْزًا　　وَبَدَا لِلْعُيُونِ لَمْحٌ ذَمِيمُ
لَمَعَتْ لِى بِخُلَّبِ الوَمْضِ مِنْهَا　　بِنَوَاحِىَّ بِهِ لِحَاظٌ سَقِيمُ
فَكَأَنِّى لَدَيْهِمُ شَخْصُ بَوٍّ　　لَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ ظِئْرٌ رَءُومُ
طَبْعُهُمْ ظَاهِرُ القَسَاوَةِ فَظٌّ　　لَيْسَ فِيهِمْ مَعَ البَلَاءِ رَحِيمُ
لَيْسَ لِى فِى الوُصُولِ وَقْتُ اخْتِصَاصٍ
وَكَذَا فِى العُمُومِ مَالِى عُمُومُ
فَأَسِيمُ الكُرُوبَ فِى مَسْرَحِ القَلْـ　　ـبِ وَمَرْعَى الحِجَابِ مَرْعًى وَخِيمُ

مَالَهَا مَشْرَبٌ عَلَيْهِ مَعَ الظِّمْـ ... ءِ وِوِرْدِ الْإِخْمَاسِ إِلَّا الْحَمِيمُ
وَالَّذِي يُوجِبُ الْمَدِيحَ لِشِرْحِي ... جَمُّهُ الْفَاءُ وَالنَّبَاتُ الْجَمِيمُ
لَا تَكُرُّوا عَلَيَّ فِيهِمْ مَلَامًا ... فَعَذَابُ الْحِجَابِ عِنْدِي أَلِيمُ
وَكَذَا جَاءَ فِي التِّلَاوَةِ نَصًّا ... لَيْسَ بَعْدَ الْحِجَابِ إِلَّا الْجَحِيمُ
كُلُّهُمْ فِي أَوَانِ إِذْنٍ عَدُوٌّ ... وَصَدِيقٌ فِي غَيْرِ إِذْنٍ حَمِيمُ
وَنِيَامٌ عَنْهُمْ كَنَوْمَةِ أَهْلِ الْـ ... ـكَهْفِ لَوْلَا وَصِيدُهُمْ وَالرَّقِيمُ
لَمْ يَلِدْهُمْ جِوَارُ سَعْدٍ كَمَا قَا ... لَ جَرِيرٌ وَكُلُّهُمْ مَرْكُومُ
مَا أُعَلِّي عَلَيْهِمُ اللَّوْمَ لَكِنْ ... مُلْزِمِي فِيهِمُ الْمَلَامَ ذَمِيمُ
وَعَطَايَاكَ إِنَّهَا فَيْضُ بَحْرٍ ... إِنَّ شَيْطَانَ مَنْعِهِمْ لَرَجِيمُ
أَمِنَ الْحَقِّ أَنْ يَجِفَّ ثَرَى رَبْـ ... ـعِيَ مِنْكُمْ وَغَيْثُهُمْ مَسْجُومُ
لِيَ مِنْ غَيْثِهِ رَذَاذٌ وَطَلٌّ ... وَلِغَيْرِي الْأَجَشُّ مِنْهُ الْهَزِيمُ
نَامَ حَظِّي فَأَيْقِظُوهُ بِجُودٍ ... إِنَّهُ بَعْدَ بَدْئِكُمْ تَتْمِيمُ
قَدْ تَشَكَّيْتُ مَا أُلَاقِي إِلَيْكُمْ ... مِثْلَ مَا يَشْتَكِي الْوَصِيَّ يَتِيمُ
كُلُّ مَنْ أَخْطَأَتْهُ رَحْمَةُ عَطْفٍ ... مِنْ نَدَاكُمْ وَأُنْسِكُمْ مَزْحُومُ
فِي زَمَانٍ طَرَزْتُمُوهُ بِجُودٍ ... وَهُوَ لَوْلَا كُمُ زَمَانٌ لَئِيمُ

لِي بِكُمْ حُرْمَةُ ثَلَاثِينَ عَامًا   غَيْرَ أَنِّي مُبَاعَدٌ مَرْجُومُ
لَيْسَ لِي مِنْكُمُ اخْتِصَاصٌ بِأُنْسٍ   بَلْ أَرَى ظَاعِنًا وَغَيْرِي مُقِيمُ
مَا عَلَى الْأَرْضِ مَادِحٌ لَكُمُ قَبْـ   ـلِي وَحَقِّي مَا بَيْنَكُمْ مَهْضُومُ
حِينَ سَيْفُ الْمَدِيحِ مُدْرَعُ الْغِمْـ   ـدِ لَدَيْكُمْ مَا سَلَّهُ التَّصْمِيمُ
لِي مِنْهُ وَخْدُ الْمَسِيرِ وَنَصٌّ   وَلِغَيْرِي خِنَافُهُ وَالرَّسِيمُ
وَعُيُونُ الْآمَالِ تُطْرِفُ عَنْكُمْ   مَا لَهَا نَحْوَكُمْ لِحَاظٌ تَدُومُ
مَدْحِيَ سَبْقٌ وَإِذْنِي سُكَيْتٌ   مَا قَضَى مِثْلَ ذَا الْقَضَاءِ سَذُومُ
مَدْحٌ مَلَكَتْ رِقَابَ الْمَعَانِي   عَطِلَتْ مِنْ حَلْيِهِنَّ الرُّسُومُ
شَغَلَتْهَا عُلَاكُمُ مِنْ مَغَانٍ   سَئِمَتْ مَرَّهَا عَلَيْهَا السَّمُومُ
فَهُوَ زَيْنٌ لِمُرْتَجِيكُمْ وَعِزٌّ   وَنُجُومٌ عَلَى عِدَاكُمْ رُجُومُ
وَلآلٍ لَكُمْ يُضِيءُ سَنَاهَا   وَنُحُوسٌ لِشَانِئِيكُمْ حُسُومُ
حَرَّمَ اللهُ أَنْ يَكُونَ جَنَابِي   مُجْدِبًا مِنْ نَدَاكُمُ وَالْحَرِيمُ
ضَامَنِي الدَّهْرُ بِاجْتِنَابِكُمُ قَرْ   نِي وَمَنْ ضَامَهُ الزَّمَانُ مُضِيمُ
أَنْصِفُونِي فِي نَظْمِ مَا قُلْتُ فِيكُمْ   هَلْ يُدَانِيهِ لُؤْلُؤٌ مَنْظُومُ
هُوَ لَفْظٌ تَحَكَّمَ الطَّبْعُ فِيهِ   مِثْلُهُ لَا عَدِمْتُكُمْ مَعْدُومُ

وَتَخَطَّى عِرَاصَكُمْ بُؤْسُ دَهْرٍ ... وَثَوَتْهَا مَسَرَّةٌ وَنَعِيمُ
كُلُّكُمْ فِى مُعَجَّلِ الدَّهْرِ وَالآ ... جِلِ جَمُّ الْعُلَى مُعَافًى سَلِيمُ

وبلغ الراضى أمر القصيدة، فقال اكتبها لى حتى أنظر فيها، فلما قرأها قال لى: أنت والله معهم فى هذا كما قال البحترى:

إِذَا مَحَاسِنِىَ اللَّائِى أُدِلُّ بِهَا ... كَانَتْ ذُنُوبِى فَقُلْ لِى كَيْفَ أَعْتَذِرُ
عَلَىَّ نَحْتُ الْقَوَافِى مِنْ مَعَادِنِهَا ... وَمَا عَلَىَّ لَهُمْ أَنْ تَفْهَمَ الْبَقَرُ

فما نفعنى ذلك شيئاً بل ضرنى. وإلى وقتى هـــذا أنا فى خمار كأسهما التى أعدداها لى، فما يقبل على من وليا به عنى وأحمد الله.

وفى المحرم أمر رجل يعرف بالحواجبى، على خال ابن سنكلا نصرانى يعرف بأبى عمرو بن شريح بمعروف فشكا ابن سنكلا بعبدالله إلى الراضى فأمر بالقبض على الحواجبى، وأمر بإحضاره الدار، وأن يضرب بالسياط. فما زال إسحاق بن المعتمد ومازلت معه نكلمه فيه ونعلمه أن قتل هذا عظيم وسمع ضجة، فقال لذكى الحاجب: ماهذا؟ قال أهل باب الطاق فى أمر الحواجبى. فقال لئن زادوا لأخرجنه اليهم مصلوبا هـــذا لم يرض أن وثب على كاتبى حتى تخطى إلى ذكرى فوجهنا وصرفناهم، ولم نزل حتى أمر بحبسه، وأفلت من غير ذلك وبلغ هذا البربهارى فعاتبنى فيه وخاصمنى، وجاءنى أصحاب الحواجبى يشكرونى فقلت اعفونى من هذا فإنى فى بلاء عظيم، وتكلم فيه كل جليل فما نفع. وشاورنى أصحابه فعرفتهم أن الراضى لا يفعل

إلا ما يريده ابن سنكلا ، وأشرت بأن يقصدوه فى أمره فكلموه فيه غدوة يوم فأطلق فى عشيته . وخرج الراضى ومعه الوزير متنزها وخرجنا معه فسار من الجانب الشرقى حتى حارتى بزُوغَى ثم عبرالبها فأقام يومين ورجع . وورد لعشر خلون من المحرم رجل يعرف بالخلنجى كان يحمل الخريطة إلى مكة ويسبق بالأخبار فأخبر بسلامة الناس وتمام الحج

ومات يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من المحرم موسى من ولد الرضا ، وكان من أسن ولد الحسين عليه السلام فى وقته ، ونودى فى الطريق بحضور جنازته . وكان من الزهد والطهارة على طريقة سلفه رضى الله عنهم وعنه .

وكثر الضجيج من تعنت أصحاب لؤلؤ للناس ووضع الجبايات . عليهم وإغرامهم ، فعزل عن شرطة بغداد ، ووليها محمد بن بدر الشرابى يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة بقيت من صفر .

ومات شيخ بالكوفة محدث مسند ، يعرف بسودانى كان عنده عن أبى كريب وعباد بن يعقوب ، ووافى رسول ملك الروم بهدايا كثيرة منها صياغات وثياب ديباج ومقارم وآنية ذهب ، طريفة الصياغة ، فجلس الراضى يوما فعرضها علينا ، ووهب لنا أكثرها ، وما كان شىء ألذ عنده من شىء يهبه وطعام يؤكل بين يديه ما بخل بشىء قط ، وما سمع بأكمل جود منه

وورد الخبر بوقعة كانت لابن رايق إلى دجلة البصرة ، ودخل

نهر معقل فوافى البصرة، فعجل بعض أصحابه، فطرح حريقا فى جزيرة حيال البصرة، وكان يبلغ أهل البصرة أنه يريد قتلهم وإحراق بلدهم وخاطب بذلك بعض رؤساء البصرة ممن قصده، فلما رأى ذلك أهل البصرة أعانوا البريديين فهزم ابن رايق وأفلت هو وبجكم من أن يؤخذ ورجع إلى دجلة البصرة فعسكر بموضع يعرف بعسكر أبى جعفر حيال نهر معقل، فلما طال الأمر عليه رحل صاعدا إلى واسط.

وركب الراضى فى شهر ربيع الأول إلى أجمة بالثريا يطلب فيها خنازير، وركبنا معهم فرأينا فى الموكب فرسانا لا نعرفهم فطاف ساعة، ثم عدنا معه فتغدى وكان النهار قصيراً وصلينا الظهر وركب، فرأينا الفرسان قد زادوا وأنكرهم الحاجب ووافى محمد بن بدر الشرابى فى مائة فارس، فلما رآه الفرسان تفرقوا فلم نر منهم أحدا فصاد خنزيرا وانصرفنا فقال لنا بعد من أى شىء أفلتنا يوم الخنازير؟ وإنا لبين يديه فى الحجرة التى كان يجلس فيها، ونحن أربعة وكذا كانت نوبتنا إذ أدخل رجل مشدود العينين بذراعيه وخف، فلما أقيم بين يديه قال مالنا نحن قرامطة فقال له الراضى يا ابن الفاعلة: لو كنت محتاجا لعذرتك، ولكن من من رشحك لهذا قد أغناك وجعل اليك نقابة، ومولك فك الكلب النابح، فضربوا فكه وهو يقول: بتربة المقتدر ارحمنى وإذا هو أبو عبد الله بن المنتصر والمنتصر جده. ثم قال له الراضى: والله ماطلبت

هذا الأمر فأما إذ دفعت اليه فوالله لاطالبه أحد فى أيامى ساعيا على فعاش . ثم أمر به فنحى وأدخل بيتاً حيال بركة السباع فعرفنا من الغد أنه قتل فى ليلته ، وأخذ جماعة بسببه فحبسوا منهم المعروف بالزهرى وابن أبى الحناء وإبراهيم وغيرهم .

ثم حدثنا الراضى بعد ذلك قال كان الفرسان الذين رأيتموهم بالثريا قد عزموا على الفتك بنا فلما جاء ابن بدر يئسوا فمضوا فقال واحد منهم لبعض من كان ندبه لهذا : لقد مددت يدى إلى سيفى مرات لأضربه به يعنينى فقال فهلا فعلت لعنك الله وأراد قائل هذا أن يكون وزيراً لابن المنتصر ، وهو يريضه لهذا منذ مدة وقد أغناه . ثم قرأ علينا رقعة جاءته من أبى على بن مقلة : العجب من اتهام الناس إياى بسبب هذا الأمر ، وتعجب الراضى من جهل من اتهمه بهذا الأمر وأقرأنا جوابه اليه يصدقه فى قوله ، وبأنه ما سمع ما ذكره ولا وقف عليه إلا من رقعته ويُسَكِّنُه منه .

وأمر بطلب أولئك الفرسان نظفر ببعضهم فآمنهم ووصاهم وفرق بينهم ، وسمع كلام كل واحد منهم مفردا ، فحدثنا أنهم عرفوه كيف جرى الأمر من أوله إلى آخره حتى وقف على صحته ، وجعل الراضى يورى عن ذكر الفاعل لهذا إذا حضرت جماعتنا ، ويصرح به إذا حضر من يثق به منا واتصل هذا الخبر بابن رايق فقدم فى آخر شهر ربيع الأول ، وتلقاه ابنا الراضى ، وأظهر أنه قلق لما جرى وخاف أن يسعى فى مثله لبعده عن مولاه ، وإنما جاء لضيق المال

واستحقاق الجند وأن بجكم اقبل الى واسط فلم يحب الاجتماع معه، ولم يزل يطالب الوزير بالمال وهو يجمعه له. وأخذت فى هذا الوقت من الراضى آنية ذهب وفضة فضربت. وأنفذ ابن رايق الى بجكم من المال ماقدر عليه وزوج لوزير الفضل بن جعفر ابنه بابنة ابن رايق. وزوج أبا بكر بن طغج بابنة له أخرى وكان الوليمة فى ذلك الوقت وخطب القاضى عمر بن محمد بحضرة الخليفة للجميع خطبة واحدة وكان مهر ابى بكر بن طغج ثلاثين ألف دينار ومهر ابن رايق نصفها وعزم الوزير على الخروج إلى الشام واستخلاف أبى بكر عبد الله بن على النفّرى على العرض وإمضاء الأمور بالحضرة، فخرج لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر وهجم بعقب خروجه على أبى عبد الله بن عبدوس وطولب بمال عظيم. ثم تقرر أمره على خمسة عشر ألف دينار أخذت منه بألوف منها جارية مغنية كانت له وترك له من أجلها الباقى. وقبل هذا بمديدة مااشترى ابن رايق من ابنة عبدالله ابن حمدون جارية زوجة محمد بن عبد الله ابن حمدون جارية مغنية يقال لها شرين بأربعة عشر ألف دينار، فاستعظم الناس ذلك، وتسلمت الجارية، وحمل المال من عند أبى الحسن البريدى، وحملت هى إلى واسط. وطولب محمد بن يحى بن شيرزاد بمال فحمل اثنى عشر ألف دينار. وقبض على أبى إسحاق القراريطى واتهم بأنه تضمن أبا عبدالله الكوفى وابنى مقاتل بمال عظيم، فسلم إلى أحمد بن على الكوفى فجرى عليه من المكروه مالم يجر مثله على أحد، حتى ظن الناس أنه تلف.

وغضب الراضى على جليسه محمد بن عبد الله بن حمدون أبى جعفر واتهمه بكلام بعض خدمه، وما كان لذلك أصل كما ظنه. وأمر ألا يوصل إليه فاختلت نوبتنا وكنا أربعة به فبقى إسحاق بن المعتمد والعروضى وأنا. ثم حدثنا بأنه فعل به ذلك لاتهامه إياه بتعريف ابن رايق ما يجرى فى مجلسه بسبب الجارية المشتراة منهم، وأنها سبب الوصلة بينهم، وكان يبلغه أن ابن حمدون يعاشر ابن رايق إذا خرجت نوبته.

وكان انحراف الراضى عن ابن رايق فى هذا الوقت يتبين فى طرفه وقوالب لفظه، ثم صرح بذلك لى وللعروضى من بين الناس، فكنا نعتذر لابن حمدون من أمر الخادم الذى كان هو أعلم ببطلانه ثم نحلف له أنه مثلنا فى جميع أموره مأمون السر والعلانية، إلى أن وثق بذلك، وتقرر عنده. وكان ابن رايق قد كلم الراضى فى الرضا عنه فلم يجبه، وكتب ابن حمدون إلى الراضى بأبيات يعتذر فيها وهى :

أَطَارَ الْكَرَى عَنْ مُقْلَتَيَّ التَّعَتُّبُ … وَجَمْجَمْتُ مَا أَلْقَاهُ وَالْحُزْنُ يَعْزُبُ
وَحُمِّلْتُ مَا بَيْنَ الْجَوَانِحِ وَالْحَشَا … جَوًى غَيْرَ مَا يُدْعَى لَهُ الْمُتَطَبِّبُ
وَيُوشِكُ أَنْ يَدْعُو بِيَوْمِ مَنِيَّتِي … سَرِيعًا إِلَى الْأَعْدَاءِ نَاعٍ مُطَرِّبُ
وَقَدْ عَلِمَ اللهُ — الَّذِي دُونَ عِلْمِهِ … عُلُومُ الْعِبَادِ فَهْوَ أَعْلَى وَأَغْلَبُ —

بَرَانِى بِمَا ظُنَّ إنِّى اقْتَرَفْتُهُ   وَهَلْ يَغْمُرُ الإحْسَانُ حُرًّا فَيُذْنِبُ
فَقُلْتُ كَمَا قَالَ المُقَدَّمُ قَوْلَهُ   لِنَنْقِمَ وَالأَمْثَالُ تَجْرِى وَتُضْرَبُ
« أَتَانِى أَبَيْتَ اللَّعْنَ أَنَّكَ لُمْتَنِى   وَتِلْكَ الَّتِى أَهْتَمُّ مِنْهَا وَأَنْصَبُ
فَإِنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ   وَإِنْ تَكُ ذَا عَتْبٍ فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ »

وقررت أنا والعروضى فى نفس الراضى عند وصول هذه الأبيات أن ابن رايق ليس بالصافى النية لابن حمدون ، وعرفناه سبب ذلك فرضى وقال : « قولوا له يسأل ابن رايق أن يكلمنى فى أمره أو يكاتبنى فإنه يقبح أن أرضى عنه بغير مسئلته بعد أن كلمنى فى ذلك فأبيت عليه » فكاتبه ابن رايق فأجابه وعاد إلى أمره .

وظن الراضى أن ابن رايق قد اتهمه بتغيره له فدعاه إلى الزبيدية فأكل بين يديه مع ابنيه على مائدة كانت عن يمنة الراضى ، وأكلنا نحن على مائدة أخرى ، عن يساره وجعل يبره بالشىء يرفع من بين يديه . ثم جالسه على النبيذ ومد له بشارته حتى سمع وشرب . وخلع عليه وقت الظهر خلعة وشىء مثقلة بالذهب ومعممة كذلك ، فجلس فيها ساعة . ثم خلع عليه عند العصر وقت انصرافه خلعة أخرى ، انصرف فيها بعد أن شرب نبيذا كثيرا .

واستكتب بجكم بواسط على بن خلف فى جمادى الأولى .

وزاد أمر البربهارى وأصحابه ، فكتب اليه ابن رايق رقعة يحذره فيها وينذره فأظهر القبول وتضمن ترك المعاودة .

ورد رسول ملك الروم مع الوزير وقت خروجه بهدايا، وأجيب إلى الفداء. وأمر الوزير أن يتم أمره من مال الشام، وحضر الناس الفداء وأخرج الراضى خادمه راغبا لحضور ذلك.

وتحرك بعض عيارى المخرم فى أمر السعر، وكلم بقال فى سوق الثلاثاء بعض أصحاب ابن رايق فى شئ تجاذبا له فغضب ابن رايق من ذلك وأمر أصحابه فأحرقوا حوانيت كثيرة فى سوق الثلاثاء إلى ناحية المخرم، وفعل فعلا استقبحه الناس وكرهه الراضى وحقده عليه، وكان هذا فى شعبان. وصودر شفيع المقتدرى على أربعة آلاف دينار مصادرة ثانية.

وتوفى أبو القاسم الحسن بن روح النوبختى يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من شعبان. وكان الراضى ربما ذكره بأن الإمامية يحملون إليه الأموال، فنرد عنه ونكذب، فيقول لنا: وما فى هذا؟ والله لوددت أن مثله ألفا تحمل الإمامية أموالها إليه فيفقرهم الله ولا أكره غنى هؤلاء من أموالهم.

ومات رجل يعرف بالطبرى بدار كعب وخلف مالا عظيما، وكان له أخ بطبرستان وابن أخ ببغداد فوجه ابن رايق فحمل من داره وحوانيته مالا ومتاعا كثيرا. فتكلم الناس فى ذلك، ودخل العروضى وهو يلى المواريث ولاه الراضى إياها. وكان مرضيا ثقة فيها فعرفه أمر الرجل فأنكر الراضى ما فعله ابن رايق وأنفذ إليه بما أقلقه فأمره برد جميع ما أخذ إلى موضعه. وظفر بالدلا فحبس فى دار ابن رايق ثم

أفلت وظفر به بعد مدة وقتل .

وتحدث الناس فى شوال بأن رقعة ابن مقلة جاءت إلى الراضى يتضمن فيها ابن رايق وابنى مقاتل بألفى ألف دينار ، وأنه يقبض عليهم بحيلة قريبة إذا امر بغير كلفة ، فوجه إليه الراضى : مثل هذا الأمر العظيم ، والوقوف على ما يدبر فيه لا يجىء بالرقاع فصر إلى حتى تعرفنى الوجه فيه ، ويتفق الرأى على ما يعمل به .

فصار إلى ذكى الحاجب ليلا سرا فأعلم الراضى بأمره ، فأمر الراضى بحبسه ، وفى نفسه عليه أمر ابن المنتصر ، وأنه الذى ريضه للخلافة .

وكتب الخصيبى من وقته رقعة إلى ابن رايق يعلمه أن ابن مقلة عند الراضى ، وأنه قد تضمن به وبابن مقاتل وأنه يستوزره ، فركب ابن رايق مع قواده وجيشه إلى الدار ، وقال : لا أبرح إلا بتسليم ابن مقلة إلى . فأخرج فقطعت يده اليمنى ، وانصرف ورد إلى محبسه بعد أن ناشده الله ألا يفعل ذلك ، وأن ينفيه إلى حيث رأى فأبى إلا الفعل القبيح ، الذى لم يأت أحد مثله .

ونودى فى جانبى بغداد بأن السلطان قد رضى عن بنى البريدى وأسبابهم وأطلق ابن رايق لبناء دورهم .

وبلغ ابن رايق أن بجكم يصعد إلى بغداد لطلب أرزاق أصحابه وكان قدم قبله الترجمان فى المطالبة بالمال ، فلم يرجع بما أحب فخرج مصاعدا . فخرق ابن رايق نهر ديالى ، وفعل أفعالا كانت

سبباً لبثق النهروان الذى خربت به الدنيا ، وافتقر الناس وغلت الأسعار إلى وقتنا هذا ، وصار إلى الدار فضرب خيمة فى الحلبة وأسكنها قواده . ووافى بجكم نهر دَيَالَى(١) يوم الأحد لإحدى عشرة ليلة خلت من ذى القعدة . وحاربه ابن رايق فاحتال بجكم إلى أن عبَّر بعض أصحابه ، وانهزم ابن رايق وأصحابه وجاء إلى السلطان ليدخل اليه فغلقت الأبواب دونه . فصار إلى داره فحمل ما قدر عليه وخرج ومعه بدر الخرشنى ، وصاح الناس : هـــذا عقاب من الله لك ، لاستكتابك الكوفى وتسليطك إياه على الناس . وكان قد استكتبه ، وعزل به الحسين بن على بن العباس النوبختى بعد [أن] بلغه المنزلة التى بلغها برأيه وتدبيره وهو الذى احتال على الساجية ودبر أمر الحجرية فصار ابن رايق إلى أوانا ثم خفى أثره . وكاتب السلطان بدرا الخرشنى فرجع . واستتر الكوفى وابنا مقاتل ببغداد.

ووصل بجكم إلى الراضى يوم الثلاثاء وخلع عليه يوم الخميس سبع خلع وقال له : قد جعلتك أميرا وعقد له لواء له فقال : يامولاى ما أريد إلا أن تزاح علتى فى أرزاق أصحابى وقت استحقاقهم ، ونزل فى دار مؤنس . وأخذ لابن رايق ابن صغير فجربه إلى بجكم فبكى حين رآه وأجرى عليه جراية واسعة ، ونودى إن من دل على الكوفى وابنى مقاتل فله عشرة آلاف درهم ، ومن وجد واحد منهم عنده فقد حل دمه وماله . وعقد لبجكم على المشرق وأشير على الراضى أن

---

(١) رسم فى الأصل فى المرة الأولى ريالى وفى هذه سالى متصلة

يضم إلى حاجبه جيشاً من جيش الحضرة وقوادهم ، وأن يفرد مالهم عن مال أصحاب بجكم وأن يوجهوا بكتاب الجيش ليحصوا أصحاب بجكم ، ويحصاوا مبلغ مالهم ويعرفوا الراضى حتى يثبته عنده ولا يزيد أحد فيه شيئا إلا بأذن منه فما قبل الراضى ذلك إلا فى أمر حاجبه ولافى جيش بجكم ، فما مضى لبجكم شهران(١) حتى زاد أصحابه وزاد فيهم من أثبت بعشرين ألف دينار فى السنة وأكثر ، وجرى امره على ذاك إلى أن قتل. وكان هـــذا مما عتب على الراضى إغفاله وظفر بالكوفى فحمل إلى الدار ، حمله غلام لذكى الحاجب يقال له خير ، فرجمته العامة وأرادوا قتله فدفع خير عنه ، وقال: تذهبون بمال السلطان فوصل به إلى الدار بعد تعب شديد، وصودر على مال وشملته عناية ابن سنكلا . وما رأيت أحداً قط ملك من حسن رأى صاحبه ماملكه ابن سنكلا من الراضى . وقد علم الله عز وجل أنى ما قصرت فى تقريظ الكوفى عند الراضى وتعريفه كفايته وأمانته ، وأنه بخلاف ما عليه العمال من التصون والاجتزاء بالقليل ، مما رأيته فى ولايته ، بعد أن كان محسنا إلى معنياً بى ، عرف لى ذلك على طول الجوار وقديم المودة . وأخذ بجكم من مضحك كان لابن رايق يعرف بأبى الخير خمسة عشر ألف دينار . ووصل أصحاب البريديين إلى واسط ، وقرب القرامطة منهم على وفاق وأمر عقدوه بينهم ، ومات أبو طالب الكاتب وكان محدثا يروى عن أبى موسى الراضى ، وأحمد بن يحيى

---

(١) فى الاصل فما مضى لبجكم شهرين .

السوسى ، وتوفى يوم الجمعة للنصف من ذى الحجة ومولده سنة سبع وثلاثين ومائتين . ووجدت أم ابن رايق فصودرت على عشرة آلاف دينار .

وكان ابن القشورى احمد بواسط حين زال عنها إقبال فورد كتابه يزعم أن البريديين يريدون واسط فوجه اليه بأبى نصر الترجمان فى جماعة . ووجد يهودى مع مسلمة وكان غلاما لجهبذ يهودى لابن خلف فضربه صاحب الشرطة بحضرة اليهودى فى يوم جمعة ، فافتتن البلد لذلك وكان الأمر قبيحا

سنة سبع وعشرين وثلاثمائة

خرج الراضى بالله فى سحر يوم الثلاثاء لثلاث خلون من المحرم يريد سر من رأى ليشخص منها إلى الموصل لمحاربة الحسن بن عبدالله وخرج بجكم فى هذا اليوم وخرجنا مع الراضى فكان بجكم ينزل بين يديه بقليل وتعبث أهل عسكره بالناس وتأذى الراضى بذلك ، وكان قبل خروجه يذكر أمره ونهوضه ويقول : لا بد لى منه . فنشير عليه ألا يفعل ذاك ، وكان ممن يوافقنى على الرأى فى تركه الخروج عمر بن محمد القاضى فلم يلتفت إلى قول أحد ولا أظهر ما أراده وما عزم عليه . وأمر الراضى أن يكون عبد الله بن على البغوى خليفة الوزير الفضل بن جعفر خارجا معه وأن يكون عبيد الله بن محمد الكلوذانى خليفة الوزير على الأعمال والأموال مقيما ببغداد .

وأخرج أحمد بن على الكوفى إلى تربة أم المقتدر ليؤدى ما فورق

عليه . وكرهت العامة خروج السلطان إلى الموصل لمحبتهم للحسن بن عبد الله وعنايته بانفاذ الدقيق إليهم ولبره بالأشراف وما يتصدق على الضعفى بسر من رأى وبغداد ، ولكفاية أخيه على الناس أمر الثغور والغزو ، وعنايته بغزو الصايفة وغيرها .

وخرج القاضى عمر بن محمد مع الراضى واستخلف ابنه يوسف ابن عمر على بغداد مكانه . فركب إلى جامع الشرقى فقضى وقرأ السجلات وركب معه جميع العدول وحضر محمد بن بدر الشرابى صاحب الشرطة مجلسه ونثر عليه دراهم ودنانير فى غير موضع ، فوصل الراضى إلى سر من رأى وأنفق فى أصحاب بجكم نفائس منيفة كان أعدها لنفسه ولهوه ، وظن الناس أنه سيقيم بسر من رأى وينفذ بجكم إلى الموصل فان احتاج إليه لحق به وإلا أقام بمكانه ، وجعل كل من يصل إليه يشير عليه بذلك .

وورد عليه الخبر بتحرك أمر ابن رايق وأنه يكاتب الناس للوثوب ببغداد فظننا مع ذلك أنه لا يبرح وانطلقت الألسن لأجل ذلك بالمشورة عليه ألا يبرح من سر من رأى وكان أشد الناس كراهة لخروجه ورحيله القاضى عمر بن محمد وذكى الحاجب ، فكنا نجتمع على ما نقوله . وورد كتب الحسن بن عبدالله وإلى الراضى وإلى بجكم يتضمن لهما أكثر مما ظن أنه يبذله له وكتبه بذلك متصلة إلى القاضى وهو يتولى إيصالها عنه وينفذ الجواب ، وكان يقرئنى كل شىء يرد فأقام الراضى أياما بسر من رأى وطمعنا فى رجوعه ، واتفقت مع القاضى على أن يكلم

الراضي كل واحد منا إذا خلا به ورأى وجها للكلام ، فوصلت إليه بسرمن رأى يوما وحدى قبل أن يحضر أهل نوبتى فقلت يا أمير المؤمنين إن العبد المتفق لا يملك كتمان ما بقلبه لمولاه ، ولا يدخره النصح . وما على المولى شيء من أن يسمع قول عبـــده ، فان كان صوابا أمضاه ، وإن كان خطأ جعله بمنزلة مالم يسمعه . فضحك وقال : هات ما عندك ، فقلت : إن الناس يتحدثون بأن العسكر الذى قد رحلت لتزيله أشبه بعساكر الاسلام من العسكر الذى تقصده به من قوم لايرون طاعتك ، وأشبه بعساكر آبائك . وقد تحدثوا بأن الحسن قد بذل أكثر مما أريد منه فان رأى سيدنا أن يقبل هذا ويرجع إلى دار ملكه ويزول مايخافه من وثوب ابن رايق فانه غير مأمون .

ـ وكان الراضي قد أمر بأن ينادى على ابن رايق ، ويطلب فكبست مواضع كثيرة ـ ومع هذا فان الحسن بن عبد الله قد نظر إلى أقرب الناس من قلبك وهو قاضيك فجعله السفير له ، والضامن عنه وإنه يلقاه فيتصرف بجميع ما يريده .

وهاهنا أيضاً أمر آخر ، قال : وما هو ؟ قلت : إذا يئس الحسن من قبول سيدنا لما بذل لم نأمن أن يصرف أمره إلى غيره ، ويلقى نفسه عليه ويتقرب اليه ، ويحظيه ببعض ما بذله ، فيجعله صنيعة له ومادة لدهره وعدة لجدته ويكلم من يلقى نفسه عليه سيدنا فى أمره ويسأله له ما يريده فيقبل قوله ويهب له أمره ، فيحظى بما أردنا أن نحظى به ـ أعرض بيجكم ـ فما رأيته أطال الفكر عند شيء سمعه أكثر مما أطاله بعقب

قولى هذا ، وذكى واقف وحده يسمع بعض مايجرى .

ثم قلت : أما النثر فقد قضيت الحق فيه ، وقد نظمت قصيدة إن أذن سيدنا أنشدته إياها ، وهى فى هذا المعنى فقال هات فأنشدته ـ وكان يقول إنى سأسكن سرمن رأى وأترك بغداد ، وجعل يصور بيده مايكتبه ـ فذكرت أيضاً مدح بغداد وأنشدته .

مُتَيَّمٌ مُتْلِفُــهُ تَلَدُّدُهُ بَانَ لِبَيْنِ الْهَوَى تَجَلُّدُهُ
طَالَ عَلَيْهِ مَدَى الصُّدُودِ فَمَا يُبْصِرُهُ مِنْ ضَنَاهُ عُــوَّدُهُ
قَدْ كَتَبَ الْحُبُّ بِالسَّقَامِ لَهُ نَظْمَــهُ بِمَنْ أَتَى يُفَنِّــدُهُ
أَوْرَدَهُ الْحَتْفَ مَارِدٌ غَنِجٌ زَادَ عَلَى حُسْنِهِ تَمَرُّدُهُ
يَكَادُ مِنْ لِينِهِ وَرِقَّتِهِ تَحُلُّهُ لَحْظَتِي وَتَعْقِدُهُ
قَدْ ارْتَدَتْ بِالْجَمَالِ جُمْلَتُهُ كَمَا ارْتَدَى بِالنَّدَى مُحَمَّدُهُ
خَلِيفَةٌ أُكْمِلَتْ فَضَائِلُهُ فَفَرْعُهُ طَيِّبٌ وَمَحْتِدُهُ
تَعَبَّدَ الْمَجْدَ فَهُوَ يَمْلِكُهُ طَارِفُهُ عِنْدَهُ وَمُتْلَدُهُ
قَدْ رَضِىَ الرَّاضِى الْإِلٰهُ لِإِصْــلَاحِ زَمَانٍ سِوَاهُ مُفْسِدُهُ
فَهُوَ بِتَفْوِيضِهِ الْأُمُورَ إِلَى اللّٰــهِ بِحُسْنِ التَّوْفِيقِ يَعْضُدُهُ
أَمَا تَرَى مَا كَفَاهُ مِنْ خَطَرٍ غَائِرُهُ مُعْجِزٌ وَمُنْجِدُهُ

لَا يَبْلُغُ الْفِكْرُ كَشْفَ غُمَّتِهِ ... يَعُومُ فِي حَيْرَةٍ تَرَدُّدِهِ
وَهُوَ عَلَيْهِ فِي ذَاكَ مُتَّكِلٌ ... يَشْكُرُ إِحْسَانَهُ وَيَحْمَدُهُ
وَلَنْ يُضِيعَ الإِلٰهُ مُلْتَجِئًا ... إِلَيْهِ فِي الْخَطْبِ بَلْ مُؤَيِّدُهُ
يَسُلُّ رَأْيًا كَالسَّيْفِ وَقْفَتَهُ ... وَيَحْتَوِي سَيْفَهُ وَيُغْمِدُهُ
تَمَسُّكًا فِيهِ بِالْوَفَاءِ وَمَا ... تَقْصُرُ عَمَّا يُرِيدُهُ يَدُهُ
كِفَايَةُ اللهِ تَسْتَطِيفُ بِهِ ... تَنْحَسُ أَعْدَاءَهُ وَتُسْعِدُهُ
أَوْحَدَهُ اللهُ فِي فَضَائِلِهِ ... فَهُوَ مِنْ بَدْءِ الْكَمَالِ أَوْجَدَهُ
جَرَى عَلَى الصُّنْعِ وَالسَّعَادَةِ وَالْـيُمْنِ لَهُ ... سَيْرُهُ وَمَقْصِدُهُ
جُيُوشُهُ حَوْلَهُ كَمَا حَدَقَتْ ... بِالْبَدْرِ بَدْرِ التَّمَامِ أَسْعُدُهُ
يَسُوسُهُمْ بِالسَّدَادِ حَاجِبُهُ ... وَهُوَ بِآرَائِهِ يُسَدِّدُهُ
كَأَنَّهُ مِنْهُ لَيْسَ يَبْعُدُ أَنْ ... يُشْبِهَ مَوْلًى فِي الْعِزِّ أَعْبُدُهُ
لَكِنَّهُ فَاتَ بِهِمَّتِهِ ... كَمَا يَفُوتُ الْهِلَالَ فَرْقَدُهُ
وَأَيْنَ مِنْ زَاخِرِ الْعُبَابِ صَرًى ... يَخْفَى إِذَا جَاشَ فِيهِ مَزْبَدُهُ
أَرَى ذَكِيًّا ذَكَتْ خَوَاطِرُهُ ... فَلَمْ يَخُنْ فَهْمَهُ مُتَلَّدُهُ
سَيْفٌ عَلَى مَنْ عَصَاكَ مُتَّقِدٌ ... تُطْفِي [بِهِ] طُغْيَانَهُ وَتُغْمِدُهُ

يا خيرَ مَنْ لاذَ ذو الرجاء به   وخيرَ مَنْ بالنوال يرفدُهُ
ومَنْ يفوتُ المنى تطولُــه   ويقتضيه الانجازَ موعدُهُ
أموالُه نحونا موجهةٌ   بنائلٍ لا تحثُّ وردُهُ
يُعلى لنا الحالُ والمحلُّ به   فلا سؤالٌ له نرددُهُ
لو جازَ أنْ يعبدَ العبادُ سوى الـــخالقِ كُنّا للبرِّ نعبدُهُ
عبدُكَ من قدْ عرفتَ نيتَه   لم ينتقصْ ساعـــةً توددُهُ
يسأل أنْ يستبين سيدُه الـــرأْىَ بفكرٍ له يحددُهُ
ومؤثرُ الحقنَ للدماء فقدْ   تاقتْ إليْه للعيشِ شردُهُ
مستيقناً نعمةَ المطيعِ له   يحملُ ما فى الضمانِ يعقدُهُ
يقبلُ فيه ضمانَ موعدِه   فليس يخشى منه تزيدُهُ
إنْ قالَ قولاً وفى به عجلاً   يهديه للرأْى فيـــه أرشدُهُ
فكلُّ وقتٍ له شريطتُه   يصدرُ هذا ما ذاكَ يوردُهُ
قد يسمحُ اليومَ بالمرادِ ولا   يشبهُهُ فى سماحـــه غدُه
فى كلِّ صقعٍ من البلادِ لظى   مستعرٌ والغواةُ توقـــدُهُ
فانْ نجا بعضُها بمقصـــدهِ   هدَّ من البعضِ ما يشيـــدُهُ

وَكُلُّهُمْ إِنْ أَقَامَ فِى يَدِهِ خُطَامَــــهُ صَاغِراً وَمَقْوَدَهُ

يَطْلُبُ هَذَا مَاذَاكَ يَطْلُبُهُ بِشَافِعٍ عِنْــدَهُ يُؤَكِّدُهُ

قَدْ يَسْتَحِيلُ الْوَلِىُّ ذَا عَنَتٍ تَقْدَحُ بِالْغِشِّ مِنْهُ أَزْنُــدُهُ

وَيُصْبِحُ الْخَلْقُ الْوَلَاءُ لَــهُ مِنْ طَاعَةٍ ثَابِتٍ تَجَدُّدُهُ

بَغْدَادُ حِصْنُ الْمُلُوكِ تُؤْمِنُهُمْ مِنْ كُلِّ بَاغٍ يَخْشَى تَوَرُّدَهُ

وَأَهْلُهَا فِى الْخُطُوبِ جَيْشُهُمُ بِغَيْرِ رِزْقٍ لِلْجَيْشِ يَنْقُــدُهُ

فَأَيْنَ لَا أَيْنَ مِثْلُهَا بَلَدٌ يُحَافِظُ مُلْكَهُ يُؤَكِّدُهُ

فَلَا تُرِدْ غَيْرَهَا بِهَا بَــلَدَاً أَسْلَمُ سَيْرِ الْمُغِذِّ أَحْمَــدُهُ

وَالْأَمْرُ مِنْ بَعْدِ ذَا وَذَاكَ إِلَى مُعَوَّدٍ لِلصَّوَابِ يُوجَدُهُ

فَإِنَّهُ أَعْلَمُ الْمُلُوكِ بِمَا يَفْعَلُ وَاللهُ فِيهِ يُرْشِدُهُ

فقال نعم أنظر فى هذا إن شاء الله. واستؤذن للقاضى فخرجت فلقيته وحدثته بما جرى وقال أنا أؤكد لهذا، فدخل فأطال ثم خرج فقال ما فى هذا الرجل حيلة استمع منى كما قلت فى نحو معناك فلما خرجت الساعة تقدم إلى ذكى بأن تقدم النوبة ليرحل نحو تكريت. ورحل من غد يومنا ذلك وصرنا فى مرحلتين إلى تكريت، ١ فنزل دور بنى جابر النصرانى وأقام أياما، والأخبار واردة من بغداد بقوة أمر ابن رايق وكتب الحسن بن عبد الله متواترة بإزاحة العلة

فى جميع مايراد منه .

فحدثنا الراضى بالله أنه سمع الديالم فى المنزل الذى رحل منه إلى تكريت ـ وقد مرقوم منهم خلف مضربه فصاح بهم الخدم ـ يتكلمون بكلام قبيح ، وقال أما لهؤلاء دين ولا عليهم طاعة وجرى ذكر ابن رايق وقوة أمره فغمزنى ذكى الحاجب فى كلامه وظننت أنه بما سمع من الديالمة قد فش عزمه ، فقلت : ياأمير المؤمنين ، بغداد دار المملكة ووطن الخلافة وفتقها لايتلافى ، فقال إنما كانت بغداد كذا حيث كان فى بيت المال بها عشرة آلاف ألف دينار فى أيام المعتضد وضعف لها فى أيام المكتفى ، فأما ولا مال بها فهى كسائر البلدان ، فقلت فيها ماهو أجل من المال ، الأميران بلغ الله سيدنا ما يأمله فى نفسه وفيهما ، وفيها حرم الخلافة وذخائرهن . وأعانى العروضى بكلمة فصاح عليه فسكت ، ثم أقبل على فقال ياهذا كم تنصحنى فى هذا الأمر وما استنصحتك ، وتشير على وما استشرتك ، فقلت خطأ والله من عبدك وفرط إشفاق . لا أعود لشىء من هذا أبدا .

وقمت إلى ذكى فقلت له أومأت إلى بالقول فنالنى مارأيت ، فقال لى ما بالصواب أن يعيد أحد فى هذا شيئا . وكانت نوبتنا هى النوبة التى تصل اليه ونأنس بها ويديم إعطاءها والاحسان اليها ، ونوبة بنى المنجم بجفوة لايصلون اليه إلا فى المدة البعيدة ، فلماسار فى الماء يريد تكريت سرنا نحن على الظهر وطلبنا فلم يجدنا ، وسار بنو المنجم فى الماء وتعرضواله فجلسوا معه ، فكايدنابهم وساواهم بنا وقال : السفر

لا نوبة فيه لقوم دون قوم، وجعلوا إذا خلوا يشعثون حال من قدروا على ذكره مناعنده وهو يطالع بعض ذلك لنا، حضرنا وغابوا، يغرى بعضنا ببعض ووصلهم سرا ولم يصلنا، فأجمع أصحابنا على أن أعمل شعرا فى ذلك، فأوصلت اليه رقعة فيها - وكان أعطاهم خمسة دنانير لكل واحد فى كل دينار عشرة دنانير - :

يَامُذِيقِى غُصَّةَ الْكَمَدِ   مُشْعِلاً لِلنَّارِ فِى كَبِدِى
أَلذَّنْبٍ كَانَ هَجْرُكَ لِى   أَوْ دَلَالَ الْغُنْجِ وَالْغَيَدِ
حِينَ أَزْمَعْتَ الرَّحِيلَ ضُحًى   أَزْمَعَتْ رُوحِى عَنِ الْجَسَدِ
مَا أُبَالِى مَايَفُوتُ إِذَا   ظَفِرَتْ بِالْوَصْلِ مِنْكَ يَدِى
قُلْ لِخَيْرِ النَّاسِ كُلِّهِمِ   لَا أُحَاشِى فِيهِ مِنْ أَحَدِ
الَّذِى يَرْضَى الإِلٰهُ بِهِ   مَذْهَبًا لِلْغَىِّ بِالرَّشَدِ
حَاسِدِى فِى حُسْنِ فِعْلِكَ بِى   غَيْرُ مَعْذُولٍ عَلَى الْحَسَدِ
قَدْ دَهَتْنِى الآنَ دَاهِيَةٌ   وَسْمُهَا بَاقٍ عَلَى الأَبَدِ
أنتَ يَا أَعْلَى الْمُلُوكِ يَدًا   عُدَّتِى فِيهَا وَمُعْتَمَدِى
نَوْبَتِى قَدْ ذَلَّ جَانِبُهَا   بِيعَ مِنْهَا النَّوْمُ بِالسُّهُدِ
ضَعَّفَ الْحِرْمَانُ قُوَّتَهَا   بَعْدَ حُسْنِ الأَيْدِ وَالْجَلَدِ

لَا تُطِعْ فِينَا الْوُشَاةَ فَقَدْ ... جَعَلُونَا ضُحْكَةَ الْبَلَدِ
حِينَ فَازُوا دُونَنَا بِيَدٍ ... مِنْكَ وَاسْتَوْلَوْا عَلَى الْأَمَدِ
وَرَأَيْنَاهَا مُعَايَنَةً ... إِنَّ هَذَا مُنْتَهَى الْكَمَدِ
بَعْدَ أَنْ كُنَّا بِفَضْلِكَ فِى ... طِيبِ عَيْشٍ دُونَهُمْ رَغَدِ
فَأَنِلْنَا مَا أَنَلْتَهُمُ ... خَمْسَةً تُوفَى عَلَى الْعَدَدِ
أَوْ فَزِدْنَا مِثْلَ عَادَتِنَا ... لَيْسَ غَمْرُ الْجُودِ كَالثَّمَدِ
عِنْدَنَا مِنْ فِعْلِهِمْ تِرَةٌ ... فَأَزِلْهَا الْيَوْمَ بِالْقَوَدِ
لَمْ تَزَلْ بِالْبَذْلِ تَبْدَأُنَا ... فَاجْعَلَنْهَا الْآنَ دُونَ غَدِ
وَلْيَكُنْ إِنْ شِئْتَ مُكْتَتِمًا ... إِنَّنَا مِنْهُمْ عَلَى رَصَدِ
وَأَزِلْ نَحْسًا بِرُؤْيَتِهِمْ ... طَالِعًا مِنْهُمْ بِمُفْتَقَدِ
وَعَلَيْهِمْ لَا عَلَيْكَ بِهِمْ ... دَابِرَاتُ السُّوءِ وَالنَّكَدِ

فما عرضنا بشيء، وأقام على كياده لنا، وأقام أياما بتكريت، ثم رحل منها يريد الموصل، فنزل منزلا على أربعة فراسخ. واستهل هلال صفر ودخل بجكم قبل ذلك إلى الموصل، ووافى الخبر بظهور ابن رائق يوم الأربعاء لليلتين أو لثلاث خلون من صفر وأنه دخل إلى بغداد كأنه لم يكن بها من ناحية باب قطربل ومعه ألف من القرامطة فيهم رافع

كانوا فى عسكر الراضى، فاستحقوا فلم يعطوا وأبطىء فى أمرهم، وكان بجكم لا يحب كونهم مع الخليفة فى جملة حاجبه، فانصرفوا إلى بغداد فكانوا سبب ظهور ابن رايق، وقصد داره فلم يصل اليها فخرج إلى المصلى وكان مستترا فى دار كاتبه السرمن رآى(١) ونادى مناديه أنه قد زاد الفرسان اللاحقين به خمسة دنانير كل واحد منهم، وأنه يطلق لهم عاجلا رزقة كاملة ويزيد الرجالة دينارا دينارا ويطلق لهم نوبتين معجلتين ويكون ذلك بلا نقصان ولا مصارفة. ووافى جعفر بن ورقاء فنزل فى الحلبة فى دار الخليفة ونزل معه أحمد بن خاقان وضبط أحمد ابن بدر الشرابى البلد وجهده وكانت اليه الشرطة، وأعطت أم الراضى مالا أنفق فى رجاله وفرسانه وقصد اصحاب ابن رايق دار بجكم على دجلة فمنع عنها أصحاب كان لهم فيها ثم انهزموا وخرجوا هاربين يريدون سر من رأى وسلموا الدار فنهبت وأحرقت؛ وتحدث الناس بان ابن مقاتل حمل إلى ابن رايق مالا فأعطى الفرسان كل واحد منهم خمسة دنانير صلة وهى الزيادة وأعطى الرجالة دينارا دينارا، وجاء إلى دار السلطان فقوتل عنها وقتل من الفريقين جماعة وانصرف ابن رايق إلى المصلى واستأمن قوم من البجكمية فيهم يارخ وصيغون فأحسن اليهما وتبع أصحاب ابن رايق من كان فى دار بجكم ورئيسهم تكينك فأخذوا منهم دواب وتفرقوا، وجاء خبر محمد بن ينال الترجمان ومعه جماعة كانوا بواسط بأن يقصد بغداد فوافاها

(١) كذا فى الأصل والصواب السرمرى

واجتمع مع ابن بدر الشرابى وحاربهم ابن رايق وأصابت ابن بدر ضربات وحمل إلى منزله وذلك لثمان ليال خلت من صفر فمات فى منزله بعد ثلاث.

وملك ابن رايق بغداد، وظهر ابن مقاتل وحمل إلى ابن رايق مالا فأعطى القرامطة رزقة كاملة بزيادة خمسة دنانير لكل واحد منهم ودخل إلى داره المعروفة بدار مؤنس فأقام فيها ووجه إلى دار الخليفة وإلى أم الراضى فسكن منهم، وقال لهم كونوا على أمركم. ونهبت دار على بن خلف بن طياب فى الجانب الغربى بقرب الجسر ودار أخ له وأخذ منها مال ومتاع ووجد لبجكم مال فأخذ وانحاز ابن ورقاء وقصد الموصل بعد أن قاتل أشد قتال وما أبلى أحد بلاءه وبلاء ابن بدر الشرابى ونادى ابن رايق بأمان البجكمية، وولى شرطة بغداد ابن يزداد قائدا من قواده. وفرض قوما من العيارين فأعطاهم دينارا دينارا وجاءه ساجية وحجرية فقبلهم ووعدهم ما أحبوا، ووجه إلى أبى القاسم الكلوذانى فأخذ منه مالا كان قد جمعه للسلطان وملك العيارون البلد. وكتب لابن رايق فى هذه الحال أبو غالب كاتب صافى الخازن وعلى جيشه ابن القلانسى. وطلب أبا العباس الاصبهانى فاستتر وكان ابنه ظاهرا بين يدى ابن رايق، وخلع على صيغون ويارج وركبا فى شارع الجانب الشرقى حتى رآهم الناس وبين أيديهم بدور دراهم على أكتاف الرجال. ووجه إلى دار السلطان فأخذ ما وجد من الخزاين. ووصل محمد بن ينال الترجمان إلى النهروان ومعه أحمد بن نصر القشورى وسياتكول

وابراهيم بن خلف بن طياب وعبد الله الشيرازى ومؤنس غلام هنكر فى خلق عظيم فتوجه اليهم ابن رايق فواقعهم يوم السبت لأحدى عشرة ليلة بقيت من صفر ثم حجز الليل بينهم وحاربهم يوم الأثنين لتسع بقين منه، فظفر بهم وغنم هو وأصحابه غنيمة عظيمة من الدواب والحلى والمال والأمتعة. وكان ابن رايق قد رأى كثرتهم فزال طمعه فى مقاومتهم فدس اليهم جماعة من القرامطة وواطأهم على أن يستأمنوا اليهم فأذا واقعهم صيحوا بهم من عسكرهم فكان هذا سبب الهزيمة وقتل سياتنكول وأصابت أحمد بن القشورى ضربة فى وجهه وجىء به أسيرا إلى ابن رايق فمن عليه. وأسر مؤنس الهنكرى فهجنه ابن رايق وشتمه فعدا عليه بعض القرامطة فقتله وهرب الترجمان فلم يعرف له خبر حتى وافى الموصل على حالة قبيحة وكان بجكم يظن أنه قتل فوجه إليه بما لبس وبدواب حتى دخل الموصل، ونادى ابن رايق بعد الوقعة ببراءة الذمة ممن آوى الترجمان، أو ابن خلف بن طياب أو عبد الله الشيرازى.

ودخل البريدى إلى واسط فى هذا الوقت، وعظم أمر العيارين ببغداد وأخذوا ثياب الناس من المساجد والطرقات إلى أن ركب ابن يزداد وأخذ جماعة منهم فضربهم بالسياط. ووجد لبجكم عشر بدر دنانير فى درب الزعفران فأخذت ووافى فاتك صاحب ابن رايق فى جيش فدخل من باب الأنبار فى تعبئة حسنة، وذلك فى يوم الخميس لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول، ودخل معه لؤلؤ غلام المتهشم، وعلى أعلامه لؤلؤ الرائق

ولما ظفر ابن رايق وجاهه فاتك وصار إليه مال بجكم الذى ذكرناه أفكر فى الأموال العظام وكاتب فى أمر الخلافة جماعة ، ووجه إلى الحسن والحسين ابنى الفضل بن المأمون فأخذهما إلى داره وقدر مال البيعة فاذا هو على التقليل ثمانمائة ألف دينار فقال له ابن مقاتل : نحن لانملك عدد هذه دراهم ، فكيف نحتالها دنانير! فرد ابنى المأمون إلى منازلهما وأضرب عن هذا الرأى .

ووجه محمد بن يحي بن شيرزاد إلى الموصل فى أشياء أرادها فوصل إلى الراضى بالله وإلى بجكم ووجه الراضى بالله القاضى عمر بن محمد برسالة إلى ابن رايق ولزمه وكان يخاو به وبابن مقاتل ، وربما حضر ابن سنكلا وألزم ابن مقاتل الأمر وقال إن السلطان يعلم أن هذا يتصرف برأيك ومتى أعنتنى على أمر الصلح وقع لك ذلك أجمل موقع ، فاتفق الرأى على خروج ابن رايق إلى الشام واليا عليها . فاقتصر على من أراد من أصحابه وأخرج مضربه ، وكل من استغنى عنه ابن رايق لحق بالبريدى مثل جنى الحمدانى وجماعة قواد وفرسان وخرج ابن رايق عن بغداد يوم الأحد لثلاث خلون من شهر ربيع الآخر، وركب بشرى الأثرم غلام الراضى بالله ، وكان أنفذه الراضى معه لشرطة بغداد إذا رحل ابن رايق عنها ، فنادى فى الذعار وأخذ جماعة من العيارين وطاف فى الجانبين فسكن البلد بعد افتتان عظيم

وأظهر القاضى كتابا ورد عليه من السلطان وأمر بأن يقرأه عدوله فى مجالسهم بأن السلطان لم يؤاخذ أحدا من أهل بغداد بشىء مما جرى ،

وأنه إذا ورد أحسن إليهم كل الإحسان ولم يطلق يد بحكم عليهم وأمر أن لا يتبع أحد ولا يعنت فسكن الناس إلى ذلك وسروا به

﴿ رجعنا إلى أمر الراضى بالله ورحيله ، من تكريت ونزوله على أربعة فراسخ ﴾

ووافى الخبر بظهور ابن رايق وقصده الدار ، وكان الراضى فى طيار وقد طلبنا وما وصلنا إليه بعد ورود هذا الخبر، فجاء القاضى وابتدأ يكلمه ويشير عليه بالتوقف والنظر فى الرجوع فأسبل غشاء الطيار بينه وبينه ، وأمره بالانصراف، فانصرف. ودعا بذكى حاجبه وقال: أنا أعبر إلى الجانب الغربى الساعة فاعبر بدوابى ودوابك ومن تبعك من الغلمان فانى أركب البر حتى ألحق بالموصل. وليسر الناس فى الماء ويكون الذى يسير بهم ويحفظهم سعيد بن حفيف السمرقندى ويشاور القاضى فى جميع ما يفعله وعبر من وقته وعبر ذكى وجماعة من الغلمان والفرسان ، فحدثنا هو لما وصلنا إليه إلى الموصل أنهم كانوا كلهم نحو خمسين ومائة وأن الهيبة حرسته بعد حفظ الله من أن يتخطف وأنه جاع فى الطريق ولم يجد ما يأكل وأن خيراً غلام ذكى الحاجب كان ربما طبخ له القدر والقدرين فيأكلها إلى أن وافى الموصل فى أربعة أيام وقد ماتت الدواب وهلك أكثر من كان معه ، فنزل دار الحسن ابن عبدالله، وسار سعيد بن حفيف بالناس وحفظهم أحسن حفظ ، على أنه ليس معه أحد ولا له معين ، وكان بنفسه وغلمانه وغلمان من معه فى الزواريق يمنع الاعراب والزواقيل ويحرس الناس بنفسه ولا ينام

الليل، ويأمر بإيقاد النار وضرب الدبادب إلى أن يصبح . وكنا نسير في سفننا لصعوبة الطريق الفرسخين في اليوم وأقل وأكثر، وكنت أنا مع ابن حمدون في زورق وكان معه طيار ومعي سميرية بأربعة مجاذيف فغلط أصحاب السميريات ليلا، فربطوا على بعد من العسكر وكبسهم القياقنة وأخذوا جميع ما كان في السميريات ولم يبق لي شيء كان في سميريتي إلا ذهب ، ثم دخل بعد ذلك الماء إلى زورقنا حتى كاد يغوص وسقطنا إلى الماء ، فمن الله علينا بأن رجالة كانوا معنا في الزورق وحملوني وحملوا ابن حمدون حتى صرنا إلى الشط وانتظرنا الطيار حتى جاءوا به وأخذ ما في الزورق ومد إلى الشط حتى أصلح وكان قد انثقب في عدة مواضع .

ووافى راغب خادم الراضي بالله من الثغر، وكان قد شهد الفداء إلى الموصل فوجه به الراضي فلقينا بين الحديثة والسن فسلمنا عليه وكانت معه دواب فحمل القاضي عليها لأن الراضي أمره بذلك وأراد أن يتقدم وصوله وتبعه من كان له مركوب ، وبقينا نحن أياما كثيرة إلى أن وصلنا إلى الموصل ، ودخلنا إلى الراضي بعد عشرين يوما من مفارقتنا إياه وكان في نفسي ما قاله الراضي حين أنشدته قصيدتي الضادية وقت جلوسه : هذه حمتك رميت بها . وأردت أن أعمل قصيدة أشكو فيها غرقنا وما نالنا فقلت والله لأجعلنها ضادية ليعلم أن تلك لم تكن حمتي ، وأنه قد بقيت لي قصيدة وأنا في الزورق مع ابن حمدون ، نحو تلك القصيدة في الطول وهي :

أَبَغَضْتَهُ مِنْ بَعْدِمَا بَذَلَ الرِّضَا؟   هَذَا تَجَنٍّ مِنْ حَبِيبٍ يُرْتَضَى
لَا تَجْزَعَنْ لِلْبُعْدِ تُوعَدُهُ غَدًا   فَاللهُ يَصْرِفُهُ بِمَا فِيهِ قَضَا
ظُلِمَ الْحَبِيبُ فَأَظْلَمَ الْبَيْتُ الَّذِي   أَمَّتْ مَطَايَاهُ بِهِ ذَاتَ الْأَضَا
قَدْ قَالَ بَشَّارٌ وَكَانَ مُسَدَّدًا   يَحْوِي الْمَعَانِي إِنْ رَمَى أَوْ أَنْبَضَا
قَدْ ذُقْتُ أُلْفَتَهُ وَذُقْتُ فِرَاقَهُ   فَوَجَدْتُ ذَا عَسَلًا وَذَا جَمْرَ الْغَضَا
خُذْ مِنْ زَمَانِكَ مَا صَفَا لَكَ قَلَّمَا   يُغْنِيكَ غَمُّكَ بِالتَّكَدُّرِ إِذْ مَضَى
وَاصْبِرْ عَلَى غَرَقٍ بِنُعْمَى نِلْتَهَا   إِنَّ الزَّمَانَ لَمُقْتَضٍ مَا أَقْرَضَا
فَهَوَيْتَ فِي لُجٍّ عَلَاكَ عُبَابُهُ   لَا بُدَّ أَنْ تَلْقَى الَّذِي لَكَ قُيِّضَا
إِنْ قُمْتَ فِيهِ لَمْ تَطُلْهُ لِغَزْرِهِ   وَرَأَيْتَ تَحْتَ الرِّجْلِ مِنْهُ مَدْحَضَا
وَتَسَرَّعَتْ مِنْهُ إِلَيْكَ حِجَارَةٌ   تَذَرُ الصَّحِيحَ مِنَ الْعِظَامِ مُرَضَّضَا
وَكَسَاكَ مِنْ يَدِهِ وَلَمْ تَسْتَكْسِهِ   عَشْرًا يُؤَلِّفُهُ الْمَدُودُ وَعَرْمَضَا
نَجَّاكَ مَنْ نَجَّى بِلُطْفٍ يُونُسًا   مِنْهُ وَكَانَ لِقَبْضِ رُوحِكَ مَعْرِضَا
هَذَا وَقَدْ ثَلَمَ الزَّوَافِلُ جَانِبِي   فَأَفَضْتُ دَمْعًا عِنْدَ ذَاكَ مُغِيضَا
أَبْكِي كِسَاءً كَانَ أَوْثَقَ عُدَّتِي   إِنْ أَحْصَرَ الْبَرْدُ الْعِظَامَ وَنَقَّضَا
وَمِخَدَّةً قَدْ كَانَ يَأْلَفُ لِينَهَا   خَدِّي فَأَضْحَى الْجِسْمُ مِنْهَا مُمْرَضَا

ونفيس فرش كالرياض نقوشه ما كان من دون الرياش مرحضا
ومجمعا قد كنت أجمع آلة فيه وكان من البلاء مفضضا
والصفر أبكى كالنضار وشمعة زانت يد الماشي بها والمقبضا
صرحت بالشكوى إليك تأنسا بندى يديك إذا غريب عرضا
فلأنت أعلى في الملوك محلة وأجل من راش العبيد وأنهضا
من بعد ما غال المشيب شبيبتي ونضا لباس تجملي فيما نضا
وأحارني مرضا وأوهن قوتي فغدوت منه وقد صححت ممرضا
وإذا دنت سبعون من متأمل دانى ولم يرفى اللذاذة مركضا
وجفاه نوم كان يألف جفنه قدما وأضحى للحتوف معرضا
وإذا بلغت إلى الإمام مسلما ورأيته زال التخوف وانقضى
ونسيت روعات لإرجاف فشا ما زلت للإشفاق فيه مرمضا
ذادت موارده الكرى عن مقلتي وأبى على حذاره أن أغمضا
فعلي نذر إن رأيتك سالما صوم وعتق عاجل لا يقتضى
بمحمد رضى الإله خليفة في الأرض فهو بذاك راض مرتضى
جاءته طوعا لم يسير لفقه فيها ولا أضحى لها متعرضا

فهو الحقيق بها المعان بقوة   فيها بحكم فاصل لن يدحضا
الله أقبل لى بوجه نواله   فرفضت وجه الدهر لما أعرضا
بدر يضىء دجى الظلام ولم يزل   لسواد ما تجنى الخطوب مبيضا
بكر الزمان فليس ينتج مثله   أبداً ولا يلفى به متمخضا
عالى المحل بنى له آباؤه   شرفاً أبت أركانه أن ينقضا
من شام عزك ذل دون مناله   أو رام ما رفعت منه تخفضا
أحسنت حتى ما نرى متسخطا   يشكو الزمان ولا نرى لك مبغضا
كم مبغض حطت إليك ركابه   نال الغنى عجلا فأغنى المبغضا
بعلو فخرك فى المفاخر يعتلى   وبنور هديك فى الديانة يستضا
وجليل خطب هاب منك عزيمة   فأتى إليك بما هويت مفوضا
ومضت بروق فى العراق فأخلبت   ورأيت برقك صادقاً إذ أومضا
قزع أرذ فما غذت أخلافه   غرساً ولا هو بالخمائل روضا
وتداءبت بذوى الضلالة هبوة   أبقت لهم أسفاً وخوفاً ممرضا
وسيكشف الهبوات ربك نقمة   تدع البناء من الضلال مقوضا
سترى القيام به قعوداً عاجلا   فزعا ويرجع ساكنا من حرضا

وَيَصِحُّ من غمراته من لم يزلْ   فيما قضيت من الأمور ممرضا
وَيَعُودُ ساعٍ فى الجهالة عاثراً   لا يستطيع من الندامة منهضا
وَيَرى غَوِيٌّ رُشْدَه فيشيمُ ما   قد كان من نعم الضلالة ربضا
وَيَفُلُّ غَرْبَ جموعهم لك حاسمٌ   من جيش رأيك كالسهام المنتضى
وَيُذيقهم جُرَعَ المنايا بحكمٍ   وكذاك عادةُ بحكمٍ فيما مضى
سَيْفُ الخلافة والمبيرُ عدوَّها   بسديد عزمٍ صائبٍ إن أعرضا
أنحى عليهم بالسيوف فخلتهم   لتناثر الأعضاء حصباء الفضا
دافَ الرجالُ إليهم فكأنما   كانوا نساءً حين دُمّوا حُيَّضا
فعفوتَ عن طلبٍ لهم فتبسطوا   ثقةً وكان نجاؤهم متقيضا
كيف التورطُ فى ظلام ضلالةٍ   والصبحُ فى سبل الهداية قد أضا
يا واحدَ الكرم الذى تلقى به   وجهَ الزمان إذا تسوّد أبيضا
خذها إليك قوافياً قد لبست   رقماً أبى تحسينُه أن يرفضا
كانت مجمّعةَ الظهور نوافراً   فأتتك لينةَ المقادة رُيَّضا
لفظاً أليفاً للقلوب محبّباً   لم يلفَ وقراً فى المسامع مبغضا
من شعرِ مقصورِ المدى متكلفٍ   إن رام نهجاً فى طريقٍ أدحضا

وكأنه ثقلا فراق أحبة ... نادى به داعى الشتات وحضضا
بل مرسلا طبعا فسيحا ذرعه ... قد شف ذا الباع القصير وأرمضا
وإذا أمال إليه سمعا صاعدت ... أنفاسه أسفا عليه وأبغضا
أحذاكه من لا يزال ضميره ... عما كرهت من المذاهب معرضا
أفنى الزمان بخدمة لك آملا ... ما نلته فأناله غايات الرضا
ومدائح سبقت إليك بأسرها ... يأتيك قائلها بها متعرضا
ما شرفته خدمة لك قبلها ... حتى ملكت فدسهن معرضا
وأصاب مرعى فنائك ممرعا ... فأخل فيه بالحظوظ وأحمضا
إذ سيف عزمك كامن فى جفنه ... أرجو انتضاك له ولما ينتضى
هذى سوابق لا يمت بمثلها ... من قد أتى خلف السكيت مركضا
فافد وعوض مادحا لك راجيا ... فلأنت أكرم من أقال وعوضا

فلما أنشدته إياها قال : صدقت يا صولى قد بقيت لك حمات ، وهذه الضادية أفحل كلاما من تلك ، وتلك أنعم لفظا وكلتاهما فى نهاية الجودة فقلت أنا والله يعلم سيدنا بالشعر أحترس إذا مدحته . فضحك .

وأقمنا أياما بالموصل وبجكم قد كان واقع الحسن بن عبد الله فهزمه ثم رجع بجكم إلى الموضع ووقع بين أصحابه وبين أهل الموصل حرب

فقتل جماعة من التجار ونهبوا ، فكان من بجكم وأصحابه أمر قبيح عظيم حتى وجه اليه الراضى فى ذلك فأمر أصحابه أن يكفوا . وطولب على بن خلف بن طياب بالأموال الذى ضمنها فما قدر إلا على الشىء اليسير الوتح فوجه إلى قرى بعيدة فيحمل حنطة وشعيرا ويعز عليه من يشتريه . وكان الطالقانى صاحب بجكم ، ويكنى أبا حامد فى يد الحسن بن عبد الله فأطلقه وفارقه [على] أن يصلح الأمر بينه وبين بجكم ففعل ذلك وكان بينهم ماغمض على الراضى فلم يعلم حقيقته ، وكلم بجكم الراضى فى الحسن بن عبدالله أن يقبل الضريبة التى عليه ويرحل الى بغداد . فقال له إنى قد اتفقت مذ غرمت على الحركة الى وقتى هذا مائة ألف دينار . وأخذ ابن رايق مثلها من بغداد فلم يزل يسأله إلى أن أجابه . وكان الراضى بالله وصل الجلساء ، ولم يصلنى ، لما فى قلبه على من تكلفى المشورة . وعزم على الرحيل فمنعته الإضاقة ، ثم فورق على مال يسير قدروه لنفقته الى بغداد ، على أنه يجئ من عند الحسن بن عبدالله ، فرحل عن الموصل وأقام على نحو فرسخين منها ينتظر المال ، واستبان الصواب فيما كان أشير عليه به ، وضاق بمقامه ذرعا . وكان فى حراقة يدخل اليه فيها . فأمر راغبا الخادم أن يدخلنى اليه مفردا قبل وقت مجىء الجلساء ، فأوصلنى اليه فقال لى : كأنى بك ، وقد قلت فى نفسك إنى خطوت الرأى ، وتركت الصواب . فقلت والله مادار لى هذا بفكر ، ولقد شغلنى الغم عن ذلك حتى أرى سيدنا فى دار ملكه مداوما لسروره على عادته ، فقال أما كنت حدثتنى أن يحيى بن خالد البرمكى ، قال لا أحمد نفسى على رأى ابتدأته

يخطأ فآل إلى صواب، لأنى بالخطأ ابتدأته ولا علم لى بما آله. وكذلك لا أذمها على رأى ابتدأته بصواب فآل إلى خطأ فأنا كذلك ابتدأت أمرى بصواب ولا أعلم المغيب. فقلت يوفق الله أمير المؤمنين ويعوضه ويبقيه، فقال الراغب ادفع الى الصولى ما كان قبضه أصحابه ولم يقبضه، وزده مائة دينار، فأعطانى ألف درهم ومائتى دينار. وكان قبل أن يرحل من الموصل طلبنى وقت الظهر فدخلت اليه، وكان قيد على كتاب بما كان من أمر ابن رايق مع ابنى المأمون وكتب إلى ذكى كتاب مثله. ووردت كتب الناس بذلك.

وكان الرجالة المصافية يطالبون بأرزاقهم فأخروا فغضبوا وصاحوا: قد مضى القرامطة ففازوا بابن رايق، ونمضى نحن فنأخذ بيعة ابن المأمون. إلى أن وجه الحاجب فردهم، وضمن لهم ما أرادوه فقال لى الراضى حين دخلت اليه: هناك يا صولى قد أجلس جارك ابن المأمون خليفة، وميل بين الاثنين فاختاروا الكبير، والله لأطعمن الطير لحمهما، وذكى الحاجب يسمع ذلك وخدم قيام فقلت لا أحيانى الله الى أن أرى مكان سيدنا غيره، وما أبعد هذا يا سيدى فى نفسى، أيصلح للخلافة من خاب سبعين سنة، ومع هذا فوالله ما يحسنان شيئا ولا يفهمانه فلما سمع قولى هذا ضحك منه، فلما ضحك انبسطت فى الكلام فقلت أعداء هؤلاء كثير والتشنيع عليهم عظيم، ولعل هذا شنعه أعداؤهم عليهم. فرمى إلى بفصل من كتاب قد ذكر ما قاله فيه.

ودخل محمد بن حمدون ونحن فى ذاك فأعاد عليه القول فسلك فى

الكلام طريقى، وما زلنا نكلمه حتى سكن. وخرجت فقال لى ذكى الحاجب أحسن الله جزاءك، هل ورد عليك كتاب بما قاله سيدنا؟ قلت نعم قال وقد ورد على مثله، فأعطانى كتابه ودفعت إليه كتابى فرمى بهما فى دجلة. وجاءت الدراهم التى وعدبها الراضى ففرقها ورحل نحو بغداد لا يلوى على شىء، حتى دخل بغداد لثمان خلون من شهر ربيع الآخر ولقى الناس شدة فى الطريق، وغرق خلق من أصحاب بجكم من باب يعرف بباب الهاشمى. وكان الناس يقولون: نالتهم عقوبة بطلبهم أهل الموصل. وكان دخول الخليفة فى الماء يوم السبت، حتى انتهى إلى داره ونزل بجكم دار مؤنس. وورد من الحسن بن عبد الله مال من مال المفارقة، حمل إلى خزانة بجكم.

وكان فيما خاطبنى به الراضى فى حجته من خروجه أن قال نظرت فاذا الدنيا لا تفى برزق جند بجكم ومؤونتى، وأن هذه المستخلصة التى فى يدى احتاج أن أتمم منها مال أصحابه، فقلت نصير إلى الموصل وهى الناحية العامرة، وأكثرها ضياع آل حمدان فأقبضها كلها وانفرد بأولئك وأجعلها لبجكم وأصحابه وهى كفاية وفاضلة عنهم ويخلص لى مال ضياعى فأوسع على الناس منه وأعطى من حرمت، وأجعل فى بيت المال شيئا يرجع الناس اليه.

فقلت له إن هذه الناحية إنما عمرت بعناية ابن حمدان بها، ونزولهم فيها، ولو قد صارت الى غيرهم لعادت خرابا كما عادت فارس بعد عمرو ابن الليث، وأصبهان ونواحيها بعد أبى دلف. ولما قدم الراضى بغداد

أمر فنودى فى جانبيها ببراءة الذمة من جندى تعدى على عامى، وكذلك إن تعدى عامى على جندى فسكن الناس، وورد كتاب الحسن بن عبد الله على بجكم يخبره بأن ابن طياب كاتبه أخذ من الأموال بالموصل نحو ألف ألف دينار سرا وجهرا، فقبض بجكم على كاتبه على بن خلف وعلى أخيه واستكتب أبا جعفر محمد بن يحى بن شيرزاد

وكانت لبجكم دعوة عظيمة دعى فيها القواد، وأوقد فيها نيرانا عظيمة فى يوم السبت لأيام بقين من شهر ربيع الآخر، وذلك فى الصحراء التى أسفل النجمى على دكة كان بناها هناك وميدان أصلحه، قطع فيه نخل الناس وأخذ أملاكهم وذلك وقت كان الفرس يصنعون فيه مثل هذا لدخول بهمن ماه وهو ذهاب الشتاء.

وخلع على ذكى الحاجب وعلى ابن ورقاء وعلى ابن جعفر الخياط وابن خاقان، ووصلهم وفعل بأصحابه مثل ذلك، وأنفق فيها مالا عظيما وتكلم بجكم فى أمر محمد بن القاسم الكرخى فظهر.

وقطع أبو جعفر بن شيرزاد أمر بنى طياب على ألف ألف درهم. وقبض بجكم على لؤلؤ وكاتبه ابن سمعون وابن أعجى خليفته، كان على الشرطة، وقال له أتدخل بغداد بأعلام عليها لؤلؤ الرايقى؟ واتخذ بجكم دار ابن رايق ميدانا يقصده فى كل جمعة وثلاثاء. وسفروا فى الصلح مع بنى البريدى على أن ابن شيرزاد يسفر فيه فقدم كاتبه طازاذ الى واسط.

وضبط بشرى الأثرم الشرطة ضبطا حسنا، وماتت أم موسى

الهاشمية فى شهر ربيع الأول ومات جماعة من المحدثين منهم الأدمى المقرىء بحرف حمزة فى جامع المدينة وكان زاهدا . ومنهم على بن العباس الهروى

ثم كثر عبث العامة وكبسوا الحمامات ، وأخذوا ثياب الناس وكذلك صنعوا بقوم شيعوا جنازة وغلت الأسعار .

وولى أبو الحسين بن ميمون أزمة الدواوين ، وأطلق البازعجى فى غرة جمادى الأولى ، ففورق عن مال يؤديه عن لؤلؤ

ومات أبو محمد يزداذ بن محمد بن يزداد الكاتب - وكان قد حدث عن أبى سعيد الاشج والزبير بن بكار - يوم النصف من جمادى الأولى .

وقبض الراضى على عبدالصمد بن المكتفى ، وحمله الى داره واتهمه بمكاتبة ابن رايق فى البيعة له وقت ظهوره ببغداد .

واتصل النداء برضاء السلطان عن البريديين ، ووردت الكتب بموت الوزير أبى الفتح الفضل بن جعفر يوم الأحد ، لثمان ليال خلون من جمادى الأولى ، وأنه دفن فى دار له بالرملة ، وخرج القاضى والترجمان الى بنى البريدى فى جمادى الآخرة ، ووقع بين يدى الراضى إملاك لأبى الحسن بن عبد الله بابنة لبجكم صغيرة ، وأنفذ بجكم بعقب هذا هدية عظيمة الخطر فيها خمسون ثوبا من فاخر الفرش والديباج ، ومثلها من الخز وعشرة مراكب على عشرة أفراس . وجاءت من الحسن هدية إلى بجكم تزيد على هذا ، وعجل بجكم على رجل كان فى داره من وجوه قواده فقتله ليلا ، ثم أصبح نادما مغموما وخبثت قلوب

أصحابه لذلك، وورد الخبر بأن البريديين دخلوا الأهواز بحرب الديلم وهزيمة لهم.

وعاد القاضى والترجمان إلى بغداد، ونفذ راغب خادم الراضى بالخلع على أبى عبد الله البريدى الوزارة يوم الثلاثاء، لسبع خلون من رجب على أن يخلفه ببغداد أبو بكر النفرى، وكان الكتاب نفذ إلى ابن أبى الفتح الوزير بأن يدبر ما كان يدبره أبوه بعد اسم الوزارة.

وورد الخبر بأن ابن رايق رجع الى الرقة فقبض على خزائن لابن حنزابة فوصل اليه منهاما قيمته خمسمائة ألف دينار. وخلع على الترجمان، لعشر بقين من رجب لولاية الجبل، وخرج الى مضربه بصحراء ثلاثة أبواب وعقد له لواء.

وسمعت راغبا الخادم يقول إن أبا عبد الله البريدى امتنع من الوزارة وقال: لو سست بعض دواب الخليفة لشرفت بذلك، فكيف بكتبته! ولكنى بعيد عنه، ولا يحسن لى أثر عنده. لغلبة من قد غلب على الأمر، وأخاف أن ينسبنى إلى عجز وتقصير. فان أمنت هذا منه فأنا عبده يفعل بى ما شاء. فرجع إلى الراضى فأخبره بهذا من قوله، فرده اليه بأن يعذره. فلبس الخلع وركب فيها، ووصل راغبا ومن معه بمال عظيم. وقدم راغب فحدث الراضى بما جرى، وهو يدور فى داره ونحن معه؛ فأقبل الراضى علينا كالآنف من طرحه الوزارة على من يشترط فيها! فقال لنا – وتكلم بأحسن كلام وأصوبه فى معناه – : إن الوزارة قطعة من الخلافة؛ ووهنها وهن الخلافة، وكنت

استكتبت الفضل بن جعفر ، وكان كاتبا من بيت كتبة، وكان نائبا عنى فحسن أثره عندى فى جميع ما فعله ، ولم تنله مهنة من أصحاب بجكم تضع من الوزارة ومنه . فلما توفى نظرت إلى من بالحضرة فاذا هم من قد عرفت ، وإن علقت هذا الاسم بواحد منهم لما مضى عليه أسبوع حتى يسأل مالا يقدر عليه ، ويمتهن كل الامتهان . فنظرت إلى أرفع من أعلمه فى الزمان ممن يسلم من هذا ويبعد عنه ، فلم أجد غير ابن البريدى ، فاستكتبته لهذه العلة ، وليبقى اسم الوزارة على حال صيانة ورفعة . فدعونا له وقلنا : والله ياسيدنا ماسمعنا كلاما أوضح بيانا ، ولا أفلج حجة ! وتتابعت هدايا الناس إلى الوزير ابن البريدى . ونالت بجكم علة صعبة ، ووافت الأخبار بأن الديلمى وافى واسط ؛ فنزل الجانب الشرقى ، وأن البريديين عبروا إلى الجانب الغربى . وكتب يستنجد ببجكم ، فخرج الراضى وبجكم على علته نحو واسط يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان . ولم يخرج بجكم معه أحداً من الديالمة ، خوفا من أن يستأمنوا . ورجع الترجمان إلى بغداد ، وأقام الراضى بالزعفرانية ، ولحق به بجكم وهو عليل . وتعرض الحنبلية لمن قصد الحى للنصف من شعبان ، فنودى فيهم : أنهم متى عرضوا لهم عوقبوا أشد معاقبة ، فكفوا . وكان ابن إسماعيل بن أحمد قد ولى شرطة بغداد قبل هذا الوقت بشهر وأيام ، فركب ووقع بين الحنبلية والضرابين والنخاسين قتال فأعان على الحنبلية . ورجع السلطان إلى بغداد لليلتين بقيتا من شعبان ، لما اتصل به أن الديلمى قد رجع إلى

الأهواز . ورجع بجكم وابن شيرزاد إلى بغداد يوم السبت لثمان ليال خلون من شهر رمضان . ومات البخارى خليفة البربهارى فى شهر رمضان . وكبست منازل ولد أبى العباس بن الفرات ، لسعاية غلام لهم بأن عندهم خزانة لابن رايق ، وكذب ، كانت خزائن لهم ، فأخذ جميع ما ملكوه . وكبس ابن الصالحى وأخوه ، لأنهما اتهما بالسعاية فى كتبة بجكم ، فصودرا على مائة ألف درهم . وضرب بجكم دنانير وحشة ، وحمل عليها حملا كثيرا . وطلب ابن إسماعيل بن أحمد ، صاحب شرطة بغداد البربهارى فاستتر . وقطع الاكراد على قافلة جاءت من خراسان فى النصف من شوال ، فأخذوا منها مالا عظيما وورد ابن حاتم والحاج من خراسان ، فمنعهم بجكم من الحج خوفا عليهم من القرامطة وكثر التخليط فى أمر النقد ودار الضرب . وكان الدلاء صاحب البربهارى قد فر من الحبس فى دار بجكم ، فوجد وآل أمره إلى أن قتل . ومات أبو الوليد بن حمدان فى ذى القعدة . ثم احتال الحاج فى أن خرجوا فجاءهم ابن سنين ، فوافقهم على أن يخفرهم وأخذ من جمل المتاع خمسة دنانير ، ومن كل محمل ثلاثة دنانير ، ومن كل زاملة دينارا . وقبض بجكم على سلامة أخى نجاح فى غرة ذى الحجة وقطع أمره على خمسين ألف دينار ، أخذ منها بستانه بالبردان . وبنى مسجد براثا . وأفتى بعض الفقهاء بنبش القبور وتحويلها — التى كان البربهارى وأصحابه أخذوا الناس بالدفن فيه — وأنفق عليه مال وصلى بالناس فيه . وروى فيه جعفر الدقاق عن أبى خليفة حديثا ما خلق

الله له أصلا . وكان من أخبار الجلساء بعد رجوع الراضى من الموصل انه أعاد النوبة كما كانت يومين يومين ، أربعة وأربعة ، وكان بنو المنجم لا يصلون ، وكان أحمد بن يحيي المنجم يحضر كل يوم فى نوبتهم فلا يصل ، وفى نوبتنا فيصرف ، وربما استحيا الراضى منه ، فجلس معنا فى نوبتنا ثم امتدح الراضى بشعر وقال : أنا أريد أن أخدم سيدنا كل يوم ، إلا يوم الثلاثاء والجمعة بلا نوبة ، وقام فسأل هذا وقبل الارض ، فكان يجيء فى كل يوم . فطالبنا الراضى بأن نفعل مثل فعله . فعرفناه أن هذا ما كان مثله قط ، وأن الاجسام لا تثبت عليه . وخوفنا أحمد بن يحيي منه . وقلنا له لا ترسم رسما يعود ضرره على جماعتنا ، فلم يقبل خوفا من أن لا يصل متى تغير هذا ، وكنا نحضر فنجلس الى السحر ثم ننصرف فلا يجلس حتى يعود ، ويطالب بالأكل والشرب ، فما كنا نجلس فى مجلس لكثرة عللنا ، وكان ذلك سبب فساد مزاج الراضى ونفس الله عنا بشهر رمضان فى سنة سبع ، فلما جاء شوال عدنا إلى ما كنا فيه ، فاعتللت أنا أياما كثيرة ، ولم يبق منا أحد الا اعتل ، واعتل أحمد بن يحيي علة طالت ، ووقع البلاء به كما جناه ، فتوفى رحمه الله فى ذى القعدة . وأمر الراضى بأن يتصدق بألف دينار من الصراة إلى نهر عيسى لعوز الماء من أجل البثق . فقلت أو يفعل سيدنا ماهو خير من هذا ؟ قال : وما هو ؟ قلت : يضيف إلى الألف ألفا آخر ويعمل البثق قال ويتم الأمر بهذا ؟ قلت : نعم إن جرى على يد واحد من الناس . قال ومن هو ؟ قلت أخشى لومه ، قال : قل . قلت : راغب الخادم ، هو

والله أوثق الناس . ويغمه بعده عن الخدمة . فيروج العمل والعمال يرتزقون فيحبون أن يطول الأمر ليأخذوا أرزاقهم . وهذا لا يزيد رزقا . فدعاه وأمره أن يضم الى الألف الدينار ألفى دينار ويخرج ، فأطلق يده على جميع الناس ، فعرف راغب أن هذا من جهتى ، فقال لى أنت عرضتنى لهذا ؟ قلت نعم . رأيت الأستاذ يغزو ويحج على غرر ، وهذا أفضل من الغزو والحج والجهاد بعد الفرض ، فرضى عنى وكان قد غضب . وخرج ففرغ من البثق بعد نيف وخمسين يوما . وركب الراضى ونحن معه نتنزه بكرخايا ، فأعد له القاضى بالصالحية ضيعته ، فاكهة كثيرة ، وطعاما واسعا ، على أنه يتغدى فيها ، فلم يمض اليها ، وعاد الى بستان ابن قرابة فتغدى فيه وانصرف من يومه ومعه بجكم ، وعمل الجسر الفوقانى بمال أوصى به أبو الوليد من ثلثه ، وأوصى بأن يعمل به الجسر .

سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة

أنكر بجكم على الترجمان دخوله بلا أمر ورجوع الديلم ، فأظهر كتابا عن تكينك يخبره بأن الأمير أمره بذلك ، فكان ذلك مما أنكره الأمير على تكينك وما زال الترجمان ملازما بيته الى أن رضى عنه بجكم ووافت الأخبار بمصالحة ابن طغج لابن رايق ووردت الخريطة بتمام الحج ، إلا ان الحسنى قطع على قوم منهم ، وقد فصلوا من المدينة راجعين . وصلى بالناس عمر بن الحسن بن عبد العزيز . وكان صيغون

قد طرده ابن رايق ولم يرده ، فصار الى الحسن بن عبد الله ، فلم يرض حاله عنده ، فصار الى بغداد يريد بجكم فخرج بجكم الى النجاحى حتى تلقاه وأندمه معه ، وكانت ابنت الوزير ابن البريدى مسماة بابن أبى جعفر الكرخى ، فزوجها من بجكم بحضرة الراضى ، والخاطب القاضى ، وابن شيرزاد الولى ، وذلك فى صفر . وكان ابن شنبوذ محبوسا فمات فوجه به الى منزله وقد كانوا حذروه فى وقت ثم ردوه . وقتل العيار المعروف بالمسلمانى وصلب ، أخذه رجل يعرف بأبى الحسين التودى فأمسكه وتكاثر العامة عليه . وولى الترجمان الشرطة ، فاستخلف أبا بكر النقيب وقبض بجكم على ابن اسماعيل بن أحمد فى شهر ربيع الأول ، لأنه واطأ جماعة على الفتك ببجكم بعد أن كان دعاه قبل ذلك إلى منزله حيال قصر عيسى ، وجميع قواده ، وأنفق مالا عظيما على الطعام والشراب والحملان للقواد والهدايا حملت مع بجكم وأفراس قيدت معه . ومات ابو عبد الله بن العلاء الجوزجانى المحدث لاحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ، وكان مسندا يروى عن أبى الأشعث ويوسف القطان وزيد بن أخزم الطائى . وصرف الحسن بن هارون عن الكوفة بأبى بكر البرجالى . وحول بجكم الحبس السفلانى الى دار دينار ليعقد هناك جسرا ، وبنى دكتين ولم يتم ذلك . وأخرج الراضى ابنيه الى داره بالرصافة ليركبا اليه ، وبنى لهما طيارين كبيرين . واشتد أمر اللصوص وكبسهم الدور ليلا ، بالعدة والعدد ، وظفر بجماعة منهم فقتلوا وصلبوا . وصرف لؤلؤ عن طريق الكوفة ، وولى مكانه عدل

حاجب بجكم . وكان ابن شيرزاد قد خرج الى واسط فى استحثاث المال فقدم لثمان ليال بقين من ربيع الأول ومعه السكرى صاحب ابى الحسين البريدى بمال وهدايا . واتصلت الأمطار وزادت دجلة زيادة عظيمة لم يعهد مثلها . وأوقد بجكم بالزبيدية نارا عظيمة ليلة وبعض يوم ، وشرب ودعا القواد . وتحدث الناس بأن السكرى صار الى دار البريديين التى خربت بسوق يحي ، فحفر موضعا منها فاستخرج خمسة قماقم فيها دنانير فحدرها معه . وكتب أبو القاسم بن أبى حامد رقعة الى بجكم يتضمن فيها الخليفة وابن سنكلا وجماعة بخمسة آلاف الف دينار بخطه ، فأمر الراضى بضرب عنقه ، فشهد له القاضى بفساد العقل ، فضرب درراً ، وطيف به على جانب بغداد . وأدخل يالبا لعشر بقين من جمادى الأولى على فالج بنقنق لأنه اتهم بمشايعة ابن اسماعيل على الفتك ببجكم ، وكان سبب أخذه أنه كتب وكان يلى الرحبة أن ابن رايق يريده . فكتب إليه : انا موجه اليك بمدد فوجه بعدل فقبض عليه . وكبس الصقر بن محمد الكاتب وطولب بوديعة لبعض القرامطة ، فحلف على بطلان ذلك ، فسعى رجل بمال له مدفون فى داره فأخذ ، وكان عشرة آلاف دينـــار ذخراً له ولولده ، فجرى عليه ظلم رثى له منه عدوه وصديقه . وأحضر بجكم يالبا فوبخه وقتله. وتوفى أبو سعيد الأصطخرى الفقيه يوم الجمعة لأربع عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة ، ودفن بمقابر الدير ، وكان رأسا فى حفظ مذهب الشافعى وحدث وكان ثقة .

وتوفى بعد يومين أبو الفرج بن جعفر بن حفص الكاتب عن سبعين سنة وكان من أهل بيت كتبة . وأخرج بجكم الترجمان إلى الجبل ومعه جيش عظيم لأربع خلون من رجب . واتصلت مصادرة الناس فصودر ورثة أبى جعفر بن حفص على ثلاثة آلاف دينار

ومات أبو الحسين بن المغيرة الجوهرى لتسع بقين من رجب ، وقد حدث وكان ثقة . وأدخل جعفر بن ورقاء مائة نفس ونيفا من القرامطة من بنى سعـــد من طريق خراسان ، فطيف بهم على جمال وحبسوا . وقدم رسول القرمطى مع عمر بن يحيى العلوى يطالب بمال عظيم كان أعطاه مثله البريدى فى العام الماضى حتى يحج بالناس ، وأن يده لا تنال فى هذا العام

ووجه بجكم إلى ابى الحسن الكرخى وأبى عمرو الطبرى فحضرا عنده فى ليلة جمعة فسألهما مسألة فى النبيذ وغير ذلك .

وتوفى القاضى عمر بن محمد ليلة الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من شعبان وكانت سنه تسعا وثلاثين سنة ، وبلغ فى العلوم مبلغا عظيما مع هذا السن ، وكنت أنا كالمربى له ، ولا أشك أنه قرأ على من كتب اللغة والأخبار ، وكتبى المصنفة مايقارب عشرة آلاف ورقة ، وكانت له أشعار ملاح وجوابات منى قد افردت لذلك كتابا فيه هذه الأشعار وفيه رسالة عملتها فى وصفه ووصف ابيه ، وما تخلف عن جنازته احد من الأجلاء ، ووجد الراضى عليه وجدا شديدا ، حتى كان يبكى عليه بحضرتنا ويصفه ويقول : كنت أضيق بالشىء ذرعا حتى أراه فيوسعه

إلى برأى يسير يشير به . وكنا ليلة بين يديه وستارته تغنى فامرهن بأن يضربن بالعيدان ففعلن وجعل يبكى حتى خفنا عليه ، وجعلنا نعزيه ونقول مايجب ان يقال مثله . فقال والله لا بقيت بعده ، وصلى عليه ابنه ابو نصر فى داره وغسله أبو بكر بن عبد العزيز الهاشمى

وولى الراضى ابنيه أبانصر وأبامحمد وخلع عليهما فمرا فى الشارع فجعل إلى أبى نصر قضاء بغداد إلى المداين ، وولى أبا محمد القضاء من المداين إلى البصرة وصار أبو نصر إلى مسجد الجانب الشرقى فى يوم الثلاثاء لليلة بقيت من شعبان فقرأ عهده ، وحكم بين نفسين وانصرف وكان فيما كلم به الراضى حين ولاه : قد استوفى سيدنا الانعام وكمله وشيدبآخره أوله ، فثبت الله وطأته وأدام دولته . وأريدمن ابى نصر مال لبجكم فغرم وباع ، ووقف على العدول والأمناء حتى أدى

وكان النوروز يقع ليومين من شهر رمضان فقدم الخاصة إشعال النار قبل دخول رمضان ، وأشعل العامة وصبوا الماء . وعزل غانم بن رحمة عن الشرقية للنصف من شهر رمضان ، وصودر على مال . وقلد رجل يعرف بفضل فاضطرب الناس وعجبوا لذلك فعزل وولى رجل يعرف بالقابوسى . وحمل مع رسول القرمطى مال ليحج الناس .

واتصل ببجكم رجوع الديلم وان الترجمان لمابلغه ذاك اقبل يريد حلوان فخرج مبادرا لاحدى عشرة بقيت من شهر رمضان ، حتى لحق بالترجمان وقيل له ان بينه وبين الديالمة عقبة إن أخذوا مواضع منها لم يصل اليهم وانه يحتاج أن يأخذ فى طريق بعيد حتى تم له

الحيلة فوافى بغداد على الجمازات لخمس خلون من شعبان ، لأنه اتصل به أن الراضى عليل ، وكان اعتل فى هذا الوقت حتى طرح من فيه فى يومين وليلتين من الدم أربعة عشر رطلا ، وشاهدنا بعض ذلك . وركب يوم الفطر إلى المصلى تكينك وأبو بكر النقيب ، وانقطع الدم عن الراضى وصلح قليلا . وأخرج ابن مقلة ليلة الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة خلت من شوال ميتا من دار السلطان فدفن عند باب الفيل فسأل أهله فيه فنبش ليلة الجمعة للنصف من شوال وسلم إلى أهله فدفنوه فى مقابرهم .

وكان الراضى يقول لنا بالموصل أيام ظهور ابن رايق ببغداد : لو كان ذلك الفاعل حياً الساعة لأجلس خليفة ، ولأخذ أموال التجار ، فالحمد لله الذى حدث هذا وليس هو فى الدنيا ـ يردد هذا مرات لئلا نعلم أنه حى فى يده ، وكذا كان يقول فى أمر القاهر ، وحدثنا كيف عذب وكيف مات ـ حتى وجد حيا بعد وفاته ، وكثرت الرفايع الى بجكم من ظلم أصحابه للناس ، فجلس للمظالم يوم الخميس لتسع بقين من شوال وبين يديه ابن شيرزاد فحمد فى جميع ما أمر به ونهى عنه .

وورد الخبر بهزيمة ابن طغج لابن رايق حتى صار الى دمشق . ومات أبو عبد الله المطيعى يوم الأربعاء لأربع بقين من شوال ، ومولده سنة ثلاث وثلاثين ، وكان مسندا ثقة . ومات أبو العباس الخصيبى لليلة بقيت من شوال فجأة بلا علة . وجلس بجكم للمظالم لليلتين بقيتا من شوال ، ونظر فى ثلاثين رقعة ، فجرى أمره فيها على سداد . ورجع رسول القرمطى بهدايا لبجكم ، فيها فرسان لم ير مثلهما ، ووفاه بجكم ما

فى ماله ، وأهدى له هدايا . وخرج الحاج فلحقهم عطش ، ثم أغاثهم الله بمطر عاشوا به . واستبطأ السلطان ابن البريدى فى حمل المال وعزم بجكم على الانحدار ، فقالوا كيف تقاتل من له اسم الوزارة ! واستحضر سليمان بن الحسن للوزارة ، وخلع عليه يوم السبت لثمان بقين من ذى القعدة ، ومر فى الشارع وهنأه النـاس . وخرج بجكم يريد واسط ، فوجه بأربعة فيهم رفيق يالبا فطرحوا للسباع فى الـــبركـة التى بناها بالنجمى وقبض على ابن عبدوس بسبب غلام له يقال له بديع ، كان فى جملة البريدى ، وعـلى أبى الحسن بن سهل لمصاهرته لهم . وكاتب ابن شيرزاد الـبريدى بالخروج عن واسط ، وأشار عليه ألا يحارب ففعل ، ودخلها بجكم فخلع على ابن شيرزاد خلعة حسنة ، وقلده سيفين وسر أهل واسط ببجكم . وحـــدر حرمه اليه . ومات أبو بكر بن الأنبارى يوم الاضحى ودفن فى داره . ودخل الترجمان ولؤلؤ غلام المتهشم من طريق الجبل ، الى بغـداد يوم الأربعاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة . وظهر أبو عبد الله الـكوفى . وانحدر الى واسط لسبع ليال . بقين من ذى الحجة ووافى واسط من المستأمنة من عسكر البريدى ابن صفراء فقلد يسكن وقطربل ، ووافى حجرية ، فأنفذوا إلى بغداد وقتل بجكم ابن الشابشتى الـكاتب ، وجد معه كتاب إلى أبى طاهر القاضى فانحدر أبو طاهر ، وحلف أنه لايعرف للكتاب سببا وتكلم فيه فنجا ، وهو أهل ذلك لعلمه وفضله .

واستوحش أبو عبـد الله بن أبى موسى الهاشمى من القـاضى أبى

نصر ، وأشهد على نفسه ثلاثين عدلا أنه لايشهدعنده أبدا . وكان انحرافه عنه أنه اتهمه بميل إلى أخيه أبى محمد ، وأنه يسعى له فى ولاية بغداد . وأخذ ابن أبى موسى خطوط العدول بتقريظه وتعديله ، ولعهدى بأبى عبد الله بن أبى موسى وهو مجتهد ليله ونهاره ، فى أمر أبى نصر حتى تم له ما أراد . ما أعرته شهادة بذلك ، ولكنى عرفته مشاهدة ثم إن أبا نصر أحضر العدول فأخذ خطوطهم بأن ابن أبى موسى غير موضع للشهادة وأسقطه .

وقبض على محمد بن القاسم بن سيما ، بسبب أن ابن أخته مع البريديين فتكلم فيه وقيل : والله ما ابن أخته بقائد ولا محارب ولا كاتب ، وإنما هو كالمضحك ومثل هذا لايؤخذ أحد به ، فخلى . وانحدر أبو محمد بن عمر بن محمد الى واسط

واستحضر بجكم يحيى بن سعيد السوسى فأنفذه إلى السلطان يسأله إسعافه بمائتى ألف دينار فوصل ومعه جماعة من الكتاب فأمرهم الراضى أن يعملوا له عملا من ضياعه المستخلصة بواسط ونواحيها بهذا المقدار ليأخذ ما فيها من غلة ، فكان الأمر قريبا فأطلق الراضى ذلك له .

سنة تسع وعشرين وثلاثمائة

دخل أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد بغداد يوم الأحد لست خلون من المحرم مقبلا من واسط واستكتب أبا عبد الله الكوفى

واستخلفه ، ووافى قوم من الموسم فأخبروا بتمام الحج وسلامة الناس .

وخلع على أبى محمد بن ابن الحسن القاضى، لقضاء المدينة لعشر خلون من المحرم ، وكان ابن أبى موسى السبب فى ذلك وغرم من ماله أربعة آلاف دينار او نحوها ، وهذا والله يدل على علو همته . وانحدر ابن شيرزاد الى واسط ، وكان جاء ليشير بانحدار السلطان فوعد بذلك.

ومات زيرك الخصى غلام القاهر فدفن فى دار اشتريت له بالرصافة يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم ، وكان أحسن الناس خدمة للراضي ، وكان له موقع عظيم منه ، وأقطعه أقطاعا منه البستان المعروف بالشقيعى وأعطاه من المال والطيب والجوهر بمقدار موضعه منه ، فاغتم عليه غما عظيما . فصاعد الخليفة إلى باب الشماسية ، فسكن دارا اشتراها ابن سنكلا من ورثة اصطفى وركب فطاف كالمتفرج من الغم الذى ناله ، وكان يقول : مات فى مائة يوم قاضىّ وصاحب رأيى وخادمى الكافى خدمتى ، وأمر فصب فى دجلة أربعمائة دن للشراب العتيق الذى بقى من أيام المعتضد والمكتفى وكان لا يشرب إلا منه فحرص أبو الحسن بن أبى عمرو الشرابى على ألا يفعل ذلك - وكان مكينا عنده قريبا من قلبه ، لطيف المحل يحضر فى كل وقت، كنا أو لم نكن وربما شاوره وخلا به ، وإنه لموضع لذلك عندى - فما قبل ذلك منه ، وندم بعد ذلك على صبها ، وما كان والله الراضى ممن يذهب عليه هذا ولكن اضطرب رأيه ، وكثر ضجره ، لفساد مزاجه ، وكثرة علله ،

فكان سنان بن ثابت - وكان قد لزمه ، حتى جالسه معنا ، وا كل وشرب بين يديه فى آخر أيامه - يقول لى إذا رأى أخلاقه متغيرة ، ما أحسن قول جالينوس : مزاج الروح ، تابع لمزاج البدن ، وأنا افرد لهذا بابا إن شاء الله .

وقدم بجكم أبا بكر النقيب الى الراضى ليخبره بما عزم عليه ، ويعفيه من الخروج إليه ، فقدم فدخل إلى الراضى ليلة الاثنين ، وانحدر الراضى يوم الاثنين لتسع بقين من المحرم الى داره

وجمع بجكم الكتاب ليعملوا اعمالا للأموال فى النواحى ،وكانت حيلة منه فلما اجتمعوا قبض على ابن شيرزاد وعياله ، وقبض النقيب يوم الاثنين بحيلة على طازاد وأبى الحسن أخى أبى جعفر واسبابهما وعلى على بن هارون الجهبذ اليهودى ، وكان القبض بواسط وبغداد فى وقت واحد

ودخل الكوفى بغداد غرة صفر للنظر فى الأموال ، وهو كاتب بجكم وصودر ابن شيرزاد عن نفسه وكتابه وعماله على مائة ألف وخمسين ألف دينار فتسلم ابن سنكلا طازاد وضمن ما عليه وهو خمسة آلاف دينار . وصودر ابن المشرف وابن أخيه ثابت على نيف وعشرين ألف دينار وعلى ابن سنكلا وعلى بن يعقوب بطازاد بالبصرانية وعرض هذا على بجكم فكرهه واثقله ، وزاد على ابن شيرزاد مائة ألف دينار

وقبض على أبى بكر الصيرفى صاحب الجيش، وعلى أبى أيوب السمسار

وأخذ منهما عشرة آلاف دينار ، ولم يؤخذ لابن الصيرفى مال وشهد الناس بثقته فأطلق،وقبض على جعفربن ورقاء لأيام خلت من صفر فلم يترك له عين ولا ورق ولا دابة ولا مركب ولا فرش ولا آلة إلا بيــــع فى مصادرته ، على أنه يعول مائتى نفس وله معروف وكرم . وأنكر الترجمان على ابن خشيش المحتسب حيلة على جارية فى دار ابن بنان الخلال حتى أخذ حليا وثيابا، وذاك أنه دس من استعارمنهم بيتا وجعل فيه آلات لضرب الدراهم المعمولة ، ثم كبسه فضربه وأطافه على جمل من الجانبين ، وكانت قصته فيما فعل قبيحة جدا .

وكتب الكوفى على ابن شيرزاد صكاكا بأملاكه لبجكم ، فتسلم ماكان بالقرب منها . وأخذ من على بن هارون اليهودى بعد عذاب عظيم مائة ألف وعشرة آلاف دينار ، ثم قتله بجكم بعد ذلك بمديدة ، واجتمع للكوفى مال فأنفذه الى واسط مع الترجمان من المصادرة وغيرها ، قيل إنه أربعمائة ألف دينار . وجاءت بنو تميم لكبس الأنبار ، فرجع الترجمان إليهم من واسط ففارقهم على أن يشتبهم لمحاربة البريدى . وقلد لؤلؤ طريق خراسان مكان ابن ورقاء وخلع عليه لثلاث خلون من شهر ربيع الأول، وطالب الكوفى الحسن ابن عبد العزيز بنحو مائتى كر بلغه أنه نقلها قبل موافقة العامل وباعها ، فقاطعه عنها على خمسة آلاف دينار وعزله عن الصلاة وولى مكانه أحمد ابن الفضل بن عبد الملك ، وكان حقد عليه أنه أسمعه فى أيام ابن رايق وقال له أنت ابن ذكرويه

انقضت الحوادث إلى غرة ربيع الآخرة سنة تسع وعشرين وثلاثمائة .

وفيه توفى الراضى بالله وأنا أذكر وفاته بعد إتمامى وأذكر مختار شعره . كان الراضى فى آخر أيامه قد تغيرت أخلاقه وأفعاله التى ما كان أحد على مثلها فى فضله وعقله وكرمه وأدبه ، وما اتهم فى ذلك إلا ما قاله لى سنان من علته ، وكان قد تغير لجميع الجلساء حتى ساوى بنا من لم يكن يساوينا عنده ، وزاد الأمر حتى فضلهم علينا . وخص عبثه باسحاق بن المعتمد وبى إلا أن إسحاق لثقل سمعه كان لا يسمع أكثر ما يمر ، وكنت أنا أسمع ويكثر الخطاب لى وكنت أحتمل ضرورة ، ولما أوجبه الله على وربما أطلعت حجة تغيظه إذا زاد الأمر على فيغضى عنها لكرمه لولا أنه كان أحسن الناس وفاء وأتمهم حلما وكرما ، لظننت أنه سيمنعنى من الوصول اليه ، وكان يمدحنى إذا غبت ولا يفعل ذلك اذا حضرت ولقد حدثنى بعض الخدم أن أحمد بن يحيى المنجم ثلبنى يوما عنده فقال له أمسك عن هذا ولا تنظر الى ما أفعله فانى أريد بما أجرى إليه إصلاحه لى كما أريد ، فقال له فلو قومه سيدى بحجبته عنه أياما . فقال قد هممت بذلك فخفت أن ينسبنى الناس الى قلة وفاء لقدر خدمته لى ، ولأنه حبب الى الأدب وسنى لى قول الشعر وعرفنى نقده وتعب معى فيه . ومع ذلك فيقال إذا حجب مثل الصولى فماله رغبة فى الأدب ، حدثنى بذلك بعض الخدم قال فما سمعناه يعيد ذكرك عنده . وكان يقول لى أبو الحسن بن أبى عمرو الشرابى لا يغمنك ما يجرى فلا والله ماهو عن كراهة ولا بغض ، ولكنه من عبث الملوك بمن يحبون من عبيدهم

وخدمهم ، وكان أبو الحسن البريدى يقول لى مثل هذا ويقول لى العروضى ، وما بان لى أن أحدا كان آثر عنده منه . وكان اذا أراد عرض كتاب يسره أو غير ذلك أدخلنا جميعا حتى يفرغ مما يريد ثم يدخل الباقين ، على أنه ما سلم أحد منهم فى عبثه ، غير أنى كنت مخصوصا بذلك فى حضورى ، ولقد ذكر يوماً بعض مشايخ أهل البيت من ولد الحسن عليه السلام فشتمه فنظر بعض أصحابنا إلى بعض ثم ضحكوا وقمنا ، فرجعت فقلت ياسيدى يمسى ما لا يمس أحد مثله ، وهؤلاء إن ضحكوا بين يديك فإنهم يضمرون ويحكون ، ويحفظون الذى ذكره سيدنا أمه فلانة بنت فلان ، وأبوه فلان بن فلان . فقال استغفر الله وقد أحسنت .

وكان أول تغيره أنه كان يعيب غناء ابن طرخان ويحكيه ويذمه ويحلف أنه لا يحسن شيئاً وأن ذودة الزطى الطنبورى أحسن غناء منه ويدخل ذودة بحضرتنا وغير حضرتنا ويصله ، فلم يزل به إلى أن أحضر ابن طرخان وغلب عليه واستحسن غناءه ، حتى صار يجالسه بين ايدينا ويصله بصلات ويخصه بها ويلقى على ستارته الأصوات التى يستحسنها ثم زاد الأمر حتى وصل الجلساء ليلة الفطر ولم يصلنى ولا وصل اسحاق فأما اسحاق فألقى نفسه على راغب وبكى ، حتى أمر له بنصف ما أمر لكل واحد ممن وصله ، وأما أنا فأمسكت ، وشرب بعد ذلك فوهب لجميعهم معرقة معرقة إلا لى وللبريديين ، وكان يجفوهما كثيراً . ووهب لهم قدحا قدحا من البلور ولم يهب لى مثلهم . ووعدنى ان

أنسخ له أشياء ويصلى لها كعادته ، وكان لا يعجبه أن لا ينظر فى شىء إلا بخطى فلما تغيبت وفرغت منه لم يعطنى شيئا ، فعملت شعرا ودخلت فى صبيحة الليلة التى أمر لهم فيها بما أمر مع الغداة فأنشدته :

قُلْ للخليفةِ تربِ العلمِ والأدبِ   وأفضلِ النَّاسِ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ
ومَنْ أجلَّ إلهُ النَّاسِ رُتبتَه   حتَّى علا وهوى الأملاكُ فى صَبَبِ
قد كان لى موعدٌ فى النَّسخِ لم أرَه   وفاتنى القَدَحُ المحفوفُ بالطَّرَبِ
وحازَ صَحبى دونى طيبَ معرفةٍ   لباسُها أفخرُ الأنسابِ والحسبِ
وليلةُ الفطرِ أبقتْ لى حزازتَها   ناراً ترامى على الأحشاءِ باللَّهَبِ
فجازنى بِرُّ مولًى كان يَدْأَنِى   كأنَّنى ناقصٌ فى رُتبةِ الأدبِ
ألمَّ بى طيفُ حِرمانٍ فأرَّقنى   فبِتُّ معتنقاً للهمِّ والكُرَبِ
هذا على خدمةٍ ما ذُمَّ سالفُها   ودولةٍ لى فيها أوكدُ السَّبَبِ
وأنَّنا نُقباءُ شاعَ نصرُهُمُ   نلقى أعاديكُم فى الحَرْبِ بالحَرَبِ
ويومَ مروانَ أُفردْنا بمَشهدِه   والفخرُ فيه بنصرِ السَّادةِ النُّجُبِ
مقالةٌ توردُ الأخبارُ صحَّتَها   موجودةٌ فى رواياتٍ وفى كُتُبِ
إنْ كانَ ذلكَ مزحاً من إمامِ هُدًى   فحبَّذا هو من مزحٍ ومن لَعِبِ

وسوف يأتى سريعاً منه لى عوضٌ ... كما أتاهم بلا كدٍّ ولا تعبِ
فالعيش إن كان هذا عن خبى رضا ... والموت إن كان كلُّ الموت عن غضبِ
رأيت وجه الرضا أعلى لطالبه ... من الصِّلات إذا توبعن والرُّتبِ
لا تجعلنى نهباً للهموم فقد ... تردد الظنُّ بين الرغب والرَّهبِ
أقول قول امرىءٍ صحَّت قريحته ... ما زال فى الدهر ذا كدحٍ وذا دأبِ
سبحان من جعل الآداب فى عُصَب ... حظًّا وصيَّرها غيظاً على عُصَبِ
ومثل شكوى حكيم عضَّه زمنٌ ... كما اشتكى غاربٌ من عضة القتبِ
أفضل عنانك لا تجمح به طلباً ... فلا وعيشك ما الأرزاق بالطَّلبِ
قد يرزق المرء لم تتعب رواحله ... ويحرم الرزق من لم يؤت من تعبِ
ما أصعب الفقد للعادات من ملكٍ ... تقديمه فى العطايا أشرف الرُّتبِ
لو كنت أملك صبراً عن محاسنه ... ونشرها فى الورى أمعنت فى الهربِ
ما لى إذا لم أفز منه بمنزلةٍ ... وعوده بالرضا فى العيش من أربِ
إنى لآمل منه حسن عطفته ... فالحظُّ مقتسمٌ والدهر ذو عُقبِ
حتى يبيض وجهى مذهباً حزنى ... بالبذل للفضة البيضاء والذهبِ
كعادة الدهر فى تقديمه أبداً ... رضعت منه بدرِّ طيِّب الحلبِ

فَقَدْ سَبَقْتُ بِمَدْحٍ فِيهِ فُزْتُ بِهِ ... صِدْقٍ إِذَا مُدِحَ الأَمْلَاكُ بِالْكَذِبِ
فَاسْمَعْ لِمَدْحٍ يَلَذُّ السَّمْعَ مُنْشِدُهُ ... لَا تَجْعَلِ الرَّأْسَ فِى الأَشْعَارِ كَالذَّنَبِ
مُشَبَّهٌ لَفْظُهُ فِى حُسْنِ مَذْهَبِهِ ... بِلَفْظِ شِعْرٍ بِنَارِ الْحُسْنِ مُلْتَهِبِ
يَامَنْ يُحَمِّلُ ذَنْبَ الرَّاحِ شَارِبَهَا ... أَقْبِلْ بِوَجْهِ الرِّضَا فِى سَاعَةِ الْغَضَبِ
لَا وَالَّذِى أَنْتَ مِنْهُ نِعْمَةٌ مَلَأَتْ ... عُرْضَ الْبِلَادِ وَحَلَّتْ حُبْوَةَ النُّوَبِ
مَا فِى عَبِيدِكَ إِنْ فَتَّشْتَ أَمْرَهُمُ ... أَقَلُّ مِنِّىَ فِى رِزْقٍ وَفِى نَشَبِ

يامن يحمل ذنب الراح ، هو بيت له من أبيات كانت تعجبه ، فضمنت أنا هذا البيت ومدحته على وزن الأبيات وقافيتها .

ومن ذلك ما ظهر منه فى آخر أيامه عند موت زيرك القاهرى ، ثم عرف حالة ما خلف ، فقال ارفعوه إلى فلان يتصدق به ، فلما رأى فلان ذلك هاله واستعظمه ، فوجه إليه ما أحسن أن أمس شيئا من هذا دون أن تراه ، فوجه إليه أنا أعلم به منك فبعه وتصدق بثمنه . فوجه إليه : هذا ليس لمثله مشتر إلا أمير المؤمنين أو الملوك من عبيده ، فقال بعه وتصدق بثمنه عنه ولا تراجعنى . فقال لى بعض الجلساء ـ وقد حدثنا الخدم بهذا ـ أتراه يأمل اجتماعامعه فى الآخرة حتى يخدمه! فقلت له حسبك من الكلام فى هذا ؛ فقال والله ما تكلمت حتى أبلغ منى وزعم الخدم أنه خلف عيناوورقا وطيباوجواهروبلورا وثيابا ودواب وسروجاومناطق بقيمةمائة وخمسين ألف دينار فما أخذ منه إلا العين والورق وكانا أقله .

أشعار الراضى بالله

التى قرر النسخة عليها فى آخر عمره فى كل فن

كان رضى الله عنه جمع شعره وأملاه على، فكتبته بحضرة الجلساء فى يوم وليلة، لا أقوم عنه إلا إلى صلاة فوصلنى على ذلك. ونسخ الجلساء هذه النسخة وهى عندهم

فنظرت فيها فإذا فيها أشياء. فقلت له من حيث لا يسمعنى أحد: ياسيدى هذا شعر يبقى على الأبد، وقد بقيت فيه حروف تحتاج إلى أن نغيرها فقد غير ابن المعتز شعره مرات، وإن أمرتنى نسخته نسخة أخرى وعرضته على سيدنا ويأمر بأمره. فقال افعل وأنا أصلك للنسخ وغيره فعملت نسخة كتبتها وعرضتها عليه، وكان هذا فى آخر أيامه، فسر بها وقال تأخذ نسخ أصحابنا منهم وتقرر النسخة على هذا، فطالبته بالصلة للنسخ الثانى فوعدنى به، ولم يعطينيه. فهو قولى له فى أبياتى البائية:

قد كان لى موعد فى النسخ لم أره ... وفاتنى القدح المحفوف بالطرب

فمن شعره على قافية الباء

لَوْ أَنَّ ذَا حَسَبٍ نَالَ السَّمَاءَ بِهِ ... نِلْتُ السَّمَاءَ بِلَا كَدٍّ وَلَا تَعَبِ
مِنَّا النَّبِيُّ رَسُولُ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... شِبْهٌ يُقَاسُ بِهِ فِى الْعُجْمِ وَالْعَرَبِ
فَإِنْ صَدَقْتُمْ فَأَعْلَى الْخَلْقِ نَحْنُ وَإِنْ ... مِلْتُمْ عَنِ الصِّدْقِ أَعْنَقْتُمْ إِلَى الْكَذِبِ

وقال فى الغزل

ضَحِكَ الزَّمَانُ إِلَىَّ عَنْ إِعْتَابِ ... وَأَعَارَنِى سَمْعاً لِبَثِّ عِتَابِ

رَمَدٌ بعيني صَرَفَه عن لَحْظَتي   إذْ كانَ لي في شِرَّتي وشَبابي
سابِقْ بلَذَّتِكَ الشَّبابَ فإنَّني   أصبحتُ فيه مُجرِّراً أثوابي
وعلِمتُ أنَّ الدهرَ حربُ شبيبتي   فخَلَسْتُ في غَفَلاتِه آرابي

وقال

ألَذُّ وأشفى لنا من طَرَبْ   وأطْيَبُ من رَشْفِ ماءِ العِنَبْ
تبذُّلُ ساقٍ أدارَ العُقارَ   يكفيكَ بالبَذْلِ ذُلَّ الطَّلَبْ
أدارَ لنا ذاتَ ياقوتةٍ   وألبسَها خِلَعاً من ذَهَبْ
وعدَّلَ سائرَ سَوْراتِها   وذرَّ عليها جُيوبَ الحَبَبْ
ومُعتدلِ الحُسْنِ لكنَّه   يُخطِّى الذُّنوبَ وحُبَّ الرِّيَبْ
تألَّفَ من خُدَعٍ كُلُّه   بسحرِ اللِّسانِ وظَرْفِ الأدَبْ
لَهَوْنا بها ونَعِمْنا بِهِ   فكانا جميعاً عِنانَ الطَّرَبْ
فلمَّا ترنَّحَ من سُكْرِهِ   وجرَّعْتُه فضلَ ما قد شَرِبْ
تنشَّرتُ من نَشْرِهِ مِسْكَةً   وناجيتُ فَتْكي بسِرِّ عَجَبْ
وكَمْ من ليالٍ لنا أسعفتْ   مَطالِبَنا بسُرورِ الغَلَبْ

وقال

يَلُومُني في لِحاظِ الطَّرْفِ غيرُكُمُ   والذَّنبُ ذَنْبُكَ إذْ أغريتَ سَقيكَ بي

يامن يحمل ذنب الراح شاربها ... أقبل بوجه الرضا فى ساعة الغضب

وقال فى قصيدة أولها

أأن قال لى صحبى تسلّ بغيرها ... سلوت وهل عنها أصادف مذهبا

فقال فيها

وليل أضاع الخلو عرفان طوله ... ترى النجم فيه لا يروم تغيبا
وعقربه فى الغرب تهوى كأنها ... تشكّل فى حق التشابه عقربا
قطعت مداه بالأمانى أكرّها ... اذا قلت ولّى الهم عاد فأنصبا
وأزرق خفّاق تلوح كأنمـــا ... تجلّد درعا أو بسلخ تجببا
نأت عنه أذيال السحائب فاختلى ... وسرّب للترب القذى فتسرّبا
ويلمحه لمح الرياح بطيبه ... فيرعد منه الجسم لمحا محببا
وإنى لذو صبر على رغم حاسدى ... أفلّق هام النائبات تعقّبا
وأغضى على بعض الأذى فتثيرنى ... عواصف ذنب الحلم شرقا ومغربا
وكم من عدو قد رعت لهواته ... منابت عرضى فاستجاب مكذّبا
وثبت اليه ذا اعتزام وسطوتى ... على الظلم لا يزداد الا توثبـا
وأوطأته ذلّا يباقيه وسمه ... وأنشب كيدى فيه نابا ومخلبا

وَإِنّى امْرُؤٌ تَصْفُو مَوارِدُ رَأْفَتى　　وَتَحْرُبُ سَطْواتى الْعَدُوَّ الْمُحَرَّبا

إِذا عُدَّتِ الْأَبْياتُ أَبْصَرْتَ بَيْتَنا　　كَأَنَّ الثُّرَيّا بِالْبَنِيِّ مُطَنَّبا

رُوَيْدَكَ إِنَّ النّارَ تَظْهَرُ تارَةً　　وَيَكْمُنُ فى الْأَحْجارِ مِنْها تَغَيُّبا

وقال يهجو ابن رايق وأحسن

أَيَطْلُبُ كَيْدى مَنْ يَهُونُ كِيادُهُ　　فَيُوقِدُ نارًا مِثْلَ نارِ الْحُباحِبِ

لَقَدْ رامَ صَعْبًا لَمْ يَرُمْهُ شَبِيهُهُ　　وَراضَ شَمُوسًا لا يَذِلُّ لِراكِبِ

صَغُرْتَ عَنِ الْأَمْرِ الَّذى رُمْتَ فِعْلَهُ　　فَطالَعْتَنى بِالضِّغْنِ مِنْ كُلِّ جانِبِ

وَأَظْهَرْتَ لى حُبًّا يَطِيفُ بِهِ قِلًى　　كَخائِبِ بَرْقٍ فى عِراضِ سَحائِبِ

أَتَعْقِدُ لى كَيْدَ النِّساءِ بِمَرْصَدٍ　　وَإِنّي فَتِيُّ السِّنِّ شَيْخُ التَّجارِبِ

أَلا رُبَّما عَزَّتْ عَلَى الْحازِمِ الَّذى　　تَراها بِكَفَّيْهِ فَرِيسَةَ طالِبِ

تُكَشِّفُ لى الْأَيّامُ مِنْكَ مَعايِبًا　　وَقَدْ جُرِّيَتْ لا شَكَّ أَخْزَى الْمَعايِبِ

فَأَصْبَحْتَ مَقْهُورًا وَعادَتْكَ نَكْبَةٌ　　تَشَكّى إِلَيْكَ الشَّوْقَ شَكْوَى الْحَبايِبِ

وَكُنْتُ إِذا عاثَ تَعَبَّثَ جَهْلُهُ　　عَبَثْتُ لَهُ بِالْمُرْهَفاتِ الْقَواضِبِ

وَكَمْ مِنْ جَلِيدٍ رامَ مارُمْتَ فاتَنى　　وَقَدْ لَسَبَتْهُ مُتْلِفاتُ الْعَقارِبِ

وقال يفخر

سَقَى اللّهُ أَطْلالًا رَعَيْتُ بِها الصِّبا　　سَحابَةَ غَيْثٍ لا يَكُفُّ سُكُوبُها

زمانَ مغانى اللهوِ مأنوسةُ الحمى   وحوزُ الغوانى غصنها وكثيبها
وعودُ الصبا لم يذوِ غضُّ نباته   وشرخُ الشباب إلفها وقرينها
يقولون كفَّ النفسَ عن ظبياتها   وقد مردت عشقاً وحارت ذنوبها
ظعنتَ وقد خلفتنى نهبةَ الأسى   لعلةِ وجدٍ لا يصابُ طبيبها
لتهنكَ لوعاتٌ تردَّدُ فى الحشا   وعصيانُ عينٍ ما تطيعُ غروبها
وتضييعُ رأىٍ فى اصطناعِ معاشرٍ   يسودُ وجهَ الاصطناعِ عيوبها
أنا ابنُ الألى من هاشمٍ زنتُ هاشماً   كما زانها العباسُ قبلى نسيبها
سلى تخبرى من كان طفلاً ويافعاً   فعزت به الدنيا وذلَّ خطوبها
ألم أطلِ الآمالَ علماً وسؤدداً   وتفخرُ بى شبانُ فهرٍ وشيبها
لأنى إن ضلَّ الغريمُ غريمها   وإن فحمَ الخطابُ منها خطيبها
وسيفى على أعدائها سيفُ نقمةٍ   جرىءٌ على الأعمارِ فيما ينوبها

وقـــال

يومٌ أتى بديمـــةٍ هطالةٍ   تبرزُ من نبتِ الرياضِ ما احتجب
وقد كست يدُ الندى وجهَ الثرى   ثيابَ زهرٍ من لجينٍ وذهب
ونهرٌ شقَّ الرياضَ جريُه   منفجرٌ يحكى لنا شقَّ الطرب

تَراهُ يُنْسابُ كأفعى كارِمًا   خَرْفَ طَلُوبٍ مُدْرِكٍ لِمَا طَلَبْ
وَزادَنِي فِي طَرَبِي مُنْعِمٌ   دَانِي الرِّضَا مِنِّي نَاءٍ بِالْغَضَبْ
يُدِيرُ رَاحًا لَمَعَتْ فِي كَأْسِهِ   وَأَلْبَسَتْ فِي مَزْجِهِ تَاجَ ذَهَبْ
كُلُّ سُرُورٍ فِيهِ مِنْ تَمَامِهِ   وَكُلُّ حُسْنٍ فَإِلَيْهِ يَنْتَسِبْ
يَرْكُضُ سَعْيٍ إِنْ قَصَدْتُ فَتْكَةً   وَإِنْ قَصَدْتُ النُّسْكَ فَالسَّيْرُ خَبَبْ

وقال

تَأَوَّبَنِي طَارِقُ الْهَمِّ نَصْبًا   وَأَبْدَلَ سِلْمِي لِلدَّهْرِ حَرْبَا

فقال فيها

وَنَارٍ عَلَى شَرَفٍ أُوقِدَتْ   فَشَاهَدْتُ مُوقِدَهَا حِينَ شَبَّا
فَلِلَّهِ مَا خَبَّأَ الدَّهْرُ لِي   أَفِي كُلِّ قُطْرٍ عَدُوٌّ مُخَبَّا
وَثَوْبَ ظَلَامٍ تَدَرَّعْتُهُ   أَهَبُّ لَهُ يَقِظًا حِينَ هَبَّا
فَأَنْبَتُّ مَرْعَى عَلَى دِمْنَةٍ   أُرَاقِبُ مِنْ عَطْفَةِ الدَّهْرِ وَثْبَا
وَقَالُوا حَلِيمٌ وَلَمْ أَسْتَطِعْ   لِرَايَةِ سَطْوٍ عَلَى الذَّنْبِ نَصْبَا
أَأَشْهَرُ سَيْفِي عَلَى نَائِجٍ   وَأَفْرِسُ لِلثَّأْرِ قِرْدًا وَكَلْبَا
إِذًا لَا ارْتَوَى مِنْ دَمٍ خَدُّهُ   وَلَا سَارَ بِالْعَدْلِ شَرْقًا وَغَرْبَا

وَكَمْ قَدْ وَطِئْتُ عَلَى فِتْنَةٍ   وَثُرْتُ بِأُخْرَى فَقَضَيْتُ نَحْبَا
أَخَالُ إِذَا دَهَمَتْنِى الْخُطُـــوبُ وَفِى كُلِّ عُضْوٍ بِجِسْمِى قَلْبَا
وَمِنْ حَادِثٍ دُسْتُ أَمْثَالَهُ   وَأَتْبَعْتُ نَكْبَ مَعَانِيهِ نَكْبَا
أَرَى مُسْتَكِيناً لِأَقْرَانِهِ   إِذَا لَا أَسَغْتُ مِنَ الْمَاءِ عَذْبَا

وقال يعذر نفسه فى خروجه إلى الموصل

أَمُغْنِيَةٌ مَعَ الظُّلْمِ الْخُطُوبُ   فَيُغْفَرَ مَا جَنَتْهُ مِنَ الذُّنُوبِ
عَجِبْتُ لِصَرْفِ دَهْرٍ صَافِيَاتٍ   مَكَارِهُهُ وَعَيْشٍ لِى مَشُوبِ
كَأَنَّ الدَّهْرَ يَطْلُبُنِى بِذَحْلٍ   فَحَظِّى مِنْهُ إِضْرَاءُ الْخُطُوبِ
وَهَوَّنَ بَعْضَ مَا أَلْقَاهُ أَنِّى   نَقِىُّ الْجَيْبِ مِنْ دَنَسِ الْعُيُوبِ
إِذَا لَمْ أُوتَ مِنْ رَأْىٍ مُصِيبٍ   فَمَا عِلْمِى بِإِضْمَارِ الْغُيُوبِ
وَكَمْ رَيْبٍ لِصَرْفِ الدَّهْرِ هَابٍ   جَلَاهُ النَّصْرُ مِنْ رَبٍّ مَهُوبِ

وقال وزعم أنه قصد بها اتباع على بن محمد العلوى على هذا الوزن

سَقْياً لِلَذَّاتٍ وَطِيبٍ   بَيْنَ الشَّبَابِ الَى الْمَشِيبِ
وَلِنَظْرَةٍ مَهْتُوكَةٍ   تُدْنِى الْبَرِىءَ مِنَ الْمُرِيبِ
مَعْقُولَةٍ بِيَدِ الْهَوَى   مَرْبُوبَةٍ بِيَدِ الرَّبِيبِ

إذ غالَبَتْ كَفِّى الزَّمانَ   وإذْ شربْتُ على الرَّقيبِ
بخُيُولِ لَهْوٍ أرْسلَتْ   سَحًّا بهِ ذَيْلَ الغُيُوبِ
رَكَضَتْ بنا وشعارُها   لا حُكْمَ إلَّا لِلْحَبيبِ
شَوْقٌ يُعَرِّمُ فى الحُضُو   رِ فكَيْفَ يَفْعَلُ فى المَغيبِ

وقـــال

وَقَهْوَةٍ يَتَرامى   شُعاعُها بلَهيبِ
جَعَلْتُها حَظَّ نَفْسِى   عِشْقاً لَها ونَصيبِى
بيَوْمِ سَعْدٍ مُصَفًّى   مِنَ الزَّمانِ المَشُوبِ
فَسَقِّنى تَذْكارًا   لِطاعَةِ المَحْبُوبِ
وَأعْصِ الرَّقيبَ فإِنِّى   أُحِلُّ قَتْلَ الرَّقيبِ
أَبَى شَبابِى إلَّا   عَصَبِيَّةً لِمَشيبِى
ماسَوَّدَ النُّسْكُ مِنِّى   إلَّا بَياضَ ذُنُوبِى

وقال فى طريق الموصل

جَدَّدَ البَيْنُ كُرُوبا   وكَوَى الفَقْـــدُ قُلُوبا
باعَدَ المِقْدارُ بَغْدا   دَ ضِرارًا ونُكُوبا

أَوْجَبَ الْبَيْنَ أُناسٌ عَلَّمُوا قَلْبِي الْوَجِيبَا
لَهَفَ نَفْسِي لِزَمانٍ كانَ لِي غَضًّا رَطِيبَا
رَبِّ خُذْ لِي مِنْ حَسُودٍ حَجَبَ الظَّبْيَ الرَّبِيبَا
فَلِذاكَ النَّوْمُ فِي عَيْنِيَ قَدْ صارَ غَرِيبَـا
فَلِذا أَهْوَى مَعَ الـرُّؤْيَةِ هَجْرًا وَرَقِيبَا
يا حَبِيبِيَّ وَهَـلْ خَلْقٌ يُرَى الْيَوْمَ حَبِيبَا
أَعْفِيانِي عَنْ مَلامٍ بِالَّذِي يَعْفُو الذُّنُوبَا
وَعُقارٌ ذَوْبُ شَمْسٍ جَمَعَتْ حُسْنًا وَطِيبَا
أَضْوَأَ اللَّيْلُ سَناها لَمَعانًـا وَلَهِيبَا
سَلَبَتْ عَقْلِيَ خَتْلًا وَسَرَتْ فِيَّ دَبِيبَا
ضَحِكَتْ بِالْمَزْجِ كُرْهًا وَنَفَى عَنْها الْقُطُوبَا
ذَرَّ مِنْ دُرٍّ عَلَيْها حِينَ صافاها جُيُوبَا
قَدْ سَقانِيها غَزالٌ عالِمٌ مِنِّي عُيُوبَا
حَقَّقَ الرِّيبَةَ لَحْظٌ مِنْهُ خَلَّانِي مُرِيبَا
وَتَرَى الْغُصْنَ لِعِطْفَيْهِ إِذَا اهْتَزَّ نَسِيبَا

كم تحملت حروبا وتخطيت خطوبا
ورأى الأعداء بعدى لمداراتى قريبا
فدعى اللوم فما ربعى لذى اللوم خصيبا

وقال

كل داع سواى غير مجاب وعذاب الهوى أشد عذاب
كم يكون الخلاف والبعد قل لى مع ذلى وطاعتى واقترابى؟
كل يوم يروعنى منك وعد مطمع لمعه كلمع السراب

وقال على قافية التاء

ومن مليح الذنوب إن ذكرت لثمى فاه ورشف ريقته
فى ثوب ليل أبليت جدته وجاد لى سيره بزورته
فصرت بالليل ذا مؤانسة أشكر ما عشت فضل نعمته
وأعطت الراح ما أؤمله قوة حكمى وضعف قدرته
شكرى وقف على المدامة إذ ذللت الصعب لى بسكرته

وقال يعرض بابن رايق

ما بال إحسانى إذا أصحبته خلل الرجال يصير مثل إساءتى

ما إن كففت أذية إلا هوت نحوي بكف تجاوزي وأناتي

فلذاك أصبر صبر عاف عاقل واهتك المذعور في وثباتي

فإذا غفلت عن الكفور فإنما أهدى إليه الحتف من غفلاتي

وقال

العيش راح يعاطيها براحته منعم يقتضي عشقا بلحظته

كأنما لونها من لون وجنته وطعم ريقتها من طعم ريقته

إن أمكن الدهر من عيش بشهوته فانعم بغفلته من قبل فطنته

وقال حين اشتدت علته

ولما رأيت الدهر يخطب خطبة وأيامه تعدو على بنوبات

عصيت زمانا قد تجاسر صرفه واتبعت يوم الهم يوم لذاذات

وأيقنت أني مهجة مستعارة ترد إلى ملك المعير بغصات

فياليتني أمضيت ما كنت عازما عليه ليشفى داء صدري ولوعاتي

وقال على قافية الجيم

وناظر عن دعج محكم في المهج

يدير كأسا فرجت هم الفتى بالفرج

قَدْ أُرْعِدَتْ لِمِزَاجِهَا   وَالْتَهَبَتْ كَالسُّرُجِ
أَدَارَهَا مُنْتَطِقٌ   مُصَوَّرٌ مِنْ غَنَجِ
أَطْلَعَ مِنْ طُرَّتِهِ   أَهِلَّةً مِنْ سَبَجِ
تَكَشَّفَتْ ضَحْكَتُهُ   عَنْ بَرَدٍ مُفَلَّجِ
يَا مَجْلِسًا جَعَلْتُهُ   فِي مُدَّتِي أُنْمُوذَجِي
كَانَ كَلَحْظِ الطَّرْفِ   فِي سُرْعَةِ مَرٍّ وَمَجِي

وقال وقد نالته جفوة من أبيه

على قافية الحاء

هَلَّا رَدَدْتَ عَلَى الْعَدُوِّ الْكَاشِحِ   وَقَبِلْتَ فِيَّ مِنَ الصَّدِيقِ النَّاصِحِ
الْآنَ حِينَ مَلَأْتَ قَلْبِي رَغْبَةً   أَعْقَبْتَهَا ظُلْمًا بِيَأْسٍ قَادِحِ
وَتَكَلَّفَتْ نَفْسِي إِلَيْكَ بِمُنْيَةٍ   أَلْتَذُّهَا مِثْلَ الزُّلَالِ السَّائِحِ
أَبْعَدْتَ ظَنِّي بَعْدَ مَا قَرَّبْتَهُ   وَلَسَوْفَ تَذْكُرُ فِي فَسَادِي صَالِحِي
مَا لِلْإِمَامِ تَنَكَّرَتْ أَخْلَاقُهُ   مِنْ قَوْلِ هَاجٍ فِي مَكَانِ مَدَائِحِي
فِي كُلِّ يَوْمٍ أَرْتَجِي إِنْصَافَ مَنْ   يَجْرِي إِلَى ظُلْمِي بِقَوْلِ الْكَاشِحِ

جَمْرِى إذَا ماشئتَ طافٍ خامدٌ　　وإذا تشاءُ فكالشهابِ اللائحِ
والنارُ قد يَخفَى عليكَ ضياؤُها　　حتّى يُحرِّكَها بنانُ القادحِ

وقال على قافية الدال

بادرْ بلهوك ليلةً بدريّةً　　واقصدْ بما تهوى برغمِ الحُسَّدِ
ومُرِ الغريرَ يُديرُ بِكْرَ سُلافةٍ　　لا تسمعنّ لعاذلٍ ومُفنِّدِ
يهتزُّ فى سُودِ الثيابِ كأنّه　　بدرٌ تجلّى من غمامٍ أسوَدِ
مازلتُ أسحرُهُ بلحظٍ خاتلٍ　　وأسومُهُ الانجازَ قبلَ الموعدِ
حتّى توردَ خدُّهُ بمدامةٍ　　كالمسكِ ذاتِ توقّدٍ وتوردِ
وتبينَ الانعامُ فى ألحاظه　　متقربَ الألفاظِ بعدَ تبعدِ
حتى انثنى فى الأرض يلثمُ خدَّهُ　　شوقاً إلى فردِ الملاحةِ أوحدِ
ياليلةً كانتْ لدهرى غرّةً　　طلعتْ علىَّ نجومُها بالأسعدِ

وقال فى حبس القاهر

فقدتُ الهوى وعدمتُ الودودا　　وأبلى الجديدانِ منّى الجديدا
وقد كنتُ دهراً أطيعُ الهوى　　وأجرى مع اللهوِ شأواً بعيدا
فحرَّمتُ كأسى على لذّتى　　وأزمعتُ كلَّ وصالٍ صدودا

أَبَعْدَ إمامِ الْهُدَى أَبْتَغِي   سُلُوًّا وَأَمْلأُ طَرْفِي هُجُودَا
وَقَدْ قَتَلَتْهُ الْعِدَا غِرَّةً   وَمَا صَادَفَتْ مِنْهُ عَبْدًا عَتِيدَا
كَأَنْ لَمْ يَكُنْ قَطُّ فِي جَحْفَلٍ   يُحِيرُ الرَّدَى وَيَجُدُّ الْجُنُودَا
يَعِزُّ عَلَيْهِ وَأَنِّي بِــهِ   يَرَانِي لِفَضْلِي أَسِيرًا فَرِيدَا
تُبَاشِرُنِي ضَيِّقَاتُ الْحُبُو   سِ وَأُحْسَبُ مِنْ غَيْرِ فَقْدٍ فَقِيدَا
وَكُنْتُ بِهِ مَالِكًا لِلزَّمَانِ   أَسُرُّ الصَّدِيقَ وَأُشْجِي الْحَسُودَا
فَأَفْرَشْتُ خَدِّي لِوَطْءِ الْعِدَا   وَأَفْرَشَ أَهْلِي لِأَجْلِي خُدُودَا
وَعَرَّفَنِي فَقْدُهُ النَّائِبَاتِ   وَذَلَّلَ مِنِّي صَعْبًا جَلِيدَا
فَيَالَيْتَ رَكْبًا إِلَيْنَا نَعَوْهُ   نَعَوْنَا إِلَيْهِ وَنَالَ الْخُلُودَا

وقال

أَفَادَنِي وُدُّكَ بَعْدَ كَدٍّ   دَهْرٌ نَحَانِي صَرْفُهُ بِقَصْدْ
يَطْلُبُ نَفْسِي ثَائِرًا عَنْ عَمْدْ   فَصِرْتُ إِذْ أَصْفَيْتَنِي بِوُدٍّ
عُذْرُ إِسَاءَاتِ الزَّمَانِ عِنْدِي   وَهِيَ كَثِيرَاتٌ تَفُوتُ عَدِّي
قَدْ يَغْلُظُ الْحُتَرُ بِوَقْتِ سَعْدْ   وَيَقْدَحُ الْقُرْبُ بِزَنْدِ الْبُعْدِ
فَاجِي إِلَى الْوَصْلِ ثَقِيلُ الصَّدِّ

وغناه يوما عبد الرحمن بن طرخان بشعر لى وهو :

لَيالى صُدُودِى لَيْسَتْ تَنْقَضِى ... وَعُمْرُ تَجَنِّيكَ مَا يَنْقَضِى
وَمَا تَأْلَفُ النَّفْسُ يَا مُنْيَتِى ... سِوَى مَا تُحِبُّ وَمَا تَرْتَضِى
تَقَاضَيْتِ عَيْنِى بِغُنْجِ اللِّحَا ... ظِ دُمُوعًا فَأَعْطَتْكَ مَا تَقْتَضِى

فأنشدنا من غد ذلك اليوم

نِيرانُ هَجْرِى لَيْسَ تُخْمَدْ ... وَسُيُوفُ عَيْنِكَ لَيْسَ تُغْمَدْ
وَالنَّفْسُ فِيما سَاءَهَا ... طَلَبًا لِمَا يُرْضِيكَ تَجْهَدْ
وَالْجُودُ مِنْكَ مُبَاعَدٌ ... وَالْبُخْلُ دَانٍ لَيْسَ يَبْعُدْ
مَنْ ذَا يَكُونُ مُبَشِّرِى ... بِالْعَطْفِ مِنْكَ عَلَى أَحْمَدْ

وقال

أَتِمُّ وَشَمْسُ الْحُسْنِ حَلَّتْ قِنَاعَهَا ... عَلَيْكَ وَأَنْتَ الْبَدْرُ وَافَقَ أَسْعُدَا
تَصُدِّينَ إِدْلَالًا وَمَا بِكِ قُدْرَةٌ ... عَلَى الصَّدِّ لَوْ أَنِّى مَلَكْتُ تَجَلُّدَا

وقال يذم الموصل ويمدح بغداد

على قافية الراء

أَعْذَرَ لَفْظُ الْمُحِبِّ بِالْعُذْرِ ... وَاخْتَلَطَ السِّرُّ مِنْهُ بِالْجَهْرِ

وبعتُ أرضَ العراق بيعةَ مغـبونٍ فجمّت بلابلُ الصدرِ

وسائلٍ لا يزالُ عن خبرى | إسمع فما بى يجلُّ عن قدرِ

فارقتُ مغنًى مذكّرًا بهوى | يلذع قلبى بعارض الذّكرِ

وجئتُ أرضًا تسوءُ ساكنها | وتبدلُ اليسرَ منه بالعسرِ

يضحى بها ثاكلًا للذّته | مقلّبًا قلبَه على الجمرِ

عرضةُ نتنٍ يحفّها جبلٌ | يقطنُ فيها الهمومُ بالقطرِ

يجيءُ فى غير حينه أبدًا | والسهلُ فيها مشاكلُ الوعرِ

شتاؤها حتفُ من يقرّبها | بثلجها المستدرّ والقرّ

وشمسها فى المصيف محرقةٌ | تقيدُ نيرانها على الصّخرِ

عجزتَ يا محصى العيوب بها | قدكَ أتحصى عجائبَ البحرِ؟

سمّيت الموصلَ المواصلةَ الـحزنَ لمّا جاءها على خبرِ

إن أذن الله فى الرحيل فقد | أعيدُ طىَّ السّرور ذا نشرِ

لأقتضى لذّةً مطلتُ بها | يعودُ ربحى فيها إلى خسرِ

وأجتلى الخمرَ فى غلائلها | حتّى يفرّى غلالةَ الفجرِ

وشادنٍ ملكتهُ خالصتى | إباحةً لا تشانُ بالحظرِ

تَلْمَعُ كَاسَاتُهُ كَبَارِقَةٍ   فِي كَفِّهِ أَوْ كَذَائِبِ التِّبْرِ
فَدَيْتُ مَنْ بَعْثُ فِي مَحَاسِنِهِ   دِينِي بِالْإِثْمِ فِيهِ وَالْوِزْرِ
وَلَيْلَةٍ يُنْتِجُ السُّؤَالُ بِهَا   يَصْغُرُ قَدْرًا عَنْ لَيْلَةِ الْقَدْرِ
سَعِدْتُ فِيهَا بِذِي مُسَاعَدَةٍ   أَقْبِضُ بِالْوَصْلِ مُهْجَةَ الْهَجْرِ
أَغْتَرُّ بِالذَّنْبِ غَيْرَ مُعْتَمِدٍ   مُوهُ صَحْوُ الْمُرَادِ بِالسُّكْرِ
يَالَكِ مِنْ لَيْلَةٍ مُحَسَّدَةٍ   تُعَدُّ فِي الدَّهْرِ غُرَّةَ الدَّهْرِ
أَحْيِ بِدَهْرِ الشَّبَابِ دَوْلَتَهُ   فَمَا لِدَهْرِ الْمَشِيبِ مِنْ عُذْرِ

وقال

قَضِّ بِالْخَمْرَةِ الْوَطَرْ   وَاشْرَبِ الصَّفْوَ لَا الْكَدَرْ
صِدْ بِهَا شَارِدَ السُّرُو   رِ وَمَنْ صَدَّ إِذْ نَفَرْ
لَيْلَتِي لَاعَدِمْتُ مِثْـ   ـلَكِ يَا غَلْطَةَ الْقَدَرْ
حَجَبَ اللهُ مِنْكِ فِطْـ   ـنَةَ دَهْرٍ لَهُ غِيَرْ
قَدْ تَمَرَّغْتُ فِي النَّعِيـ   ـمِ وَأُسْعِدْتُ بِالظَّفَرْ
أَمْرُنَا نَافِذٌ وَلَيْـ   ـلَتُنَا كُلُّهَا سَحَرْ

وقال

أَشْرَبْ غَبُوقًا فَالْغَرْبُ قَدْ نَوَّرْ   وَجَاءَ وَالِي الظَّلَامِ فِي عَسْكَرْ

وَلَّى نَهَارُ ٱلْمَصِيفِ مُشْتَمِلًا   غَضًّا وَجَاءَ ٱلظَّلَامُ يَسْتَبْشِرْ
فَبَادِرِ ٱلْعَيْشَ عِنْدَ فُرْصَتِهِ   انَّ زَمَانَ ٱلسُّرُورِ مُسْتَقْصَرْ
قُولَا لِمَكْتُومَ أَوْلِنِي حَسَنًا   مِنْكَ وَمَا تُولِهِ فَلَنْ يُكْفَرْ
أَيُّ عَذُولٍ يَرَاكَ كَالْغُصْنِ ٱل   نَّاعِمِ تَمْشِي بِالرَّاحِ لَا يَعْذِرْ

وقال

وَمِمَّا شَجَانِي أَنَّهُ حِينَ جَاءَنِي   يَزُفُّ عُقَارًا فِي غِلَالَةِ نُورِ
تَحَاشَ بِاسْمِي كَيْ يُرِينِي مَوَدَّةً   فَخَادَعْتُ نَفْسِي قَائِلًا بِسُرُورِ
وَفَاضَتْ عَلَى خَدَّيْهِ حُمْرَةُ خَجْلَةٍ   وَرَصَّفَ لَفْظًا مِنْ صِنَاعَةِ زُورِ
أَلَمْ تَرَنِي أَرْغَمْتُ بِالْفَتْكِ عَاذِلِي   وَأَسْبَلْتُ مِنْ دُونِ الْحَيَاءِ سُتُورِي
وَعَاقَرْتُ رِيقَ الرِّيمِ مَرْوِيَّ غُلَّةٍ   وَرَقَّقْتُ كَاسَاتِي لِمَاءِ غَدِيرِ
فَيَا لَيْتَ لِي كَانَتْ مِنَ الدَّهْرِ خُلْسَةٌ   أَبُثُّ لَهَا بِالرَّغْمِ كُلَّ غَيُورِ

وقال فى غلام نصرانى.

يَا رُبَّ زَوْرٍ مُنْعِمٍ مَزَارُهُ   يَلْحَفُهُ مِنْ لَيْلِهِ إِزَارُهُ
بَشَّرَنِي بِبَذْلِهِ زُنَّارُهُ   وَحُسْنُ خَدٍّ نَصَعَ احْمِرَارُهُ
يُفِيتُ بِالْحُمْرَةِ جُلَّنَارُهُ   يُطْلِعُ مِنْهَا قَمَرًا أَزْرَارُهُ

عُذِّرَ فِي عارِضِهِ عِذارُهُ   فَأَعْجَلَ المُهْلَةَ لِي بِدارُهُ
جَرْيَ جَوادٍ لَمْ يُخَفْ عِثارُهُ   يُؤْخَذُ مِنْ بُعْدٍ بِقُرْبٍ ثارُهُ
لا كانَ جَرْيٌ لَمْ يُثِرْ غُبارُهُ

وقال

فَدَيْتُكَ ما أُظْهِرُ   قَلِيلاً لِمَا أُضْمِرُ
وَلِي بَدَنٌ ناحِلٌ   عَلَى الهَجْرِ لا يَصْبِرُ
أَحاطَ بِجِسْمِي الهَوَى   فَحَوْلِي لَهُ عَسْكَرُ
لِسانِي لَهُ كاتِمٌ   وَدَمْعِي لَهُ مُظْهِرُ

وقال

طَرِبْتُ إِلَى عُمِّي وَعاوَدَنِي ذِكْرِي   وَقَسَّمَ شَوَّالٌ بِقِدْمَتِهِ فِكْرِي
فَكَمْ فَتْكَةٍ لِي فِي ذُرَى عَرَصاتِها   أَرُوحُ عَلَى سُكْرٍ وَأَغْدُو عَلَى سُكْرِ
طَرَقْتُ بِها الخَمّارَ وَالنَّجْمُ طالِعٌ   طُلُوعَ سِنانٍ قاصِدٍ ثُغْرَةَ النَّحْرِ
فَأَنْكَحَنِي خَمْراً رَضِيتُ نِكاحَها   وَأَغْلَيْتُ بِالسَّوْمِ المُبالِغِ وَالمَهْرِ
وَقُلْتُ لِساقِينا أَدِرْ لِي خَمْرَةً   تُنِيلُ المُنَى وَافْجُرْ بِطَلْعَتِها فَجْرِي
فَقامَ خَلُوبُ الدَّلِّ يَجْلُو سُلافَةً   تُشَبِّهُ فِي كاساتِها ذائِبَ التِّبْرِ

كَأَنَّ أَبَارِيقَ اللُّجَيْنِ إذا انْحَنَتْ   رِقَابُ غَرَانِيقَ تَطَلَّعُ مِنْ وَكْرِ
لَهُ مُقْلَةٌ تَسْبِي الْعُقُولَ وَفِتْنَةٌ   تُسَقِّطُنِي مِنْ حَيْثُ أَدْرِي وَلَا أَدْرِي
عَلِيمٌ بِوَحْيِ الطَّرْفِ حَتَّى كَأَنَّمَا   يُخَاطِبُهُ فِكْرِي بِمَا ضَمَّهُ صَدْرِي
فَحَطَّ عَلَى حُكْمِي رِحَالَ إِجَابَةٍ   وَسَارَ بِمَا أَهْوَاهُ طَوْعًا إِلَى أَمْرِي
فَيَا لَيْلَةً قَدْ أَسْعَفَتْنِي بِطِيبِهَا   وَقَفْتُ عَلَيْهَا الدَّهْرَ أَلْسِنَةَ الشُّكْرِ

وقـــال

دَاوِ الْخُمَارَ بِخَمْرِهِ   وَصِلِ الصَّبُوحَ بِفَجْرِهِ
وَاطْرَبْ لِفِطْرِ زَائِرٍ   أَهْلًا بِهِ وَبِزَوْرِهِ
مَأْسُورُ آبَ فَكَّ أَيْـــلُولٌ   لَنَا عَنْ أَسْرِهِ
يَأْتِي كَمَعْشُوقٍ مَحَا   بِالْوَصْلِ أَسْطُرَ هَجْرِهِ
يَا لَيْلَتِي بِالْقَفْصِ جَا   دَ لَكَ الْعَذُولُ بِعُذْرِهِ
لَمَّا رَأَى رَشَأً يُذِيـــبُ   الْعَقْلَ ذَائِبُ تِبْرِهِ
مُتَمَرِّدًا فِي سُكْرِهِ   مُتَمَايِلًا فِي خَطْرِهِ
كَالْبَدْرِ إِلَّا أَنَّهُ   بَدْرٌ لِسَائِرِ شَهْرِهِ
فَشَرِبْتُ خَمْرَةَ كَأْسِهِ   وَرَشَفْتُ خَمْرَةَ ثَغْرِهِ

وَوَشا إلىَّ بِبَذلِهِ زُنَّارُهُ فى خَصرِهِ

وقال

قَدْ ضاعَ فيكَ صَبْرِى ياراغباً فى الْغَدْرِ
فَلَيسَ فيكَ أَدْرِى مَنْفَعَتِى مِنْ ضُرِّى
فَهَلْ أَراكَ عُمْرِى مُهاجِراً لِهَجْرِى
وَقَهْوَةٍ كَالْجَمْرِ تِبْرٍ وَلٰكِنْ تَجْرِى
أَدارَها فى الْفَجْرِ مُقَرْطَقٌ كَالْبَدْرِ
يَضْحَكُ لِى عَنْ ثَغْرٍ مِثْلِ صِغارِ الدُّرِّ
أَصْبَحَ فيهِ سِرِّى مُخْتَلِطاً بِالْجَهْرِ (١)
مُفْتَتِنـاً بِالْخَمْرِ أَظْلِمُ فيها وَفْرِى

وقال

وَلَعَتْ بِبَيضاءَ شابَتْ أَسوَدَ الشَّعَرِ أَشيبةٌ أَمْ خَيالٌ خالَهُ نَظَرِى
فَقُلْتُ هٰذا اعتداءُ الدَّهرِ عاجَلَنِى لِطُولِ مَطْلِكِ لى فى أَقْصَرِ العُمُرِ
لا تَأْمَنِى فى زَمانِ السُّوءِ غَدْرَتَهُ فَإِنَّهُ مُولَعٌ بِالْغَدْرِ وَالْغِيَرِ

---

(١) بعد هذا شطر رجحه الناسخ وهو (ولا أزال عمرى)

كُونِى وَلا تَتَّقِى مِنْهُ عَلَى حَذَرٍ ... وَمَنْ يَفُوتُ صُرُوفَ الدَّهْرِ بِالْحَذَرِ

فَاسْتَعْبَرَتْ ثُمَّ قالَتْ جَدَّ هَزْلُكَ بِى ... إِذْ تَدَّعِى غَلَبَ الْأَحْزانِ وَالْفِكَرِ

وَلَمْ يَزَلْ حُبُّها صَعْباً عَلَى أَرَبِى ... فِيهِ الْمَنِيَّةُ إِيراداً بِلا صَدَرِ

وَكَيْفَ أَعْطِفُ بِالشَّكْوَى وَرِقَّتِها ... قَلْباً أَشَدَّ لَدَى الشَّكْوَى مِنَ الْحَجَرِ

وقال

أَيا مَنْ خانَ مُخْبِرُهُ ... وَعَزَّ الصَّبَّ مَنْظَرُهُ

وَمَنْ أُخْفِى هَوايَ لَهُ ... وَدَمْعُ الْعَيْنِ يُظْهِرُهُ

أَنِلْنِى مالِكِى وَصْلاً ... حَقِيراً لَسْتُ أَحْقِرُهُ

وَلا يَمْنَعْكَ قِلَّتُهُ ... أَقَلُّ الْوَصْلِ أَكْثَرُهُ

وقال يرثى جارية مغنية ، كان لها موقع من قلبه

على قافية السين

وَقالُوا اصْطَبِرْ فَالصَّبْرُ شَىْءٌ عَدِمْتُهُ ... لِفَقْدِى صَفْوَ الْعَيْشِ مِنْ مُنْيَةِ النَّفْسِ

عَدِمْتُ الْكَرَى لَمَّا عَدِمْتُ بَدائِعاً ... جَعَلْنَ قِرَى نَفْسِى بِحَلْقِكِ وَالْجَسِّ

لَقَدْ كُنْتِ إِنْ غَنَّيْتِ أَغْنَيْتِ لَذَّتِى ... بِصَوْتٍ يُعِيرُ السَّمْعَ رِبْحاً بِلا وَكْسِ

أَرَقَّ مِنَ الشَّكْوَى وَأَحْلَى مِنَ الْمُنَى ... وَأَرْوَحَ مِنْ أَمْنٍ وَأَلْطَفَ مِنْ حِسِّ

لعمري لئن أصبحت سعدى وفيك لي ‏ رجاء لقد أمسيت باليأس لى نحسي
فلو كان يفدى الميت حى فديتها ‏ بنفسي وفاء غير نقص ولا بخس

وقال

طلعت شمس عقار ‏ وسقاة كالشموس
فتلقوها ببشر ‏ واغتباط بالأنيس
وليدر كاس بدور ‏ فيه أهواء النفوس
واصل بعد جفاء ‏ ضاحك بعد عبوس
قربونى من نعيم ‏ مبعد عن كل بوس
أطيب العيش بدور ‏ تتمشى بشموس
أنجم المحروم هذا ‏ طالعات بنحوس

وقال على قافية الضاد

وليل كأن الدجن يجرى ببدره ‏ عدلت به لهوى بمعتدل غض
ومشمولة دست خوادمها بها ‏ فأغرت بتوباتى وسائل للنقض
ظباء لها فى النفس أمر محكم ‏ وغم جرى الجور فى البسط والقبض

وقال يرثى أباه

على قافية العين

يا تُرْبُ ضَمَّنكَ المماتُ مُسَوَّداً   كادَتْ له نفسي تَزُولُ تقطُّعا
قدْ كُنتُ آمُلُ أنْ يقيكَ الدهرُ لي   صَرْفَ الحُتُوفِ وأنْ تكونَ مُفجَّعا
حتَّى رأيتُ المُشفِقِينَ تقطَّعتْ   لمالهم ورأيتُ يومَكَ مقطعا
إنْ كانَ غيَّرَ من محاسنكَ البِلَى   ورمى فلمْ يتركْ لسهمٍ منزَعا
فلقدْ فقدتُ محاسنَ الدُّنيا به   وكذا الزمانُ مفرِّقٌ ما جمَّعا

وقال على قافية القاف

يا مَنْ أُرِيحَ مِنَ الفراقِ   وفراقُهُ بالهَجْرِ باقِ
أهوَى الفراقَ وإنْ رأيـ   ـتُ المَوتَ في شَخْصِ الفراقِ
لتقارُبٍ عِندَ الوداعِ   وقُبْلَةٍ عِنْـدَ العناقِ

وكتب إلى أخيه هارون

سيِّدي أنتَ ومَنْ لَمْ   يَزَلِ الدهرُ يُوفِّقْ
عِندنا أطيبُ مَنْ يخـ   ـتارُهُ السَّمعُ وأحذَقْ
وأرى جامعَ شَمْلي   كُلَّما غِبْتَ مُفرِّقْ

وقميص الدهر من بعــدك قد أودى وأخلق
إيتنا قد كسدت سوق اللذاذات لتنفق
أركب الكاسات كــف الريم بالخمر المعتق

وقال يصف الينوفر

سقانى صفوا من سلاف كريقه ... وحيا فأحيا قلب لهفان وامق
بنيلوفر مثل الكؤوس شممته ... حكت ريحه ريح الحبيب الموافق
حكى رقدة المعشوق قبل انفتاحه ... وبعد انفتاح الجفن تسهيد عاشق

وقال على قافية الكاف

منحتك الود منى ... فجاز بالود منكا
لو كان قلبى مطيعــا ... طمعت فى الصبر عنكا
لكنه فيك عاص ... يكف إن لم يعنكا
إن خنت بالغيب عهدى ... فإنى لم أخنكا

وقال

وزق صريع قطيع اليدين ... قتلناه عمدا ولم نبكه
سفكت دما منه لم يؤذه ... وكان لى الحظ فى سفكه

مَعِي طَرَبٌ لا يُطِيعُ المَلَامَ   وَلَيْسَ يُقَصِّرُ عَنْ فَتْكِهِ

وقال على قافية اللام

وَمُحَجَّبٍ نَبَّهْتُـــهُ   وَالشَّمْسُ تَقْرُبُ لِلْأُفُولِ
نَظَرَتْ إِلَى أُفُقِ الشُّرُو   قِ تَلَهُّفًا نَظَرَ الْعَلِيلِ
وَالضَّوْءُ يُنْحِلُ جِسْمَهُ   وَسَقَامُهَا سَبَبُ النُّحُولِ
مَا نَغَّصَتْهُ وَصْلَهَا   حَتَّى تَرَدَّدَتْ بِالْأَصِيلِ
فَأَفَاقَ مَعْقُولَ اللِّسَا   نِ وَمَا تَمَتَّعَ بِالْمَقِيلِ
يَرْنُو بِمُقْلَةِ جُؤْذَرٍ   لَمْ يَخْلُ يَوْمًا مِنْ قَتِيلِ
لَحَظَ الضِّيَاءُ ظَلَامَهُ   مِنْ نَاظِرَىْ فَجْرٍ ضَئِيلِ
قُلْتُ اهْدِنِي سُبُلَ اللَّذَا   ذَةِ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَبِيلِ

وقال يمدح أباه

يَا مُلْزِمِي بِالذَّنْبِ مَا لَمْ أَفْعَلِ   وَمُوَلِّيًا عَنْ وَجْهِ وُدٍّ مُقْبِلِ
أَوَ مَا نَهَاكَ جَمَالُ وَجْهِكَ أَنْ تُرَى   مُتَعَالِيًا فِى الظُّلْمِ غَيْرَ الْمُجْمِلِ
عَدَلَ الْخَلِيفَةُ جَعْفَرٌ فِى مُلْكِهِ   وَعَلَىَّ فِى مُلْكِ الْهَوَى لَمْ يَعْدِلِ
مَلِكٌ يُسَابِقُ وَعْدَهُ إِنْجَازُهُ   وَيَجُودُ مُبْتَدِئًا بِمَا لَمْ يُسْأَلِ

سَمَّاهُ مُقْتَدِرًا إِلٰهٌ قَادِرٌ   وَعَلَا بِهِ عِزُّ الْعُلَى وَالْمُعْتَلِى
طَالَ الْمُلُوكَ بِعَفْوِهِ وَنَوَالِهِ   وَكَذَا يَطُولُ لَهُمْ بِعُمْرٍ أَطْوَلِ

وقال

طَابَ عَيْشِى بِرَغْمِ أَنْفِ الْعَذُولِ   وَتَمَتَّعْتُ مِنْ وِصَالِ وَصُولِ
وَأَتَانَا الْهَوَاءُ عَنْ غَيْرِ وَعْدٍ   فَرَأَيْنَا تَشْرِينَ فِى أَيْلُولِ
فَاقْبَلِ الْكَأْسَ يَاخَلِيلِى مِنْ سَا   قٍ مَلِيحٍ دَلَالُهُ مَقْبُولِ
زَادَ طِيبَ الْأَقْدَاحِ كَفَّاهُ طِيبًا   وَأَعَارَ الشَّمُولَ طِيبَ الشَّمُولِ

وقال

لَحَاظُهُ تُطْمِعُ فِى نَيْلِهِ   وَتِيهُهُ يُؤْيِسُ مِنْ وَصْلِهِ
أَفْدِى الَّذِى أَسْرَفَ فِى جَوْرِهِ   فَأَيَّسَ الْعَاشِقَ مِنْ عَدْلِهِ
قُلْتُ لَهُ وَالْغَنْجُ كُحْلٌ لَهُ   وَالشَّكْلُ مَنْسُوبٌ الَى شَكْلِهِ
تُنْكِرُ ظُلْمَ النَّاسِ عُشَّاقَهُمْ   وَأَنْتَ تَجْرِى بِى إِلَى مِثْلِهِ؟

وقال يمدح سر من رأى ويزعم أنه سيسكنها

قافية الميم

كُرِّى الْمَلَامَ فَبَاغِى اللَّوْمِ مَخْصُومُ   وَالدَّهْرُ مُذْ كَانَ مَحْمُودٌ وَمَذْمُومُ

فقال فيها

بُسْرٌ مِنْ رَى بِلاد المُلْكِ طابَ لَنا   مُعَرَّسٌ عَيْشُهُ بِاللَّهْوِ مَنْظُومُ
أَرْضٌ مَتى اخْتَلَسَتْ أَلحاظُها نَظَرًا   اهْتاجَ ذُو طَرَبٍ وارْتاحَ مَهْمُومُ
وَالحَيْرُ والقَصْرُ والقاطُولُ جَنَّتُها   وَالجَعْفَرِيُّ بِكَفِّ الدَّهْرِ مَزْمُومُ
مَنازِلٌ آنَسَتْ دَهْرًا فَأَوْحَشَها   ظُلْمُ الزَّمانِ فَمَثْلُومٌ وَمَهْدُومُ
عَفَتْ وَغَيَّرَها وَصْلُ الرِّياحِ لَها   والوَصْلُ مِنْها بِحَبْلِ الهَجْرِ مَخْتُومُ
أَنَّى أَرَى رَجْعَةً لِلدَّهْرِ يَلْحَظُها   غَنِمْتُها إِنْ وَفَتْ وَالعَيْشُ مَغْنُومُ
وَسَوْفَ يَنْزِعُ بِي ذِكْرٌ يُشَوِّقُنِي   إِلى ذَراكِ فَيُبْدِي مِنْهُ مَكْتُومُ
وَإِنْ أُحِلُّكِ لا آبِي عَلَى بَلَدٍ   وَحَبْلُهُ مِنْ حِبالِي فِيكِ مَصْرُومُ
أَرَجْعَةُ الدَّهْرِ هَلْ وَعْدٌ فَآمُلُهُ   أَمْ عَطْفُ عَدْلِكِ مَفْقُودٌ وَمَعْدُومُ
وَما شَجانِي كَذِكْرَى خَلْتُها حُلُمًا   كَأَنَّ قَلْبِي لَها بِالذِّكْرِ مَكْلُومُ
أَيْنَ الزَّمانُ الَّذِي أَسْهَرْتُ عاذِلَتِي   فِيهِ وَغُودِرَ خَصْمِي وَهُوَ مَخْصُومُ
بَيْنَ الصَّراةِ وَكَرْخايا نُمَرِّدُهُ   وَالعَيْشُ مِنْ نَكَباتِ الدَّهْرِ مَعْصُومُ
وَالغَصْبُ دِينٌ وَشُرْبُ الرَّاحِ مُفْتَرَضٌ
وَالهَتْكُ مُسْتَعْمَلٌ وَالصَّوْنُ مَثْلُومُ

وقال يفخر

مَنْ ذا يُقيمُ دَعائمَ الإسْلامِ   وَيَعُمُّ بالإفْضالِ وَالإنْعامِ
فينا النبوةُ وَالخلافةُ حُكْمُنا   ماضٍ كما شئنا عَلَى الأيامِ
لا ينقضُ الأعداءُ مبرمَ أمرنا   وَبنا تمامُ النقضِ وَالإبرامِ
أمضى مِنَ الأجلِ المُعجَّلِ أمرُنا   يأتيكَ قبلَ الفكرِ وَالأوهامِ

وقال على قافية النون

حَبيبٌ لَيْسَ يُنْصِفُنى   وَمَوْلًى لَيْسَ يَرْحَمُنى
أمُرُّ بِهِ فيبعدُنى   وَأُنْصِفُهُ فيظلمُنى
وَلِى أمَلٌ يَلُوذُ بِهِ   يعنّينى ويُطمعُنى
يضنُّ بِوَعْدِهِ فإذا   أجابَ إليه أخلفَنى
أما ترثى لمكتئبٍ   أسيرٍ فى يدِ الحزنِ

وقال على قافية الهاء

وا بأبى مَنْ لَسْتُ أنساهُ   وَمَنْ عَلَى الهجرانِ أهواهُ
إنْ واصَلَ النسيانَ لِى فى الهوى   فَإننى واصلْتُ ذِكْراهُ

قال الصولى : وشعر الراضى كثير ، وقد جئت بالمختار منه وفى بعضه

أغان أجودها وأحسنها ما عمله عبد الواحد بن طرخان.

وفاة الراضى

وتوفى الراضى ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، وغسله أبو الحسن بن عبد الواحد الهاشمى وقد ولى القضاء. فحدثنى أنه ما رأى ميتا أحسن منه ولا أطيب عرضا ولا أنظف جسدا منه، وأنه كان يصب الماء عليه خادم أسود وأن القاضى أبا نصر كان واقفا يعينه على قلبه إذا أراد أن يقلبه لا يعينه من أمره على غير ذلك، وأنه لم يؤت بحنوط من الدار لأن الخزائن كلها أقفل عليها، ووكل بها فوجه القاضى إلى الكرخ إلى المعروف بابن أبى ذكرى العطار، حتى حمل من دكانه حنوط وجميع ما يحتاج إليه، وصلى عليه القاضى أبو نصر وحمل فى طيار فى دجلة إلى بين القصرين. وأخرج ثم حمل مع الخدم إلى الرصافة. فحدثنى من رأى مع الجنازة عشر شمعات بأيدى عشرة من الخدم، ودفن فى ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول. فكان جلوسه فى الخلافة من يوم الأربعاء لخمس خلون من جمادى الأولى سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة إلى يوم وفاته ست سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام.

وكان مولده فى شهر رمضان سنة سبع وتسعين ومائتين، فكان عمره إحدى وثلاثين سنة وستة أشهر

وتوفى والوزير له سليمان بن الحسن، وحاجبه أبو الفهم ذكى غلامه. وقاضيه أبو نصر يوسف بن عمر بن محمد، وصاحب شرطته

الترجمان محمد بن ينال ، والأمير على الجيش ، والغالب على الأمور بجكم التركى ، وكان قبل وفاته مقيما بواسط ، وكانت به علل كثيرة ، وكان يقول أنا مذ حبسنى القاهر عليل إلى وقتى هذا وتزايدت علته قبل وفاته بسنة وفسد مزاجه ، وكان ذلك أصعب علله . وكان يلقى من فمه دما كثيرا ، حتى ألقى من فمه فى يومين وليلتين - على ماقال سنان - أربعة عشر رطلا ، وكان أكثر ذلك بحضرتنا

ولقد أعطاه سنان دواء يأخذه بملعقة فبقيت الملعقة فى يده ساعة ، كلما أومأ بها إلى فيه غلبه الدم . حتى أمسك قليلا فرمى بما على الملعقة إلى فيه ، ثم عاوده الدم ، وكان مع هذا فى جوفه غلظ تزايد فى آخر أيامه ، وكان كثير الخلاف على من يطبه ، لا يقبل مشورته ، ويضمن أن يحتمى ولا يفى بضمانه وكان الجماع والشراب أعظم آفاته مع عشاء يديمه كل يوم على غير حاجة إليه ، وهذا ماذكرت من أخباره أنه لم يكن فيه عيب إلا مسامحته نفسه فيما تشتهيه ، وما كان أكله بالكثير ولا شربه ، ولكن شهوته زادت على طاقة جسمه وقوته .

ومن شعره عند زيادة علته

أيا نَفْسُ كُونِى بَعْدَ عِلْمِكِ والفَحْصِ عَلَى حَذَرٍ وارْضَى مِنَ الكُلِّ بالشِّقْصِ
ثِقِى واعْلَمِى أنَّ المَمَاتَ مُعَجَّلٌ إلَى كُلِّ ذِى زُهْدٍ عَزُوفٍ وذِى حِرْصِ
وَلا تَطْلُبِى حالَ التَّمامِ فَإنَّهُ إذا تَمَّ أمْرُ المَرْءِ آذَنَ بالنَّقْصِ

ومن شعره

كُلُّ صَفْوٍ إلى كَدَرْ كُلُّ أَمْرٍ إلى حَذَرْ
وَمَصِيرُ الشَّبابِ لِلْموْتِ فيه أَوْ كِبَرْ
دَرَّ دَرُّ المَشِيبِ مِنْ واعِظٍ يُنْذِرُ الْبَشَرْ
أَيُّها الآمِلُ الَّذِى تاهَ فى لُجَّةِ الْغَرَرْ
أَيْنَ مَنْ كانَ قَبْلَنا ذَهَبَ الشَّخْصُ وَالأَثَرْ
سَيُرَدُّ المُعارُ مِنْ عُمُرٍ كُلُّهُ خَطَرْ
رَبِّ إِنِّى ذَخَرْتُ عِنْدَكَ أَرْجُوكَ مُدَّخَرْ
إِنَّنِى مُؤْمِنٌ بِما بَيَّنَ الْوَحْىُ وَالسُّوَرْ
وَاعْتِرافِى بِتَرْكِ نَفْعِى وَإِيثارِىَ الضَّرَرْ
رَبِّ فَاغْفِرْ لِىَ الخَطِيَّةَ يا خَيْرَ مَنْ غَفَرْ

تمت أخبار الراضى بالله ، يتلوه أخبار المتقى

أخبار المتقى لله

بسم الله الرحمن الرحيم

قال ابو بكر محمد بن يحيى بن عبد الله الصولى قد فرغنا من عمل اخبار الراضى بالله وذكر وفاته، وكانت ليلة السبت لأربع عشرة ليلة بقيت من شهر ربيع الأول، سنة تسع وعشرين وثلاثمائة، ودفن فى التربة ليلة الأحد لثلاث عشرة ليلة بقيت منه

وفى هذه الليلة دخل أحمد بن على الكوفى من واسط إلى بغداد، وهو كاتب الأمير أبى الحسين بجكم ومدبر أمر الدولة. وكان محمد بن ينال الترجمان قد عاد من الأنبار، فولى أبو القاسم سلامة أمر الدار ورسم بحجبة من يستخلف وتقدم إليه بحفظ الدار، فولى ذلك أبو الحسين القشورى فضبط أحسن ضبط، ختم على دواوين المستخلصة وعلى جميع الخزائن، ووكل بذكى حاجب الراضى وبراغب خادمه أحسن توكيل أراهما أنه يريدهما لمعاونته، وكان معهما فى مكان واحد إلى أن تسلم منه الأمر.

وذكر للخلافة جماعة فزعموا أن بعضهم أبى والتدبير إلى غيره وكان أبو الحسين أحمد بن محمد بن ميمون بن هارون الأنبارى يكتب للأمير أبى إسحاق ابراهيم بن المقتدر بالله، وأمه أم ولد. فسعى له فى الأمر، وتضمن عنه * كلما يراد منه ووصفه بتوق وصلاح، وأنه

(*) راجع اللوحة الشمسية المنشورة ضمن هذا القسم

لا يشرب النبيذ، وشاع له هذا فى الناس،وكتب به إلى بجكم فكتب أن يعقد الأمر له ، بعد أن يجمع مشايخ بنى هاشم من ولد على والعباس صلوات الله عليهما، ومشايخ الكتاب ووجوه العدول والتجار، ليقع إجماعهم عليه. ولا يكون هو المنفرد بهذا الرأى ، ولا المختار له دونهم. فوقف الأمر بهذا السبب أياما إلى يوم الأربعاء لعشر ليال بقين من شهر ربيع الأول فقال لى البرجمالى فى عشية الثلاثاء اختر للخليفة اسما فكتبت له رقعة فيها ثلاثون اسما وكتبت مثلها ودفعت واحدة إليه وأنفذت الأخرى إلى أحمد بن محمد بن ميمون ، وضمنا لى إخراج حق التسمية ؛ وما وفيا لى من ذلك بقليل ولا كثير ، ولا عوضانى ولا شفعا لى ولا أذكرانى

واجتمع الناس فى يوم الاربعاء لعشر ليال بقين منه فى دار الأمير بجكم ، وحضر أبو الحسن على بن عيسى تاج الدولة وجمالها ، وشيخ الإسلام ، وحضر الكرخى محمد بن القاسم ، وأبو بكر عثمان بن سعيد الصيرفى صاحب ديوان الجيش ، وتخلى احمد بن على الكوفى فى حجرة فى الدار مملوءة بوجوه الناس ، فوجه إلى جماعة من الأشراف فوصلوا إليه مع على بن عيسى فخوطبوا ، فكان أول من تكلم وتبع الناس قوله أبو الحسن على بن عيسى، فأنه قال: الله مطلع على النيات ، عالم بالخفيات وليس لنا إلا الظاهر ، ليس فيمن أسمى أحد يبلغنا عنه ما يبلغنا عن أبى اسحاق ابراهيم بن المقتدر بالله ؛ فان كنتم عازمين عليه فاستخيروا الله جل وعز ، وأمضوا أمره. فقال له أحمد بن على الكوفى : إن الأمير أعزه

الله أمر أن يسمع منك ، وان يقبل رأيك ، ونحن نعمل على هذا . فقال جميع من حضر مثل قوله . فمضى ابن ميمون والترجمان ليحدراه من داره التى بحضرة دار البطيخ فدخلا إليه وهنآه وأخرجاه فسار فى الماء الى الحسنى دار الخلافة ، والناس حوله يدعون له إلى أن صعد . وقد نظر فى رقعة الأسامى فاختار منها المتقى لله ، وصعد إلى رواق الخورنق فصلى ركعتين على الأرض ، ثم جلس على السرير ، وبايعه الناس باقى يومه وأياما بعد ذلك . وكل من بايعه أحلف على طاعته ونصيحته ، وموالاة من والاه ، ومعاداة من عاداه .

ودخلت من الغد أنا وجماعة من المرسومين بالمجالسة فبايعناه ، وحجبه أبو القاسم سلامة أخو نجاح الطولونى ، فوقف موضع الوزير عند ابن ميمون ، فاستأذنته فى الإنشاد فأذن فأنشدته :

شَهِيدَاهُ إِنْ لَمْ تَظْلِمِيهِ نُحُولُ ... وَدَمْعٌ لَهُ فِى وَجْنَتَيْهِ هُمُولُ

وهى قصيدة كنت مدحت بها المكتفى بالله ، فلما دخلت قال لى ابن ميمون أما عملت شعراً ؟ وما كنت عملت ـ فقلت أعمل الساعة فقلبت مواضع القصيدة وكتبتها .

أَيُرْضِيكَ أَنْ تَضْنَى فَدَامَ لَكَ الرِّضا ... سَيَقْصُرُ عَنْهُ حَاسِدٌ وَعَذُولُ

تَقُولُ وَقَدْ أَفْنَى هَوَاهَا تَصَبُّرِى ... فَوَجْدِى عَلَى طُولِ الزَّمَانِ يَطُولُ

تَجَاوَزْتَ فِى شَكْوَى الْهَوَى كُنْهَ قَدْرِهِ ... وَمَا هُوَ إِلَّا زَفْرَةٌ وَغَلِيلُ

وما أرقت عين لها فيه ليلة ... فخف عليها الحب وهو ثقيل
وجدت إلى قتلى سبيلا وليس لى ... إلى الصبر والسلوان عنك سبيل
فدونك نفسى فاجعلى تحفة الردى ... حشاشتها إذ حان منك رحيل
ويكبر من يلقى إليك بوده ... وإن هوانى فيكم لقليل
وما ازداد إلا صحة بعدك الهوى ... ولكن قلبى ما نأيت عليل
لعمرك لا أتبعت ما فات بالأسى ... ورأى أمير المؤمنين جميل
هو الدين والدنيا فليس لطالب ... ولا راغب عما لديه مميل
سمى خليل الله لازلت مقبلا ... عليك بنعمى ذى الجلال قبول
وقاك الذى سماك متقيا له ... فأنت عماد الدين ليس يزول
أديل بك الإسلام فازداد عزة ... فأنت من الدهر الغشوم تديل *
مطيعك أنى حل فالعز جاره ... وعاصيك لو نال النجوم ذليل
مددت على الإسلام أكناف نعمة ... لأعطافها ظل عليه ظليل
فأضحت عيون العدل تسمو بلحظها ... وأصبح طرف الجور وهو كليل
أضاءت بك الدنيا فأشرق نورها ... وأنت الذى يذكى سناه أفول
فكل علاء إن سموت مقصر ... وكل فخار إن فخرت ضئيل

وكُلُّ سَناء مِنْ طَرِيفٍ وتَالدٍ   إلَيْكَ مُشِيرٌ بَلْ عَلَيْكَ دَلِيلُ
ولَوْلا بَنُو الْعَبَّاسِ عَمِّ مُحَمَّدٍ   لأصْبَحَ نُورُ الْحَقِّ فيه خُمُولُ
لَكُمْ جَبَلا الله اللَّذانِ اصْطَفاهُما   يَقُومانِ بالأسْلامِ حِينَ يَمِيلُ
نُبُوَّتُه ثُمَّ الخِلافَةُ بَعْدَها   وما لَهُما حَتَّى اللِّقاءِ حَوِيلُ
أتَتْكَ اخْتِيارًا لا احْتِلابًا خِلافَةٌ   لَكَ اللهُ فِيها حافِظٌ وَوَكِيلُ
حَباكَ بِها مَنْ صانَها لَكَ إنَّهُ   بإتْمامِ نُعْماهُ عَلَيْكَ كَفِيلُ
وَلَوْ حِدْتَ عَنْها قادَها بِزِمامِها   إلَيْكَ اصْطِفاءُ الله وَهِىَ نَزِيلُ
ثَوَتْ حَيْثُ أثْواها المَلِيكُ بِحُكْمِهِ   ولَيْسَ لِما أثْوَى المَلِيكُ حَوِيلُ
وَلا زالَ مَوْصُولًا إلَيْكَ حَنِينُها   كَما حَنَّ فى إثْرِ الخَلِيلِ خَلِيلُ
لِيَهْنِيكَ ياخَيْرَ البَرِيَّةِ ناصِحٌ   لَهُ خَطَرٌ فى العالَمِينَ جَلِيلُ
لَقَدْ شَدَّ أزْرَ الدِّينِ مَوْلاكَ بِحُكْمٍ   بِهِ يَتَسامَى مُلْكُكُمْ وَيَطُولُ
هُوَ الحَتْفُ مَصْبُوبًا على كُلِّ ناكِثٍ   يَظَلُّ بِهِ أيْدِى الشَّقاءِ نُحُولُ
فَما لَكُمْ فى المُنْعِمِينَ مُعانِدٌ   ولَيْسَ لَهُ فى النّاصِحِينَ عَدِيلُ
فَلا زِلْتَ مَحْرُوسًا لَكَ المُلْكُ دائِمًا   بَقاؤُكَ ما واصَى الغُدُوَّ أصِيلُ
لِعَبْدِكَ إذْ سَمّاكَ رَسْمٌ مُشَهَّرٌ   بِهِ يَتَسامَى فى الوَرَى وَيَصُولُ

ومِثْلُكَ أَعْطَى رَسْمَهُ مُتَنَوِّلاً   فَمَا زِلْتَ تُعْطِى مُنْعِمًا وَتُنِيلُ

فجعلت إذكارى له تسميتى آخر القصيدة ليفهمه، فو الله ما وصل إلى منه عاجل ولا آجل شيئا، حتى انقضت أيام ولايته.

وليس هذا الشعر كجودة أشعارى فى الراضى بالله، لأن ذلك كان أعلم الناس بالشعر فكنت أتنخل له الألفاظ، وأختار علوى الكلام

وولى الخلافة المتقى لله وجعل صاحبه سلامة، وكان سليمان بن الحسن المرسوم بالوزارة. وأمره المتقى لله أن يركب إليه فركب مرات، ثم إنه ارتعد يوما وهو واقف بين يديه ونالته خطرة من رطوبة فخرج يهادى بين اثنين ولزم منزله. وعقد المتقى لله لبجكم لواء وجعله أمير الأمراء ونفذ به سعيد بن خفيف الحاجب إلى واسط، وخرج أمر بجكم أن يلى أبو عبد الله محمد بن أبى موسى قضاء الشرقية والجانب الشرقى من مدينة السلام، وكانا إلى أبى نصر يوسف بن عمر وإلى أخيه. ثم وجه السلطان إلى أبى نصر قد أقررتك على عملك، فحكم فى آخر شهر ربيع الآخر وعرف منه سداد ورشد، ووقع فى القضاء تخليط بسبب أبى عبد الله ابن أبى موسى الهاشمى وشهادة العدول له ثم عليه شهادتين متضادتين، فسفر فى إبطال أمر أبى نصر فعزل، وولى أبو عبد الله محمد بن عيسى الضرير قضاء الجانب الشرقى والشرقية، وولى أبو طاهر بن نصر قضاء المدينة وخلع عليهما يوم الخميس لتسع خلون من جمادى الآخرة وجلسا وقرآ عهدهما وحكما، وصرف ابن بريه عن الصلاة بالجامع الغربى، وولى ذلك حمزة لتسع بقين من شهر ربيع الآخر

وقرىء كتاب عن الخليفه يأمر الناس بالاستسقاء، فخرج الناس يوم الاثنين لست بقين من شهر ربيع الآخر أهل الجانب الشرقى إلى المصلى، وأهل الجانب الغربى إلى ميدان الأشنان ومعهم حمزة الإمام

وحكى أن المتقى لله ما زال يصلى فى داره على الأرض، ويلصق خده بالتراب ويدعو.

وخرج الأمر بأن يصلى أحمد بن الفضل بمسجد براثا، وجعل فيه منبر مكتوب عليه «مما أمر به الرشيد سنة اثنتين وتسعين ومائة، على يد الفضل بن الربيع» وجعلت الصلاة بالجانب الشرقى إلى أحمد بن الفضل أيضا، وكان يصلى هو بالناس فيه ويصلى ابنه بمسجد براثا، ثم صرف أحمد بن الفضل بن عبد الملك عن مسجد الرصافة بأبى الحسن بن عبد العزيز.

وكان من أول الحوادث أنه قطع على القافلة الخارجة من مدينة السلام إلى خراسان فى جمادى الأولى، قطع عليها أكراد الشاذنجان، وكان لؤلؤ يحميها ومعه جماعة من الأتراك فكثر عليه الاكراد ودام المطر فلم تعمل قسى الاتراك شيئا وإنما هى عدتهم فتمكن الاكراد منهم بالسيوف والرماح فملكوها كلها، وكان فيها من العين والورق ما مبلغه ثلاثة آلاف ألف دينار، ومن الأمتعة ما قيمتها نحو ذلك، وكان أكثر المال لأصحاب بجكم أنفذوه إلى بلدانهم بخراسان

ولقد حدثنى بعض من يخبر الأمر، وهو المعروف بعدل حاجب بجكم أنه كان له وحده ثلاثون ألف دينار، ولسائر قواده أموال جليلة

وحدثنى من أثق به من التجار أن تاجرا من قطيعة الربيع حمل أمتعة فى هذه القافلة لزمه لكرى أحماله نحو ألفى دينار ، فما ظنك بمتاع هذا مبلغ كرائه ! وكم تظن أن قيمته تبلغ ؟

وإنما كثر المال فيها والمتاع لأن قوما من مياسير التجار خرجوا بجميع أملاكهم هربا من جور تكينك التركى صاحب أمر بجكم كله ، فانه أفرط فى ذلك وأسرف وبجكم لا يعلم بما يفعله بالناس ، فلما صح ذلك عنده وجه بأبى حامد الطالقانى من واسط حتى قبض عليه ، فلما وصل إليه حبسه وأخذ منه مالا وكان بجكم يزعم أنه قد فقد مما كان عنده أموالا جليلة .

ولما رأيت أنا أن المتقى لله لايريد جليسا ، وما سمع بخليفة قط قال : لا أريد جليسا ، أنا أجالس المصحف أفتراه ظن أن مجالسة المصحف خص به دون آبائه وأعمامه الخلفاء . وكان وحده دونهم ، أو أن هذا الرأى غمض عليهم وفطن هو وحده له ؟ فاستأذنت فى الخروج فأذن لى .

ولقد كنا وقوفا بين يدى المتقى فقال لنا بعض الخدم : ليس هذا مثل الراضى هذا لايريد الجلساء ، فقلت لهم لئن كان هذا الامر كما زعمتم فانه ردىء لنا وردىء لكم ، وأعظم الأمر أنه ردىء على الخليفة وعائد بخلاف مايهواه ويقدره ، فمازال بعض الخدم يقصدنى ويقول لى كان الأمر كما قلت لنا .

ولما وصلت الى واسط دخلت الى بجكم فأكرمنى وقربنى وأمر

أن يؤخذ لى منزل بقربه ، وأدخلنى فى جملة ندمائه وذوى أنسه ، ووصلنى سرا وعلانية ، وكان ربما وجه الى بالعشيات اذا خلا ، فأدخلنى أنا وقاضى واسط المعروف بالعسكرى ، فربما شاورنا فى الشيء. وأنا أجمل وصفه ووصف حسن أخلاقه وجميل عشرته وعلو همته ومحبته ، لأن تبقى آثاره بعده ، كما بقيت آثار أجلاء الملوك . فجملة أمره أن كان عقله أكثر شيء فيه ، فسأله جماعة من أهل واسط أن يأمرنى بالجلوس لهم فى المسجد الجامع يوم الجمعة ، فتقدم إلى بذلك ، فقلت له قد جعلت لهم مجلسين فى مسجد على بابى فى كل أسبوع ، وأنا ما جلست ببغداد وهى بلدى ومولدى بعد فى المسجد الجامع ! فقال لى إنى أحب أهل واسط وقد أحبونى وأنا حريص على عمران بلدهم وتبليغهم جميع ما يحبونه ، فاجلس لهم فى الجامع ففعلت .

وكان ربما شغلونى عن خدمته والأوقات التى يريدنى فيها لمواكلته ومجالسته ، وكنا نخدمه فى كل يوم بلا نوبة ، فجعل لنا من أجل مجلس الجمعة يومين فى الأسبوع الثلاثاء والجمعة نجلس فيهما فى بيوتنا فكنت مباركا فى ذلك على الجماعة المجالسين له

ولقد قال يوما وكان يفهم العربية كلها اذا خوطب ، ويحسن الجواب ، ولكنه كان يقول أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطئ فى لفظى ، والخطأ من الرئيس قبيح ، فلذلك أدع الكلام . فقال لى يوما أتدرى ما كتب به الى بعض أصحاب الأخبار - وما رأيتهم قط مع أحد اكثر منهم معه - ففزعت والله وقلت وماهو أيد الله الأمير ؟

قال : طلبتك فلما قمت من المسجد قالوا بعدك أعجله الأمير ولم يتم مجلسنا ، أفتراه يقرأ عليه شعرا أو نحوا ويسمع من الحديث! وقد ذهب عليهم أمرى أنا إنسان وإن كنت لا أحسن العلوم و الآداب أحب أن لا يكون فى الأرض أديب ولا عالم ولا رأس فى صناعة إلا كان فى جنبتى وتحت اصطناعى ، وبين يدى لا يفارقنى ، كلاما يشبه هذا أوهذا معناه . فما زلنا فى أرغد عيش وأحسن حال حتى قدم واسط بعض الجلساء طالبا خدمته ، فكرهت ذلك من جهات . فوصل إليه وأهدى إليه أشياء يتقرب بها ، وكانت كراهتى له أن يجتمع الجلساء فيقال له فى ذلك ، ووافق قدومه قدوم احمد بن على الكوفى واسط بعده بمال اجتمع له ، فقال له ما أحب أن يكون جلساء الخلافة عندك ، الصواب أن يكونوا على بابه . فدعانى عشية ، وقال لى قد أجريت عليك ألفى درهم فى أيامكم وهى خمسة وأربعون يوما ، وكذلك على اسحاق بن المعتمد وابن حمدون وعلى بن هارون ـ وهو الذى كان قدم عليه ـ وقد حضر خروجى إلى المذار [1] وقد أمرت لكم بمائة دينار مائة دينار . وهذه رقعة لك بألفى درهم صلة إذا وصلت إلى بيتك إلى بغداد فأوصلها إلى أبى عبد الله وخذها من وقتك ، فانه لا يعطيكم الرزق إلا بعد مضى أيامكم ، ولا تقم أكثر من شهر ، أو حتى تقبض رزقك حتى تعود إلى ، وجئنى بخطبة أمير المؤمنين معك ، وكان القاضى العسكرى قرأها عليه منتخبة

١ المذار بين واسط والبصرة على أربعة أيام من البصرة

غير تامة ، ثم قال وأنا بعد هذا أحسن إلى جماعتكم حتى لاتفقدوا بقاء الراضى فقلت له فما بال العروضى والبربريين وهم فى جملتنا ؟ فقال لى إذا قدمت بغداد فأجرى عليهم ، وكان معه كتاب قد أمر بكتبه إلى الكوفى بمبالغ أرزاقنا فقلت له قد كرهت أن يكون الجلساء سبعة فاحمل أرزاق أربعة واترك ثلاثة ، فدفع الكتاب إلى القاسم بن أبى القاسم الخوارى وكان يكتب بين يديه ، وقال له ادفع الكتاب إلى ابن المنجم ، فدفعه إليه فكان معه وخرج يوم الأربعاء وقال لى متى تخرج ؟ قلت : يوم السبت فمضى إلى باذبين[1] فبات بها ليلة الخميس

ودفع أبو زكريا يحيى بن سعيد السوسى كتابه فى ليلة الجمعة بأنه مقيم ، وأن الخبر ورد عليه بهزيمة بنى البريدى من المذار وأخذ أسرى من أصحابه ، وقال له اعط الكتاب للصولى حتى يقرأه على الناس يوم الجمعة فى مجلسه فدفعه إلى ففعلت ما أمر ، واقمت مستمليا لى على شىء عال حتى قرأه ، فكثر ضجيج الناس بالدعاء له ، وظنوا أنه سيرجع ونووا صدقات كثيرة ، ثم ورد الخبر بالترحل عن باذبين يوم الجمعة

وخرجت أنا من واسط يوم السبت ، وقدمت بغداد يوم الجمعة وبكرت يوم السبت لأوصل الرقعة التى معى إلى احمد بن على الكوفى فوجدته مضطربا لطير سقط فى يوم الجمعة يخبر بأن الأمير قتله بعض

---

(١) باذبين قرية كبيرة تحت واسط على ضفة دجلة

الأكراد غرة ، فبطل أمرنا فى الرزق وغيره ، وقوى الخبر. وكان أحمد ابن على قد ابتدأ فى مطالبة الناس بالخراج فى النيروز الأول، فخرج أمر بجكم بتأخير الافتتاح إلى النوروز المعتضدى .

وكنا بين يدى بجكم حتى ورد الخبر عليه بالقطع على القافلة بطريق خراسان ، فامتنع من الطعام غما بذلك واضطرب له ، وقال : لو ساغ لى أن أسير أنا فى طلبهم لسرت ، وأمر الترجمان بأن يخرج فى طلبهم وقوى أمره فخرج ، فما صنع شيئا . ورجع فى النصف من رجب بأديم كان وجد مطروحا وحمير ، فقال بجكم لما بلغه : هو رجل جيد لغير الحــــرب .

وانحدر الترجمان من بغداد الى واسط لعشر بقين من رجب فوافاها وقد شخص الى المذار . وورد الخبر بايقاع صاحب خراسان بأخى مرداويج وهزيمته اياه . وقد كان ورد على بجكم قتل ماكان فاحتجب ثلاثة أيام عنا غما بما ظهر فقلنا له فى ذلك فقال : هو مولاى ، كنت أقدر أن يرى ما صرت اليه ، ثم أجلسه فى مكانى وأكون معه وما رأيت فارسا مثله قط .

ولما صح قتل بجكم حمل أحمد بن على الكوفى مالا كان قد اجتمع عنده الى المتقى لله ، ووجد المتقى فى دار بجكم أموالا كثيرة مدفونة فى مواضع منها ، حول البستان فى خوابى ودنان كثيرة ، فاستخرجها وحملها اليه . ووجد القاهر - وكان فيما زعم يعذب فى أيام الراضى - فصرفه الى منزله ، وصرف ابا جعفر محمد بن يحيى بن

شيرزاد الى منزله ، بعد أن أدى مائتى ألف دينار ، ولم يبق له شىء إلا باعه وتمحل واقترض.

وظهر سعيد بن عمرو بن سنكلا ، وكان كاتب الراضى فصادره أحمد بن على على خمسين ألف دينار وأحسن معاملته وكافأه ، لأن ابن سنكلا كان أحسن اليه حين صودر ، إلا أنا كنا نسمع بجكم يعجب من هذه المصادرة ويغتاظ إذا ذكرها ، ويقول أقوالا لا أحب إعادتها

وظهر على بن يعقوب ، وكان يكتب لذكى الحاجب فصودر على سبعين ألف دينار

وكتب المتقى لله بإحدار تركة بجكم والمصير بها اليه وبالأتراك ، وأن تخلى عن الديلم فلا يأتى منهم بأحد ، ففعل ذلك. فانحاز الديلم الى عدل الحاجب كان لبجكم وصاروا معه . واحتال تكينك حتى قبض على بعض الخزائن وعلى الترجمان وأقبل نحو بغداد ، وورد من قبل الحسن بن عبدالله مال الى بجكم ، فحمله الكوفى الى المتقى لله ، وأطلق المتقى لله للفرسان الذين بالحضرة رزقة واحدة ، وللرجال رزقتين.

وهاج الحنبلية عند موت بجكم فقالوا طهرت السنة ، وحاولوا هدم مسجد براثا ، والايقاع بالضرابين واهل درب عون . فأخرج توقيع من المتقى لله بأخذ قوم من الحنبلية فأخذوا وضربوا ونودى عليهم وأمر ابن جعفر الخياط بحفظ مسجد براثا ، وأن يضرب عنق من تعرض لهدمه وكان الترجمان وجد تكينك مقيدا فى دار بجكم بواسط

فخلاه . فاحتال عليه تكينك حتى أخذه فكتب السلطان الى تكينك فى امره فولى امارة بغداد ، ونادى ببراءة الذمة ممن تعرض لأحد من الجند الواردين من واسط ، فدخل الجند بغداد فى أول شعبان ، ودخل تكينك ومعه مال فى صناديق محمول على خمسة وعشرين جملا . فسلمه إلى السلطان ونزل دار على بن هارون اليهودى الجهبذ على قرن الصراة ، بلصق دار المادرانى وابراهيم بن أيوب النصرانى ، وخلع على جماعة من قواد الأتراك وأخر تكينك إلى يوم بعد ذلك ، وطالب الأتراك ببيعة فقيل لهم ليس إلا رزقة ، فقالوا لانرضى إلا ببيعة ورزقة

وخاصم توزون أبا الأسوار قائد الديلم فلما رأى الديلم ذلك اجتمعوا وكثر عددهم ، وأمروا عليهم أبا شجاع جورغيز بن القاراهى

وورد الخبر بدخول أبى الحسين على بن محمد البريدى واسط وخلع على أبى الحسين احمد بن محمد بن ميمون للوزارة لعشر خلون من شعبان وجلس أحمد بن على الكوفى بين يديه ، وكان يكتب على رقاعه إليه عنده أحمد بن على

ووجه السلطان بمن يقبض على تكينك فى داره ، وكان الخبر قد وقع إليه فخرج على الظهر وركب إلى واسط إلى ابن البريدى ، وأفلت معه مال كثير .

ووجه بأبى جعفر محمد بن يحي بن شير زاد إلى البريديين برسالة وقد وصلوا إلى واسط ، ووصل تكينك إلى البريديين بواسط ، فأكرموه

وقودوه ، ولحق الجند بهم واستفحل أمرهم . وخلع على ابى النصر يوسف بن عمر لقضاء بغداد يوم الاثنين لست بقين من شعبان واشترط أن لا يقبل أصحاب السيوف ، ولا يقبل فى حكم شفاعة ، ولا يركب إلا إلى دار الخليفة ودار وزيره فقط

وخرج سلامة الحاجب وقواد الأتراك معه إلى الزعفرانية ، لقصد البريديين ومحاربتهم ، وذلك يوم الثلاثاء لثمان ليال بقين من شعبان ومعه الترجمان فأحس سلامة منهم بغدر ومكيدة فاستتر ، ومضى وجوه الاتراك إلى البريديين بواسط ، وبعضهم إلى الحسن بن عبد الله

وخلع على أحمد بن اسحاق الخرقى ، وولى قضاء مصر والشامات والحرمين ، ومر فى الشارع والجيش معه ، لاختصاص كان له بالمتقى لله قبل الخلافة

ووافى البريديان أبو عبد الله وأبو الحسين ، ومعهما أبو جعفر محمد ابن يحيى بن شيرزاد وكاتب الخليفة عنهما بسمعهما وطاعتهما ، وأنهما جاءا ليصلح إليه أموره كلها بخدمتهما له ، ثم نزلوا الشفيعى يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من شهر رمضان ، ومعهما جيش عظيم فى الظهر والماء ، ولقيهما الناس مسلمين وظهر الناس جميعا فلم يستتر إلا محمد بن القاسم الكرخى وسلامة الحاجب وابنه وأحمد بن على الكوفى ، وأشار البريديان على المتقى لله أن يستحجب غلامه المعروف بابن خزرى ففعل ذلك

وطلب أبو عبدالله البريدى من الخليفة مالا لرجاله فوجه إليه بمائة ألف وخمسين ألف دينار ، وسفر بينهما فى ذلك ابن ميمون الوزير ،

واحمد بن عبد الله بن اسحاق القاضى ، وابو العباس احمد بن عبد الله الاصبهانى ، وكان هذا حين نزل أبو عبدالله النجمى ونزل أبو الحسين دار مؤنس المظفر ، وما زال يستزيد من الخليفة مالا لرجاله حتى وجه اليه بتتمة أربعمائة ألف دينار . وصرف البريدى عمال الكوفى ، وولى عماله . ووكل أبو عبد الله بن البريدى بابن ميمون الوزير فى داره بالنجمى توكيلا جميلا ، وأعلمه أن القواد لم يرضوا به وزيرا وأرادوا الفتك به ، فمنعهم من ذلك واعتقله اشفاقا عليه .

وولى أبو عبد الله البريدى الوزارة فأمر بمحاسبة ابن ميمون فوجده قد اختان وضيع فصالحه على خمسين ألف دينار بحساب وموافقه ورخصت الأسعار .

ونبل الترجمان عند البريدى وذاك أنه هو الذى فض عسكر الزعفرانية ، وأعمل الحيلة على الحاجب سلامة حتى استتر ، وكاتب البريدى بذلك فجعله الترجمان بينه وبين الأتراك والديلم وخص به . وحدر أبو الحسين احمد بن محمد بن ميمون الى واسط لينظر فى الاعمال وهرب قوم من الأتراك الى الموصل فوظفوا على أهل تكريت مالا عظيما . تجاوز مائة ألف دينار ، فلقوا منهم عنتا وأغرقوا زواريق الدقيق

وزوج الوزير البريدى ابنته من عبد الواحد أبى منصور بن المتقى لله ، وركب اليه الى النجمى فنثر عليه دنانير كثيرة ، يقال إنها كانت بدرة وقيل خمسة آلاف دينار ومائة ألف درهم ، وأنشدت

للوزير فى عشية ذلك اليوم

قُلْ لِخَيْرِ الْكُفاةِ أَحْمَدَ أَعْلَى الْـ ـخَلْقِ جُوداً وَأَعْظَمِ النَّاسِ قَدْرَا
وَالَّذى يَعْشَقُ الْمَكارِمَ وَالْـ ـمَجْدَ وَيَشْرِى بِالْمَالِ حَمْداً وَشُكْرَا
مَا رَأَى النَّاسُ بِالْوَزِيرِ الْبُرَيْـ ـدِى كَذَا الْيَوْمِ حُسْناً وَفَخْرَا
أَمْطَرَتْنَا السَّمَاءُ فِيهِ بِيُمْنٍ وَسَمَاحٍ مِنْهُ لُجَيْناً وَتِبْرَا
فَالدَّنَانِيرُ هَاوِيَاتٌ تُحَاكِى أَنْجُماً فى السَّمَاءِ تَنْقَضُّ زُهْرَا
وَتَلِيهَا دَرَاهِمٌ مُشْبِهَاتٌ أَبْرُداً تَمْلَأُ الْأَمَاكِنَ نَثْرَا
نَافِعَاتٌ لِلْحَرْثِ لَا يُذْهِبُ الْحَرْ ثُ فَسَاداً وَلَا يُصَاحِبُ قَطْرَا
غَيْرَ أَنِّى انْصَرَفْتُ كَاسِفَ بَالٍ آسِفاً خَالِياً مِنَ الْكُلِّ صِفْرَا
مُضْمِراً حَسْرَةً لِذَاكَ وَغَمًّا وَاجِداً فى الْعِظَامِ مِنِّىَ فَتْرَا
سَاكِتاً إِنْ سُئِلْتُ عَنْ قَدْرِ حَظِّى لَمْ أَجِدْ لِلسُّؤَالِ عِنْدِى خُبْرَا
جَمَعَ اللهُ ذَا عَلَىَّ وَعَيْذَا سَالِكاً بِى مِنَ التَّقَلُّلِ وَعْرَا
شَاهِراً لِلْغِنَى سَيْفاً وَقَتًّا لَا بِهِ رَأْىٌ يُعَالِجُ فَقْرَا
فَأَغْنِنِى كَمَا عُهِدْتُ عَلَيْهِ بِعَطَايَا أَكْرَمِ النَّاسِ طُرَّا

وتحدث الناس بأن الوزير البريدى عازم على أن يدخل فى يوم

الفطر إلى الخليفة المتقى لله ، وتحدثوا بأن الديلم قد عزموا إذا دخل الدار يفتكوا به ، فأضرب عن هذا الرأى وتشكك فيه . فخاف الديلم ـ وقد شاع عنهم هذا ـ أن يقع عليهم حيلة ، فكانت لهم حركة وتجمع فى يوم الأحد بالعشى بالجانب الشرقى ، فصاحوا خليفة يامنصور ، وشتموا البريدى ، وما ظهر فى الشرقى من أصحاب البريدى أحد إلا شلح وأخذ ما معه ، وأصبحوا فى يوم الاثنين فملأوا شطوط الجانب الشرقى يشتمون البريديين واستشرفتهم العامة فأعانوهم ، وما كانوا يطيقون العبور لأن أصحاب البريديين كانوا يرمونهم من الماء إلى أن عبر أهل فرضة جعفر بسميريات فعبروا فيها ، وظهر ما كان ساكنا فى الجانب الغربى ، وانضم إليهم وأعانهم العامة وكثروا معهم ، وقصد الجميع النجمى فجلس الوزير فى طيار ، وانحدر جميع أصحابه فى طياراتهم وزبازبهم ، ووقعت الحراقة وتشبث بها قوم من الملاحين فظفروا بمال وطلب أسبابهم ووقع بدر الخرشنى بأيدى العامة بناحية الزياتين فضربته العامة واستخفت به ، وجرى عليه ما لم يجر على مثله ولا شبيه له قط ، وتخلصه من أيديهم بعض أسباب السلطان وقد قارب الموت وكان انحدارهم فى يوم الاثنين سلخ شهر رمضان وأحضر أبو الحسن على بن عيسى للوزارة فأباها ، وتقدم إلى أخيه أبى على عبد الرحمن بأن يكتب عن الخليفة إلى الآفاق بجميع ما أراد ، ومنع أبو الحسن أخاه من أن يعرض للوزارة . وقد كان الناس فرحوا بذلك واستبشروا ليخلع عليهما ، وجعل الناس يركبون إلى دار الخليفة

وقالوا يكون الأمير ابن الخليفة أبو منصور ، ثم لم يتم ذلك . وولى الوزارة أبو إسحاق محمد بن أحمد بن ابرهيم الاسكافى المعروف بالقراطى وأشار على الخليفة أن ينصب أميرا يكفيه أمر الجيش ويكون معاملتهم معه ، فخلع على كورتكين الديلمى ويكنى أبا الفوارس للامارة فى يوم الخميس لثلاث خلون من شوال ، ولبس الخلع وسار فى الشوارع إلى أن صار إلى الدر التى يسكنها على دجلة وهى دار نصر الحاجب . وخلع على بدر الخرشنى للحجبة لثلاث بقين من شوال ، وأخرج كورتكين ابن اخته اصبهانى إلى ، واسط وكان فتى حسن الوجه ومعه جيش فورد الخبر بدخوله إلى واسط وانحدار البريديين عنها .

ووردت قافلة من خراسان إلى حلوان ، فولى أبو محمد بن جعفر بن ورقاء طريق خراسان فمضى فتلقى القافلة وأوصلها مسلمة إلى بغداد وقبض على الحسن بن أحمد الشجرى العلوى من الدار التى كان يسكنها وهى دار على بن هارون بن علان اليهودى الجهبذ على قرن الصراة وكان هو وأصحابه قد آذوا الجيران غاية الأذى إلى أن انتقل اكثرهم ونهبت الدار ، واجتمع جيرانها فأحرقوها ، وقالوا نستريح من أن يسكنها أحد يؤذينا ، فبقيت النار فيها أياما وكان ابن الشجرى قد اتهم بأنه قد واطأ جماعة على أن يجلسوا فى الخلافة عبد الله بن الراضى بالله بعد أن يوقعوا حيلة على كورتكين وكان سعيد بن عمرو بن سنكلا(١) النصرانى قد حمل إلى القرار يطى مالا قيل إنه خمسة آلاف دينار

(١) فى الأصل ابن سنجلا والصواب ماذكرناه وقد تقدم مرارا

فركب إليه واثقا مع على بن يعقوب كاتب ذكى الحاجب ، فلما صار إلى داره قبض عليهما ، ووجه بابن سنكلا إلى دار السلطان ، وقال له قد ضمنت مال بيعة فهاته فقطع أمره على ثلاثة عشر ألف دينار منها على ابن سنكلا عشرة آلاف دينار . وورد رسول القرمطى الهجرى يطالب بضريبته التى رسمت له فى كل سنة لحفظ الحاج فوجه إليه منها بعشرين ألف دينار وخرج الحاج لأيام خلت من ذى الحجة ، وقرب محمد بن رايق من بغداد وخرجت مضارب كورتكين إلى الشماسية مع المختار القرمطى فأخذها مع الجمال ونفذ إلى ابن رايق ، وطالب كورتكين السلطان بالخروج معه فأخرج مضربه وأنفذ إلى ابن رايق مع خادم من خدمه كتابا فيه خطه يأمره فيه بأن يقيم حيث أحب ولا يقدم ، وكان عمارة القرمطى قد خالف على ابن رايق وحاربه فقتل وجىء برأسه إلى ابن رايق . واجتمع من جند بغداد حجرية وساجية وغيرهم نحو ألفين خرجوا إلى ابن البريدى وقبض على الوزير أبى اسحاق محمد بن أحمد الاسكافى لخمس ليال بقين من ذى الحجة

وخلع على ابي جعفر محمد بن القاسم الكرخى لأربع بقين منه ووردت كتب الحاج يشكرون أبا على عمر بن يحي العلوى كل الشكر لما أولاهم فى طريقهم من حفظهم وإعانة ضعيفهم والتوقف عليهم .

وكتب كورتكين إلى ابن اخته وهو بواسط بأن يصير إليه لقتال ابن رايق فجاءه وأخلى واسط فصار البريدى إليها ، وأمر بأن يخطب بها لابن رايق وكان كورتكين قد ولى لؤلؤا غلام المتهشم واسط فشخص

اليها فلما بلغه موافاة البريدى إليها رجع إلى بغداد فى ذى الحجة، وعيد الناس الاضحى على سكون وسلامة

وطالب الديلم التجار بأموال فصار إليهم رجل يعرف بعبدون المتضمن كان لأمر الزواريق المصعدة والمنحدرة من مدينة السلام والبصرة ففتح على الناس أبوابا من البلاء عظاما، فلحقه قوم من غلمان التمارين وغيرهم وهو فى سميرية فقتلوه وأخذوا رأسه، فنصبوه فى التمارين فاضطرب الديلم لذلك وحملوا السلاح وقصدوا التمارين ليحرقوه ويتعدوا ذلك إلى ما يليهم من أسواق الكرخ فمنعهم كورتكين من ذلك، وضبط الديلم ووجه إلى التمارين أن لايعاودوا مثل هذا الفعل، فعد الناس هذا من أفضل آراء كورتكين وترتب فى قلوب الناس من يعقل منهم، ويفهم مرتبة العقلاء.

ودخل كورتكين إلى المتقى لله ليستبين مافى نفسه قال إن أمرتنى بحرب هذا الرجل حاربته وإن أمرتنى بطاعته أطعته، وإن أمرتنى بأن انصرف إلى المكان الذى ترسمنى به فقال له بل حاربه، وأنا معك فقد جاء محاربا لأمرى فخرج كورتكين فأقام بنواحى عكبرا بموضع يعرف بالأنابين

وجاء جيش ابن رايق فحاربوهم أياما فما أغنوا شيئا، وكان الديلم مستظهرين عليهم

وولى لؤلؤ إمارة جانبى بغداد لثلاث عشرة ليلة خلت من ذى الحجة ولما رأى محمد بن رايق أنه لا حيلة له فى الديلم وأنها قد عزت

عليه وأن القليل منهم يفى بالكثير من أصحابه احتال إلى أن سلك العراض، ودار بالموصل إلى بغداد ووصل إليها من تخلص من أصحابه كالمنهزمين. ووصل ابوبكر بن مقاتل إلى مجلس الشرطة من الجانب الغربى فرأى الجسر مقطوعا فأطلق من وقته دنانير وأقام من أصلحه وكان معه قواد ابن رايق ابن لأبى مسافر محمد بن ديوزان. فلقى ابن مقاتل السلطان واستأذن لابن رايق فأذن له فدخل بغداد بعد يومين والديالم على جملتهم بموقفهم ونادى لؤلؤ صاحب الشرطة فى جانبى مدينة السلام: يامعاشر العامة إن أمير المؤمنين قد أباحكم دماء الديلم وأموالهم فما عرف أحد من شذاذ بغداد وملاحيهم وعياريهم موضع أحد من الديالم إلا نهبوه وقتلوه وأخذوا جميع أملاكه، ثم وافى الديلم ودخل كورتكين من باب الشماسية وذلك فى يوم الخميس لتسع بقين من ذى الحجة فجعل العامة يدعون له وهو يرد عليهم ومنع أصحابه أن يعرضوا لعامى فما زال يسلك الشارع الأعظم من الجانب الشرقى إلى أن وافى دار الخليفة وهو لا يشك أنه معه على مافارقه عليه فوجد الأبواب مغلقة فجاء من جهة الشط فرمى من التاج بالنشاب فرجع، وخيبه الله عز وجل حتى صار إلى جزيرة حيال قصر عيسى لا يوصل إليها من الشارع إلا بسلوك دروب ضيقة فأقام بها وجعل سواده وبغاله فى الاصطبل الذى بالمخرم وهذا كله بين يدى وأنا اراه من دارى بقصر عيسى ورمى أصحابه بالنشاب من دجلة، ورأيت ابن رايق قد جاء فى سميرية ومعه غلامان يرميان حتى اعان من كان يرميهم من دجلة. وكثرت

عليهم سميريات العامة يشتمونهم ويلعنونهم وهرب أصحاب ابن رايق حتى وافى بعضهم الأنبار وبعضهم المداين . وجاءنى بعض قواده فى تلك الليلة فرموا اسلحتهم عندى ومضوا مخفين لا يشكون فى أن كورتكين إن صار إلى الشماسية وبات بها ليلة لم يبق من أصحاب ابن رايق أحد . فما هداهم الله لهذا الرأى وأقاموا بمكانهم حتى أدركهم الليل فولوا يريدون الشارع مبادرين ، فصارت هزيمة وضاربهم من فى الدجلة ورموهم ورميت عليهم الستر فى الدروب من فوق السطوح وازدحموا فكان منى الواحد منهم أن يخلص إلى الشارع وظفر قوم من أصحاب ابن رايق ومن العامة بجماعة منهم فى الجزيرة فقتلوهم وأخذوا دوابهم وأسلحتهم وعبر العامة إلى الأسطبل فوجدوا من سوادهم بقية فنهبوها ، وفروا هاربين على وجوههم يريدون النهروان ، إلا من اغتر منهم واستتر عند جار وعند صديق . وكشف الله عز وجل عن الناس أمراعظيما مما أشرفوا عليه وخافوه ، وأصبح الناس يطلبونهم ولا يظفرون بأحد إلا قتلوه أوحش قتل ، وأمر ابن رايق باتباعهم فوجدوا قد عبروا جسر النهروان وقطعوه . وظفر منهم بنحو ثلاثمائة فحبسوا فى دار الفيل فى ظهر سور الحسنى وأدخل اليهم الرجالة السودان فخبطوهم حتى أتوا عليهم ، وكان جماعة منهم فى دار فاتك حاجب ابن رايق فجعل يرمى بهم من الأروقة إلى السطوح ، ويقال للعامة خذوهم ، فيبادر العامة بقطع آنافهم وآذانهم وأصابعهم وهم قيام احياء ، واستفظع الناس هذا الفعل واستعظموه وكرهوه .

وكانوا أودعوا فى ليلة الثلاثاء أقواما أموالا ففازوا بها ، وظهر لهم يسار بعد أن كانوا فقراء وجعل العامة لا يلقون أحدا متشبها بالديالم إلا قتلوه ، وإن لم يكن منهم ، ولا يرون مع أحد منهم دراهم إلا قالوا له أنت كنت مع الديلم ، وأنت تدرى أين هم فدلنا عليهم ، ويقتلونه فى الطريق بحضرة الناس . وكان ذلك مما لم يعهد فعل مثله أحد ، وهذا كله فانما جرى لركاكة مدبرى أمر ابن رايق ، وجهل من معه ، وأن الخليفة ليس معه من يشير عليه ويعرفه الواجب من غيره ، وقد كان يبلغ من هؤلاء الأعداء ما يجب عليها ، بقتل أحسن من هذا ، كما أمر رسول الله صلى الله عليه وينهى العامة بعد أن ظفر بهم أن يتولوا بأيديهم قتل أحد حتى يصيروا بهم إلى سلطانهم . وكان قتل الديالم فى دار الفيل فى يوم الاثنين لخمس بقين من ذى الحجة . وأخبر يوسف بن يعقوب البازعجى خليفة لؤلؤ على الشرطة بمكان كورتكين ، فركب فاستخرجه من درب سليمان بقرب الجسر من الجانب الغربى ، وصار به الى ابن رايق فحمله الى دار السلطان ، وقبض على أخته أم أصبهان فطولبا بالاموال فلم يعترفا بشيء فحبسا ونحن نعيد أمره .

وخلع على محمد بن رايق فى يوم الثلاثاء لأربع بقين من ذى الحجة ، وجعل أمير الأمراء ، وطوق بطوق عظيم مكلل ، بالجوهر وسور بسوارين ، وجعل يشكو ثقل الطوق إلى أن نزل فى دار مؤنس المظفر ، ولزم الشرب ليله ونهاره أياما متوالية .

وظهر أبو القاسم سلامة الحاجب ، وظهر احمد بن على الكوفى

وصار إلى ابن رايق . فأما خبرى أنا فى آخر شهر رمضان وقت انحدار البريديين من النجمى ، فان الديالم فى يوم الاثنين صاروا إلى دار ابن ينال الترجمان وهى ملاصقتى بقصر عيسى فنهبوها . وصعدوا سطوحها فوجدوها كالمتصلة بسطوحى ، فنزلوا على من فوق سطوحى وأنا غافل ولى مجلس وعندى خلق من أصحاب الحديث وأهل الأدب فوثبنا إليهم وكلمناهم فما نفعناشيئاً ، وخرج حرمناهاربات ولم يتركوا لى شيئا من ذخائر وغيرها، إلا أتوا عليها وأخذوا لى نحو مائتى قطعة من الثياب أكثرها من كسى الخلفاء وخلعهم ، وأخذوا من الزجاج الفاخر والصينى ما لا يضبطه عددى ، ووجدوا قطيعة من دفاترى فنهبوها ، وأخذوا كل ذخيرة لعيالى وثوب وجدوه لهم ، وجعل من كان عندى يخرج فيلقاه قوم منهم على بابى فيفتشه ويأخذ شيئا إن وجد معه .

ولقد حدثنى بعض جيراننا أنه رآهم يتجاذبون على بعض الثياب حتى تخرق فيأخذ كل واحد قطعة منها ، وأنه رآهم فعلوا هذا بمناديل دبيقية ، وظفروا بصندوق فيه طيب قد ذخرته فكسروه فى الأرض فما وصلوا إلا إلى اليسير منه ، وكذلك غالية كانت فيه وعنبروند وأخذوا لى سرجين أحدهما ثقيل وحمارا من اصطبلى حتى اشتريته بعد ذلك بعشرة دنانير ، وأشد ما بقى على ان بعض ضعفى أصحاب الحديث كان يجيئنى بعد ذلك فيقول كانت معى نفيقة فأخذت فى دارك وأحتاج أن أعوضه من ذلك ، فكانت قيمة ماذهب لى نحو ثلاثة آلاف

دينار كلها لى ولعيالى، ما لأحد فيها شىء إلا لأبى الحسين بن القشورى فان صاحبا له يعرف بابن الرايض كان معه سرج له فتركه فى دارى وكان يسكن عندى ليرجع فيأخذه، فنهب فوالله ما اكتسيت ولا عيالى إلى وقتنا هذا، وإنى لفقير مذ ذاك لا رزق لى ولا اتصال بمن يصلنى وينفعنى، أتقوت أثمان دفاترى وثمن بستان لى كان عيشى وجنتى، كل ذلك بشؤم مجاورة الترجمان لى. فسبحان من أفقرنى وأغنى غيرى من جيرانه حتى اعتقد به العقد وبعت عقدتى، وملك أمواله وذهب مالى!

وأعجب من هذا كله أنى ظننته انه سيرثى لى مما جرى على إذا عرف أمرى، فلما عاد إلى داره ناصبنى العداوة، وأراد منى أن تملك ما يجاوره من دورى، ويتسع به وبعشر ثمنه، وأن يشترى بستانى بدوران وقد أعطيت به نحو عشرة آلاف درهم، فراسلنى فى ذلك مرات فقلت لأبى الحسين القشورى - ولم يكن معه من يشبهه دراية وفهما - صاحبك هذا مجنون حين يعطينى هذه العطية. فقال لى: كذا قومه بعض جيرانك له. وزعم أنه أكثر ما أعطى به. قلت فلم لا تصدقه أنت؟ قال: الذى قال له ذاك أخص به منى، وآثر عنده. ولقد استدعى فى أول ما جاورنى مخالطتى وأن أنغمس فى أموره فأبيت ذلك خوفا من العواقب. ولقد كلفنى غير مرة أن أشترى له أشياء وأكتبها باسمى أو اسم من أثق به لئلا يعلم أنه هو المشترى، فأبيت ذلك عليه منذ أيام بجكم، لما فى مثل هذا من عاقبة السوء، ووجد غيرى ممن يريد هذا ويتمناه ويتصنع له.

ولولا خوفى من إطالة الكتاب بما لا يحتاج الناس إليه ، ولا يبالون بعلمه لذكرت ما أتفرج به فانى كالمصدور ، يستريح إلى النفث وكالاناء ينضح بما فيه . والحمد لله على كل حال وهو حسبى وعليه متكلى ، وأقول ما قاله عبد الله بن طالب الكاتب وأنشدنيه لنفسه :

أَحَلْتُ بِرِزْقِى عَلَى رازقِى ... وَوَكَلْتُ أَمْرِى إلَى خالقِى
وَقَدْ أَحْسَنَ اللهُ فِيما مَضَى ... كَذَلِكَ يُحْسِنُ فِيما بَقِى

وقد أتيت على جميع ما كان من الحوادث فى سنة تسع وعشرين إلى انقضائها . فلم يبق إلا ذكر من توفى فيها من أهل العلم الذين كان الناس ينتفعون بحياتهم ، فأما الجهال فلا نبالى بأغنيائهم ولا فقرائهم

ومن أهل الشرف والفضل توفى ابن الفدان العلوى يوم الأحد لسبع خلون من شعبان وحمل فدفن بالحير . وقبل موته بأيام مات البربهارى ، فسبحان من سر المؤمنين بموته وفجعهم بموت ابن الفدان وهو فى وقته من أكرم الأشراف وأسمحهم كفا .

وتوفى القاضى أبو الأسود بن موسى بن إسحاق الانصارى ، وكان

قد حدث

ومات أبو على بن إدريس الجمال فى آخر يوم من رجب ، وكان من قدماء العدول وقد سمع حديثا كثيراً ، كنت أراه عند الحارث ابن أبى أسامة وكان يقدمه ويؤثره

ومات رجل يعرف بجعفر البارد وكان قد حدث ، وسمع الناس

منه ، ومات منهم رجل يعرف بالسواق فى شوال .

ومات منهم رجل يعرف بأبى عبد الله الأبلى ، ومات المروزى المعروف بحامض رأسه ، لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر رمضان ، وقد سمع الناس منه حديثا كثيرا

ومات لأربع بقين من ذى الحجة أبو بكر المعروف بابن بهلول الأزرق ، وقد كان حدث وازدحم الناس عليه ، وكان عالى السن وله إسناد

ثم دخلت سنة ثلاثين وثلاثمائة

ألزم محمد بن القاسم الكرخى بيته ، واستكتب ابن رايق أحمد بن على الكوفى

ووافى من البصرة سفن كثيرة من سفن التمر ، فرخص حتى بلغ الألف سبعة دنانير

وظهر عند إبراهيم بن أحمد بن اسماعيل صاحب خراسان ديلم فأخذوا وأفلت منهم قوم فقتلهم العامة ، وظهر على كورتكين لثمان ليال خلون من المحرم فى دور سليمان ، فأوصل إلى ابن رايق فوبخه وسلمه إلى دار السلطان ، وكاتبت أخته ابن رايق وسألته أن يؤمنها فآمنها ، فصارت إلى أخيها كورتكين وطولبا بأموال ، وضرب كورتكين ، وأخذ منه مال قليل وقال كل شىء كنت أفيده كنت أعطيه الديالم . وقد صدق فى هذا ما كان يدخر شيئا . وانحدر ابن رايق إلى واسط لاحدى عشرة ليلة

خلت من المحرم بعد أن فرق على جلسائه جملة دنانير فكان ممن نادمه فى ذلك الوقت على بن هارون المنجم فأمر له بألف دينار ، وصرت أنا إليه لأودعه وهو فى الزبيدية فقال لى ألست معى فى هذا السفر؟ قلت إن أمر الامير . فجذب الدواة ووقع لى بخمسمائة دينار بخطه فقلت لأبى عبد الله الكوفى إلى من هذه ؟ فقال إلى أبى بكر بن مقاتل . وانحدر من ليلته وبكرت بالرقعة إلى ابن مقاتل فقال هذه مبهمة يعطى خمسمائة دينار مبهمة ، ولو كانت إلى لخاطبنى . فأخذتها وانحدرت من وقتى إلى المداين فعرضتها عليه فوقع : يا أبا بكر أطال الله بقاءك ادفع اليه خمسمائة دينار ، فدفع إلى مائة وخمسين دينارا ، وقال أنا أدفع اليك الباقى بواسط فأضفت إلى ما أعطانى مثله ، وتحملت وخرجت إلى واسط فما دفع إلى ابن مقاتل شيئا ، وكلما وقع إليه بتوقيع قال أفعل ونحن فى إضاقة إلى أن صالح البريديين وشخص عن واسط ، ولزمتنى مؤن أحوجتنى إلى أن بعت شيئا كان لى بالبصرة وأنفقته انتظارا لوعده ، فما وفى بشىء ، ولا أطلق لى درهما واحدا ، فجئت اليه فى اليوم الذى صاعد فيه وقد تقدمه ابن مقاتل إلى بغداد ، فقلت أنهضنى أعز الله الأمير إلى بغداد كما أخرجنى أمرك عنها . قال الحقنى بنهر سابس ، فعلمت أنه لا يفعل شيئا فجلست مضطرا . ووافى أبو الحسين نصرت إليه فأكرمنى وقربنى ، وكذلك ابو يوسف وتكفل بأمرى كله .

ووصلنى سرا وعلانية أبو القاسم عبد الله بن أبى عبد الله الوزير ، وأما الوزير أبو عبد الله فانى لم أجده كما عهدت ، على أنى نكبت بعده ، إلا أنى

أرجع منه إلى عشرة ثم إن أبا الحسين لم يدنه حتى وصلنى وأضاف إلى ذلك صلة منه ، ووصلنى أبو يوسف وأمرنى بملازمته ، ووصفنى وقال قد سألنى أهل البصرة أن أقدمك عليهم ، وزعموا أن علومهم مجتمعة عندك ، فتضمنت له ذلك

وتغير الوزير لى وجعل يثلبنى قوم عنده يختصون به ، لست منهم فى شىء ، وخاصة لما شخص أبو الحسين يريد بغداد فانه كان يكلمه فى أمرى ويقوم بنصرتى إلى أن حجبنى أياما ، ثم أذن لى وأراد أن يمنعنى من الجلوس فى الجامع للناس ، وتقدم بذلك إلى المعتمدى فقيل له إن الخلق كثير ، وليس المنع من حديث رسول الله صلى الله عليه يحسن عند الناس . فأضرب عن ذلك وكنت أتأخر فيعتب على وأحضر فيعنتنى فان سأل عن شىء فأصبت فيه خالفنى ، وأعانته العصبة التى حوله فقال لى يوما - ولولا أن ما أحكيه داخل فى باب العلم والافادة ماحكيته - : كم بالبصرة من قبيلة ليست بالكوفة ، وكم بالكوفة من قبيلة ليست بالبصرة ؟

فقلت بالبصرة المهالبة ، والمسامعة ، والجاروديون . وباهلة

وبالكوفة بنو أسد عدة مواضع وليس بالبصرة إلا مكان زعموا أنه سمى بغيرهم ، وبها الاشاعثة . وبها المقيثون . فقال ذهب عليك الأعظم وبنو حمان بالكوفة وليس هم بالبصرة ! فقلت بلى هم بالبصرة فقال كذبت ، فقلت والله الذى لا إله إلا هو ما كذبت منذ عرفت قبيح الكذب ، فقال يا يانس هات مائتى دينار فجاء بها فى صرة ، فقال إن

كان بالبصرة بنو حمان فهى لك وإلا غرمتك نصفها ووهبته ، فقلت الوزير أعزه الله يتفضل على ويهب لى أضعاف هذه وما كنت لآخذ على هذه الجهة شيئا ولو كانت ألفى دينار ولكنى أحدث الوزير أعزه الله بشىء يتفضل باستماعه ثم يأمر بما شاء . قال هات . قلت رميت وأنا صبى فى سنة خمس وسبعين بالبصرة مع إنسان يعرف بابن طاهر الهاشمى وهو يعيش ، فكان رمينا : خرجه عندى فأجذبه إلى العتيك وخرجه عنده فيجذبنى إلى هدف بنى حمان ، ويحضرنا ألوف من الناس ولقد أنشدنى ابن ذكرويه لنفسه

حِزْبُ الْعَلاءِ نَضَلْتهم فترحّلوا   طابَ الرَّحيلُ إلَى بَنِى حِمّانِ
هَذا أَبُو ساسانَ قَدْ أَشْجاكُمُ   ماذا لَقِيتُمْ مِنْ أَبِى ساسانِ

وهؤلاء بنو المثنى وبنو عبد السلام ، فأن شاء الوزير أن يستعلم هذا منهم فليفعل فما رد جوابا وأمر بدفع الدنانير

وقال لى يوما من الذى أكل تمرا وهو رمد من إحدى عينيه فنهاه النبى صلى الله عليه ، فقال إنما آكل من شق عينى الصحيحة ؟ فقلت هذا صهيب ، فقال أخطأت والله هذا عامر بن فهيرة . فقال له بعض من كان عنده وهو اليوم ببغداد : هذا مشهور عن عامر ، فقلت أعز الله الوزير لا تلتفت إلى قول من لا يدرى

حدثنى عون بن محمد الكندى قال حدثنا عمرو بن عون قال أخبرنا عبد الله بن المبارك عن عبد الحميد بن صفى عن أبيه عن جده عن

صهيب قال قدمت على النبي صلى الله عليه وبين يديه خبز وتمر وقد رمدت إحدى عيني ، فقال ادن فكل فجعلت آكل التمر فقال يا صهيب أتأكل التمر وبك رمد ؟ فقلت إني أمضغ من الناحية الأخرى ! فتبسم صلى الله عليـــه .

وحدثني عون قال حدثنا يعقوب بن محمد قال حدثنا عاصم بن سويد عن ابن اسماعيل بن مجمع عن عبد الحميد بن زياد بن صهيب عن صهيب قال جئت والنبي صلى الله عليه في بيت كلثوم بن هرم بعد ما قدم من قباء بثلاث وبين أيديهم تمر أو رطب قد كاد يتمر وإحدى عيني شاكية فأكلت منه فقال لي رسول الله صلى الله عليه أتأكل التمر وبعينك ما بها ؟ فقلت إنما آكل من شق عيني الصحيحة ؟ فضحك رسول الله صلى الله عليه حتى بدت نواجذه . فقال أرني هذا في كتاب ، فقلت ما معي أصل ثم قلت لمن يجيئني من أصحاب الحديث انظروا من عنده مسند فليجئني بمسند صهيب ، فجاءوا به فحملته اليه . فقال له صاحب الكلام فلعله قد قال هذا لعامر أيضا ! فقلت هذا مسند عامر وهو كله ثلاثة أحاديث ـ وكنت قد استظهرت بأخذه ـ فنظر فلم يجد فيه شيئا فذهب المعترض يتكلم فقال له حسبك ، الكلام في هذا بعد ما وقفنا عليه قلة حياء وقحة ، إلى غير هذا من أشباهه

ولما أراد أبو يوسف الرجوع من واسط إلى البصرة جذبني إليها ووعدني وتضمن لي ما يرغب في بعضه ، فأعلمته أنه لا أصل معي من أصول الحديث ولا غيره وأني ألم ببغداد وأحمل ذلك معي وأقصد البصرة . فقال لي فلا

تقيمن بعدى بواسط ساعة واحدة .فعرفت أن تحت هذا الكلام ماهو أعرف به وأعلم ، وأنه قد نصح لى فشيعته ثم صاعدت من وقتى إلى بغداد فوجدت أبا الحسين بها والخليفة خارج عنها فاستأذنت عليه فلم يأذن لى ، واذا كتاب الوزير قد ورد عليه: لايدخلن الصولى اليك .فكنت مجفوا محجوبا ، فلما شخص الى بغداد احتجب إذ أستتر يوما أو يومين لمعرفة الناس بكونى عندهم وثنائى عليهم ، فكنت عند السيد الشريف أبى عبد الله الموسانى ثم خرجت لتلقى سيف الدولة لأنه كان فى حداثته يلازمنى وقد قرأ على علما كثيرا . فجمع بعض جيرانى بقصر عيسى جماعة من العيارين ووهب لهم دراهم وكان له سكان فى مثل حمام ودكان وبثهم فى نواحى بغداد يصيحون ألا إن الصولى قد خرج مع البريدى وكان هو مع ابن قرابة آفة الناس معه ووجه بهم إلى بستانى الذى بحضرة بستان حميد فكسروا دواليبه وجروا نخله وهدموا أبنية أنفقت عليها ألفى دينار ولم يدعوا سقفا ولا خزانة الا نهبوه ، وفعلوا مثل ذلك ببستان بدوران ، وهو الذى كان لنجح بن جاخ ، وقد أنفق على أبنيته ألوف دنانير وماترك فيه شيء ، ورجعت من عكبرا فرأيت ذلك ، وعلم به سيف الدولة ، فقال ضع يدك على من شئت ،فكرهت أن أصدقه عن الحال فى فعل جارى ، وجاءنى أهل الناحية نعينوا لى جماعة فذكرتهم له ،فأمر بقطع أيديهم فنظرت فإذا ما مضى لا يعود وما أفعله بهم يحقد على أمثالهم ، فى زمان يتصنع كل قوم بألوان ويحدث فى الشهر منه دول ، فأطلقت عنهم . فياعجبا لقوم

حجبت عنهم وكان رئيسهم لى على هذه الحال ، أتهم فيهم بهذه التهمة ، ويفعل بى مثل هذا الفعل ، ثم يضرنى ذلك عند بعضهم إلى الآن ! .

قد قضيت وطرا من ذكرى حالى وإعلامى من يعلم حقيقتها ، وما جرت عليه ، تفرجا بذلك واستراحة إلى شكواه إلى الناس . وأنا أعود إلى شرح الحوادث وما جرى إن شاء الله

ولما انقضى أمر الديالم وخلع على ابن رايق للامارة ظهر أحمد بن على الكوفى من استتاره فاستكتبه ابن رايق لنفسه والخليفة ، وأراد أن يخلع عليه للوزارة فامتنع من قبول اسم الوزارة ، وعمل ما كان يعمله الوزراء ، ودبر أمر الناس كله أبو بكر محمد بن على بن مقاتل ، وصرف أبو جعفر محمد بن القاسم الكرخى إلى منزله فكانت وزارته للمتقى اثنين وثلاثين يوما

وشخص ابن رايق الى واسط فدخلها ، وانحدر البريديون إلى البصرة ، وكانت لابن رايق بواسط أمور عظام من تشاغله بالنبيذ ليله ونهاره ، حتى أن رؤساء أصحابه لا يرونه إلا لحظة فى كل مدة

وحضرت له دعوة عظيمة فى يوم صادفه فيه بعض الأتراك الى غير هذا مما يترك ذكره ، ثم راسل البريديين وواقفهم على حمل ، ورحل عن واسط الى بغداد وتجدد لهم رأى فى رد الوزارة الى أبى عبدالله البريدى فعقد ذلك له فى يوم الخميس للنصف من شهر ربيع الآخر ، فى هذه السنة ، وهى سنة ثلاثين وثلاثمائة . واستخلف له بالحضرة على خدمة السلطان وتدبير الطساسيج أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد ، وحملت

الخلع الى واسط ، فلبسها الوزير ، وركب فيها بين يدى داره وكنت أنا بواسط فقال لى : أعملت شيئا فى أمرنا هذا ؟ فأنشدته شعرا والله ما مدح أحد منهم قط بمثله فيه وهو

هَنيئًا للوَزيرِ قَضاءُ دَيْنٍ   بهِ أضحى الزمانُ قريرَ عَينِ
وعودُ وزارةٍ سيقَتْ اليهِ   كعودةِ قُرْبِ حِبٍّ بعدَ بَيْنِ
أبى عبدِ الالهِ أجلِّ كافٍ   تَسمَّحَ بالنُّضارِ وباللُّجَيْنِ
وبِنى ذاكَ يعقوبًا أخاهُ   وصنوهما الكريمَ أبا الحُسَيْنِ
هُما قمرا الزمانِ وغُرَّتاهُ   مُريحا المُلْكِ من عارٍ وشَيْنِ
أحلَّا منه نُصحًا وافتقادًا   مَصالحَهُ محلَّ الناظِرَيْنِ
وما كانَ الفسادُ وقدْ تعلَّى   ليَخفضَهُ سوى إصلاحِ ذَيْنِ
وبِنى ذاكَ عبدَ اللهِ فيهِ   فتاهُ فهو إحدى الحُسْنَيَيْنِ
هلالٌ لمْ تبدّدهُ الليالى   فينقصهُ مرورُ الفرقدَينِ
تُرادفُهُ السيادةُ غيرَ وانٍ   ويشبهُهُ تشابُهَ قُرَّتَيْنِ
كما أودعتَ سطرًا من كتابٍ   ولم تنقطهُ عَيْنًا بعدَ عَيْنِ
وزيرٌ مُقبلُ الأيامِ عالٍ   على أعدائهِ طلقُ اليدَيْنِ
يُهينُ المالَ بالأفضالِ جودًا   ومرقى الجودِ صعبٌ غيرُ هَيْنِ

سَيَقْضِيه الزَّمانَ بِطُولِ عُمْرٍ   وَتَمْلِيكُ الرِّياسَةِ كُلَّ دِينِ
غَدَتْ خِلَعٌ عَلَيْهِ تائِهــاتٌ   بِعالِي النَّفْسِ عالِي الذَّرْوَتَيْنِ
جَلَتْ بِسَوادِها ظُلَمَ اللَّيالِي   كَما تَجْلُو سَوادَ المُقْلَتَيْنِ
بِمَنْطِقِهِ يَلُوحُ الحَلْيُ فِيها   كَما لاحَتْ نُجُومُ الشِّعْرَيَيْنِ
تُناطُ مَعالِقٌ مِنْها رِقاقٌ   بِمَصْقُولٍ رَقِيقِ الشَّفْرَتَيْنِ
كَرَأْيٍ مِنْهُ يَفْعَلُ فِي اللَّيالِي   وَفِي الأَيّامِ فِعْلَ النَّيِّرَيْنِ
فَأَعْلَى اللهُ سادَتَنا جَمِيعًا   وَأَبْقاهُمْ بَقاءَ الفَرْقَدَيْنِ
وَقَلَّمَ عَنْهُمْ ظُفُرَ المَنايا   بِقُرْبِ مُناهُمُ وَبِبُعْدِ حَيْنِ
وَمُلْكٌ لِلْوَرَى وَصَفاءُ دَهْرٍ   يَرِينُ عَلَى عِداهُمْ أَيَّ رَيْنِ
فَكَمْ عَذَلُوا عَلَى إِفْراطِ بِرٍّ   فَمَا أَصْغَوْا لِعَذْلِ العاذِلِينَ
أَقُولُ بِما عَلِمْتُ مَقالَ صِدْقٍ   بَعِيدِ الشَّأْوِ مِنْ كَذِبٍ وَشَيْنِ
لَقَدْ صانُوا الوِزارَةَ بَعْدَ هَتْكٍ   وَزانُوها وَكانَتْ غَيْرَ زَيْنِ
بِرَأْيٍ مُسْتَنِيرٍ لِلْمَوالِي   وَصَعْبٍ لِلْمُعادِي غَيْرِ لَيْنِ
وَأَقْلامٍ تَحَكَّمُ فِي الأَعادِي   كَحُكْمِ السَّيْفِ وَالرُّمْحِ الرُّدَيْنِي
وَيَغْنَى الرُّمْحُ فِيها عَنْ ثِقافٍ   وَيَغْنَى السَّيْفُ عَنْ إِصْلاحِ قَيْنِ

وَتَحْفِقُ بِالَّذِى تَهْوَاهُ كُتْبٌ ... تَكُونُ بِهَا صَلَاحُ الْخَافِقَيْنِ
تَرَى الْأَقْدَارَ مُصْعِدَةً إِلَيْهِ ... تَسَحَّبُ بَيْنَ تَسْجِيَةٍ وَطَيْنِ
ثَوَابُكُمُ عَلَى إِصْلَاحِ مُلْكٍ ... ثَوَابُ شُهُودِ أُحْدٍ أَوْ حُنَيْنِ
فَرَعْتُمْ فِى بَنِى الْأَحْرَارِ طَوْرًا ... يَطُولُ الرَّعْنُ فِيهِ ذَا رُعَيْنِ
وَزَادَكُمُ مُحَمَّدُكُمْ عُلُوًّا ... وَيَعْقُوبٌ شَرِيفُ الْجَانِبَيْنِ
وَرِثْتُمْ عَنْهُمَا كَرَمًا وَفَضْلًا ... كَذَاكَ يَجِىءُ نَجْلُ الْفَاضِلَيْنِ
لَقَدْ أَصْلَحْتُمُ مَا بَيْنَ دَهْرِى ... عَلَى رَغْمِ الْعِدَى كَرَمًا وَبَيْنِى
سَأَقْضِى فِى مَدِيحِكُمُ حُقُوقًا ... كَمَا يُقْضَى حُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ

فوصلنى الجماعة على هذا وشكرونى سوى الوزير ، فانه كان عنده بمنزلة أردإ الشعر وأوضع المدح

ثم رأى السلطان وابن رايق أن يحلوا ما عقدوه من أمر البريدى وينقضوا ما أبرموه ؛ فخلع على أبى إسحاق محمد بن أحمد الاسكافى للوزارة ؛ يوم الاثنين لاحدى عشرة ليله خلت من جمادى الأولى ، وصرف به أبو جعفر بن شيرزاد إلى منزله

وصح عند السلطان عزم البريدى على قصد الحضرة فى جميع رجاله ، وذلك لمهانة ابن رايق ومطالبة ألف من الأتراك البجكمية له بأرزاقهم فلم يحسن أن يتلافاهم وترفق بهم ، حتى شذوا عنه ومضوا إلى البريدى

إلى واسط ، وكان الترجمان يزعم أنه هو الذى أصلحهم له وأفسدهم على السلطان ، فقووا نفسه وزينوا له ورود الحضرة ، فركب المتقى لله الظهر فى يوم الثلاثاء ، ثانى اليوم الذى خلع على القراريطى فيه للوزارة وأمر بالنداء فى العامة بلعن البريديين ، وتحريضهم على قتالهم . وبين يديه مصاحف منشورة فسار من داره إلى الجسر وركب الماء وعاد إلى قصره وأمر باصلاح العرادات والمنجنيقات حوالى داره ، وحفر خندق والحاجب فى الوقت سلامة

واستدعى ابن رايق العيارين ، فكان ذلك خطأ من رأيه عظيما

وخرج أبو الحسن على بن محمد البريدى من واسط يوم الاثنين لليلتين خلتا من جمادى الآخرة ولما قرب من بغداد بلغ الخبز فى عسكره رطلا بدرهم ثم لم يوجد

وفتح العيارون السجون ، وكان هذا من فعل ابن رايق توطئة لما يريد البريدى ، لكثرة العيث من العامة وغلبتهم على التجار واهل البيوتات . وعبر أصحاب البريدى نهر ديالى ، فحاربهم القرامطة وبدر الخرشنى ساعة ثم انهزموا

وفى الوقت الذى ركب الخليفة الماء من الجسر ورجع إلى قصره انقطع الجسر وانخلع الكرسى وهو مملوء بالنظارة ، فغرق خلق كثير من رجال ونساء وصبيان

وفى يوم الخميس لسبع بقين من جمادى الآخرة انهزم جيش ابن رايق والعامة ، وغرق من العامة بين يدى النجمى خلق كثير لا يضبطهم

العدد ، وخرج الخليفة وابن رايق إلى باب الشماسية وتبعهم الناس فباتوا بالبردان . وغرق أبو محمد بن سلامة الحاجب وكان فتى نفيسا قد تأدب وسمع حديثا كثيرا

وملك البريدى الدار ، ووجه بابن أبى داود الأوانى إلى الخليفة يحلف له أنه لا يريد إلا خدمته والانتهاء إلى ما يريده ويأمره به ، فلم يلتفت إلى ذلك ورحل إلى سرمن رأى ، ولحقه الحسين بن سعيد بن حمدان فى عسكره .

ونزل أبو الحسين البريدى دار مؤنس الخادم ، ووجه إلى خدم الدار فأحضرهم . وأمرهم بحفظ الحرم ، ووعدهم أنه يجرى عليهم جراية واسعة ، وضبط أبو عبد الله الأعمال كلها

ولقى الناس من الديالم وتنزلهم عليهم بلاء عظيما ، وقال بعض من عاين الأمر فى ذلك الوقت : أى شئ كان أحسن من أن يوجه بألف فارس ، ويضمن لهم مال حتى يردوا الخليفة وابن رايق فيجلس الخليفة فى داره ويوسع عليه ، وعلى حرمه وحشمه فى النفقات ، ويخلع على ابن رايق ويخرج إلى الشام على أجمل الحال ، فيكون الظفر القبيح أحسن ظفر ، وتحسن الأحدوثة .

وركب السكرى حاجب أبى الحسين البريدى ونادى ألا ينزل أحد من الجند على الحد فكف البلاء قليلا .

وخطب الخاطب يوم الجمعة فدعا للمتقى لله ، ونودى إن وجد مع عامى سلاح قتل

ووافت من ابن طغج هدية سرية للخليفة إلى الانبار فلما علم بما جرى ردها إلى هيت ، ورخصت الأسعار بمدينة السلام وسر الناس بذلك ، وحصل السلطان بالموصل فى رجب ، وقد كان العباس بن شقيق صاحب أمير خراسان وافى فأقام بالنهروان حتى يؤذن له فى الدخول فأذن له ووصل وجاء معه برأس ما كان الديلمى ، وشهر فى دجلة فى غرة شهر ربيع الأول ، وكان ركوب الخليفة إلى بثق النهروان يوم الثلاثاء لتسع خلون من شهر ربيع الأول فصلى عليه ، فما انصرف جنده (١) حتى تهور السكر وعاد البثق إلى حاله

ولما ملك جيش البريدى الدار نهبوا جميع ما وجدوا فيها ، وداروا فى صحونها ، وفعلوا ما لم يفعله أحد قبلهم ، فقد كان الخلفاء يقتلون بسر من رأى ودورهم محفوظة مصونة . ولما دخل الحاج بغداد فى أول صفر سالمين دخل معهم أبو العباس احمد بن سعيد بن عقبة الكوفى وكان أحفظ الناس للحديث وأكثرهم كتاباً له ، فوعد الناس لجلوسه فجلس يوم السبت لست خلون ، فى مسجد الشرقية فأملى وقرىء عليه وجلس بعد ذلك فى الجامعين الشرقى والغربى ، وحدث وجلس فى براثا مجلسين ، وأملى فضائل كثيرة

وعز الدقيق بمدينة السلام فلم يوجد فبعث المتقى لله بأبى الفرج المالكى القاضى إلى الحسن بن عبدالله يأمره بإدرار حمل الدقيق ، وقد كان المكوك بلغ ستة دراهم ، فجاء الدقيق فى شهر ربيع الآخر فصلح

(١) فى الأصل حدا

السعر. وأخذ رجل يعرف بالكرخى يقطع فى طريق واسط حتى انقطع الطريق من أجله فقتل. وصرف القضاء من الجانبين ببغداد وتقلد القضاء بهما أبو الحسن أحمد بن اسحاق الخرقى لأيام بقين من شهر ربيع الآخر. وخلع عليه فى يوم الخميس، فنزل فى جامع الرصافة وقرأ عهده

وقيل للحسن بن عبد الله إن ابن رايق قد عزم على قتلك، فبادره ففتك به وقد عبر إليه. ووافى بغداد الخبر بقتله لأربع بقين من رجب وأن السلطان زاد الفارس عشرة دنانير، وزاد الراجل ديناراً، وقبضوا أرزاقهم على ذلك وتسحب الديالم على أبى الحسين البريدى، فلما رأى ذلك أمرهم باللحاق بواسط، وأن الوزير يريدهم فخرج أكثر رؤسائهم. وأخبر ابو الحسين البريدى أن جماعة من الأتراك قد عزموا على الفتك به. وأن الأمير أبا الوفاء توزون التركى رأس ذلك وصاحب التدبير فيه، وعلم توزون بأن الخبر قد فشا فبادر فكبس دار مؤنس ليلا. ونقب فيها نقوبا كثيرة فلم يصل إلى ما أراد وحاربه الديلم وأصبح فكثر الجيش عليه، ولم يخرج إليه من كان وعده ان يكون معه فصار إلى البردان ثم صار إلى عكبرا وقبض على العمال وأخذهم بجباية المال، فقصده جماعة من القواد فناوشهم فلما رأى كثرتهم صار إلى سرمن رأى، وتأخرت أرزاق الديلم أياما فصاروا إلى الشماسية وصاحوا: خليفة يامنصور، فوجه إليهم فأرضاهم وعادوا

وولى ناصر الديلمى شرطة الجانب الشرقى مكان توزون فالتزم وأنصف.

وتواترت الأخبار بأقبال السلطان إلى بغداد ، وأن الأمير أبا الوفاء حركهم وقال كلوا الأمر إلى وكونوا من ورائى فأخرج البريدى المضارب إلى الشماسية ليقاتلهم ، وعيد السلطان بحبة من طريق ووافى ، الموصل تكريت وأخرج البريدى الأتراك والديلم إلى المضارب بباب الشماسية وأنفذ أبا طاهر القاضى ، برسالة إلى السلطان ، بأن يجىء إلى داره ، وينصرف هو والجيش عنه فعاد بجواب لم يحبه البريدى

وهرب قائدان من قواد الديالمة فى أربعمائة نفس إلى السلطان . ووجه البريدى بالترجمان من واسط فى عدة ورجال ، مددا لأخيه أبى الحسين ، فدخل بغداد يوم الثلاثاء لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال واتهم ابن شقيق صاحب أمير خراسان بأنه يضرب الجيش فأنفذه إلى واسط بعد أن أراد حبسه وتقييده ، فمنعه الاتراك من ذلك عصبية له

وخاف أبو الحسين البريدى أصحابه ولم يثق بهم فأرى الناس أنه مصاعد لقتال السلطان ، ثم انحدر هو وأصحابه ليلا ورمى بعضهم العامة

ووافى الحسن بن عبدالله بغداد ومعه مال أعده لعمارة بغداد وضياع السواد ، وذهب لتوزون مال عظيم فعوضه الحسن من ذلك رزق عشرة آلاف دينار كل شهرين برسم المماليك ، وضج الناس بالدعاء وضربت مائة قبة ودخل الخليفة بغداد يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من شوال ، وكان خروجه عنها يوم السبت ، لسبع ليال بقين من جمادى

الآخرة فكانت غيبته ثلاثه أشهر وعشرين يوما

وحمل البريدى عماله . معه حين انحدر وصادر بعضهم وقلد الأمير توزون جانبى بغداد ، وخلع على أبى إسحاق القراريطى للوزارة فى فى يوم الإثنين ، لست بقين من شوال

وقال الحسن بن عبد الله : مادة البريديين ضرائب التمر فتقدم بالنداء ألا يحمل أحد من التجار مالا إلى اسفل فغلا الثمن وبلغ مالم يبلغ مثله قط

ونزل الحسن وأخوه عند الشفيعى لينحدروا وغلت الأسعار فتشاءم (١) الناس بتلك الأيام، وقالوا : كان الرخص مع البريدى

وخلع على الحسن ابن عبد الله وطوق وسور بسوارين وسمى ناصر الدولة

وخلع على أخيه أبي الحسن وعمل به مثل ذلك ، ولقب سيف الدولة وقرئت الكتب وأنشئت بذلك

وصرف الحسن بدراً الخرشنى وولى أبا بكر احمد بن خاقان الحجبة وقد ذكرنا ذلك ، وخرج أبو الحسين البريدى يريد بغداد ، وخرج توزون فى مقدمة السلطان ووقعت الحرب لليلة خلت من ذى الحجة بموضع يعرف بالجال أسفل المدائن . فانكشف جيش البريدى وكان سبب ذلك انهزام الترجمان وأسر جماعة أحدهم يانس وقد ذكرنا هذا

وشهر ناصر الدولة أسر البريديين فى الجانب الغربى يوم

---

(١) فى الأصل فتأشم

الجمعة ، وصلى بجامع المدينة . وجرت بينه وبين الصيارف بمدينة السلام خطوب كثيرة فى عيار الدنانير ، حتى عمل عيار كالسندى أو مقاربا له ، وزاد فى سكة الدينار ـ عند ذكره محمد رسول الله ـ صلى الله عليه ، كأنه زاد صلى الله عليه ، والوفاء زيادة حسنة جميلة وفضيلة له فى الدنيا والآخرة .

وولى ناصر الدولة عيسى جال وكان فى المستأمنة ميفارقين .

ووافى سيف الدولة واسط ، فأراد قوم من الديالمة أن يفتكوا به فظفر بهم فوجههم إلى بغداد فى زورقين ، فقتل بعضهم ممن أقر وحبس من لم يقر وسقطت خضراء مدينة المنصور فى جمادى الآخرة فاغتم لذلك ولد العباس ، وحدثنى جماعة من التمارين أن ناصر الدولة خاطبهم فقال ما أعوض للضريبة على شىء سوى التمر ، وبارك الله لكم فى كل شىء غيره يعنى ضريبة ما حصل ببغداد قالوا فقال له رجل إلى جانبه ونحن نسمع : والدبس فقال والدبس ، فقال له والبسر فقال والبسر

وقال الذى أومأوا إليه أشرت بثلاثة ألوان فما قبلت منى : أشرت بأن يبادر الخليفة عند موت بجكم إلى واسط ، وينفذ الجيوش إلى البصرة فلم يقبل ، وأشرت بالقبض على تكينك وأخذ ماله وهو جم تام فلم يفعل . وأشرت بأن لا يوجه بان شيرزاد إلى البريديين فان ذهابه ينفعهم ويضرنا فلم يفعل ، فجعلت على نفسى ألا أشير بشىء بعد هذا

ولما استوزر محمد بن أحمد الاسكافى فى المرة الأولى استخلف الحسن ابن أحمد الماوردى على النظر فى أمر العمال وعلى سائر الأعمال، وقلد أحمد ابن نصر البازيان أبا على الرقام إلى ما كان قلده إياه أحمد بن على الكوفى من ديوان المغرب، وأقر الباقين على حالهم، إلا أبا عبيد الله بن عبد الوهاب فإنه قلده الدواوين التى كانت إلى جماعة من خواصه لاستئثاره عنده، ثم قلدها الأوارجى كاتب محمد بن على بن مقاتل

هذا جميع ما كان من الحوادث فى سنة ثلاثين وثلاثمائة ونذكر الآن من مات فيها. مات ابو عبد الله الحسين بن اسماعيل المحاملى القاضى يوم الخميس لثمان ليال بقين من شهر ربيع الآخر ونودى على حضور جنازته فى جانبى بغداد، وما كان بقى على الأرض محدث أسند منه، مع صدقه وثقته وستره رحمه الله. ومات فى صفر جعفر الدقاق لسبع خلون منه وكان حافظا للحديث فسبحان من بعد فى الستر والصدق بين الاثنين. وتوفى العباس بن المقتدر بالله يوم الخميس لإحدى عشرة ليلة بقيت من جمادى الآخرة.

ومات أبو بكر الشافعى الفقيه صاحب على بن عيسى يوم الجمعة لاثنتى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول

ومات على بن محمد بن عبيد الله الحافظ لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال، وكان قد سمع حديثاً كثيراً، وكان مولده سنة اثنتين وخمسين ومائتين

وقد ذكرنا قتل ابن رايق، وورد الخبر بأن يانسا المؤنسى وعلى بن

خلف بن طياب قاتلا ابن مقاتل الصغير ، المكنى ابا الحسن فقتلاه .

﴿ انقضت سنة ثلاثين وثلاثمائة بأحداثها ﴾

ثم دخلت سنة احدى وثلاثين وثلاثمائة

اشتد فيها ناصر الدولة على الذعار لعيثهم وإفسادهم فكحل وقتل وعاقب فاستوى البلد قليلا

وأنفذ أحمد بن على الكوفى للعمارة والنظر فى مصالحها وليوافيه على المال المفرق على الجند

وقدم المرسوم بأنه سابق الحاج لثمان ليال خلون من المحرم وأخبر بأن بنى هلال بن عامر بن صعصعة وقفوا بالحاج ، فقتلوهم ونهبوهم .

ودخل الحسن بن بويه الرى ، وهزم ابن محتاج صاحب ابن اسماعيل بن احمد .

وفى المحرم من هذه السنة ضرب ناصر الدولة دنانير بعيار اختاره لم يضرب قط مثله إلا السندى بن على

وكان الناس يكتبون على الدينار لا إله إلا الله من جانب محمد رسول الله من الجانب الآخر ، ويذكرون بعده نعت الخليفة فزاد ناصر الدولة فى السكة ـ بعد محمد رسول الله ـ صلى الله عليه ، فكانت هذه عندى أجل منقبة لآل حمدان ما كان لهم مثلها تفرد بها ناصر الدولة

وبلغه مع ذلك أن الصيارف يربون رباء ظاهرا ، فأحضرهم وحذرهم وأحلفهم ، فتحسن قبيح أمرهم قليلا

وخلع على أبي عبد الله الحسين بن سعيد بن حمدان لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم ، وولى أرمينية وآذربيجان وعقد له لواء.

وصاح المسجنون بناصر الدولة واستغاثوا إليه من الضر والجوع والسجن ، إلى جانب داره . فتأذى بهم وجاس لهم جلوس غضبان فأطلق وقتل وقطع وكحل ، وكل هـــذا من الاجراء عليهم ، فأخلى السجون فلم يترك فيها أحداً

وخلع فى أول صفر على العباس بن شقيق رسول نصر بن احمد أخى اسماعيل وعقد لصاحبه لواء ، فحمله غير منشور ، ودفع إليه سيف وخلع سرية لصاحبه، وقد كانت لابن شقيق هذا خطوب من اتهام أبي عبد الله البريدى له وكتابه من واسط إلى أخيه بغداد ، أن يحذره فزعم العباس لما أفلت ورجع أنه أراد قتله ، فمنعه وجود الأتراك من ذلك وأنه أخذ أكثر ما كان اشتراه لصاحبه من فاخر الثياب والفرش وغيرذلك ، واحتج عليه بالاضاقة والحاجة الى مثل هذا . ثم إن ابن شقيق جد فى الخروج الى صاحبه، وقد كان ورد علية الخبر بموته فاحتال أن كتب كتبا ونصب نبوخا ببطلان موت صاحبه ، خوفا أن يعطف السلطان على مابقى معه وما استنفده بعد فيأخذه ، فخرج عن بغداد وتبعه ناس كثيرون ، فناله ثلج فى الطريق بقرب همذان ، فمات أكثر الناس وذهبت أمتعتهم ؛ وكان ابن شقيق أسوأهم حالا .

وورد الخبر بغلبة الروم على أرزن وميافارقين ، ومجيئهم إلى دارا

وسبيهم الرجال والنساء ، فعظم ذلك على الناس

وقصد ناصر الدولة المولدين من المرتزقة فأسقط أرزاقهم ، ووفر المال على المقيمين بواسط لحرب البريديين ، وأخرج كاتبه النصرانى المعروف بسهلون إلى ابن طغج فى صفر بهدايا كثيرة ، وطلب مال للسلطان فخرج إلى هيت وركب البرية إلى دمشق ، ومعه خلق عظيم فهلك أكثرهم ونهب ما كان معهم .

وغلب البريديون على نواحى الجامدة ، لخلاف وقع بين سيف الدولة ، وبين توزون التركى

وصار أحمد بن بويه ابو الحسن الديلمى إلى دجلة البصرة ، فأقام حيال نهر معقل يحارب البريديين ، فوردت كتبهم على ناصر الدولة يسألون الصلح وأن يولوا ويقاطعوا على مال يحملونه ، فلم يجابوا .

وورد كتاب الديلمى يسأل مثل ذلك فأجيب اليه وأنفذت الكتب جوابات كتبه ، وخلع طمعا فى أن يزيل أمر البريديين ، واتصلت الحرب بينهم إلى أن استأمن إلى البريديين قائد للديلمى فحمل البريديون بين يديه مالا عظيما واعطوه من الثياب والطيب وسائر ما يعطاه مثله . ما عظم وشاع ذلك واستعظم إلى أن خاف ابن بويه ان يستأمن رؤساء عسكره ، لما اتصل بهم من الخبر بما عمل بالمستأمن ، فرحل راجعا إلى الأهواز

وتحدث الناس بأن القرمطى الهجرى ولد له مولود فأهدى اليه ابو عبد الله البريدى هدايا عظيمة فاخرة فيها مهد ذهب مرصع بالجواهر

وزوج الخليفة المتقى ابنه ابامنصور بابنة ناصر الدولة فى شهر ربيع الأول. ووقع الإملاك فى يوم سبت، ووكل ناصر الدولة، ابا عبد الله بن أبى موسى العباسى فى قبول ذلك عليه والقيام به عنه وجعل الصداق خمسمائة ألف درهم، وجعل النحلة مائة ألف دينار

وصاعد ابن الخليفة بعد الاملاك إلى ناصر الدولة إلى داره بباب خراسان فنثرت عليه بدرتا دنانير التقطها من كان معه وأصحاب ناصر الدولة، وتغدى عنده فى اليوم الثالث جماعة من قواده وتجاره فرأيت الناس كالمجتمعين على أنه كان طعاما ناقصا عن المقدار، مقصر الشرط والكمال والآلة

وكثرت المتلصصة ببغداد وكبست دور المياسير، وخرج الناس عن بغداد هاربين إلى كل وجه، على انسداد طرقهم، ولو أمنوا المخرج أضعاف من خرج

وراسل أبو الحسين على بن محمد بن مقلة ناصر الدولة، فى أن يستوزره وضمن مالا عظيما، على أن يطلق يده على الناس، وأسمى قوما منهم سلامة أخو نجاح وعبد الله بن على النفرى الكاتب، والقاضى ابن الأشنانى، وأبو العباس الأصبهانى، وابن بلال الدقاق حتى أتت التسمية على سبعين نفسا فيما يقال، فأجيب إلى ذلك مع ما ضمنه من مال أبى إسحاق محمد بن أحمد الاسكافى وأصحابه

ثم أخر ناصر الدولة أمر ابن مقلة واستوزر أبا العباس احمد بن عبد الله الأصبهانى، وهذا برأى أحمد بن على الكوفى، فلم يكن له فى

الوزارة إلا التسمية والكوفى ينظر فى الأعمال والأموال ، فكان على ذلك إلى أن هرب ناصر الدولة فصرفه المتقى لله صرفا جميلا ، وأقره على ما كان فى يده من تدبير أمر ضياع والدته وضياعه ، واستوزر أبا الحسين بن مقلة ، وخلع عليه فى شهر رمضان بعد خروج ناصر الدولة لولا أن ناصر الدولة لم يخرج ، حتى نكب سلامة الحاجب وابن الأشنانى القاضى وابن بلوا المعطى ، وعذبه عذابا شديدا ماسمع بمثله وذكر جماعة وسن من الضرائب على الناس مالم يسمع بمثله

وأتى قبل ذلك على التمارين بأخذ اموالهم . فحدثنى جماعة منهم قالوا دخلنا عليه وهو بالقرب من مضربه ، فقال لنا ما آخذ ضريبة إلا من التمر وأنتم أعلم وما لكم بعده ، فسررنا بذلك قليلا ، فالتفت إليه بعض من يدبر أمره ، فقال والدبس فقال والدبس ، فقال له والبسر فقال والبسر ، فأتى بقوله هذا علينا[1]

وضيق ناصر الدولة على المتقى لله فى نفقاته ، وعلى أهل داره وانتزع ضياعه وضياع والدته فجعلها فى جملته ، واقتصر به على أجزاء يسيرة

وخاطب أبا الحسن بن أبى عمرو الشرابى فى أمر السكنجبين بخطاب شهره الناس وتحاكوه ، وقال إنما يكفى دار الخليفة خماسية سكنجبين فى كل يوم ، ولأطالبنك بمال ما كنت تأخذه

وتحدث الناس من فعله هذا وصنعه بالخليفة ، ما كثر به الشاكى له والداعى عليه ، وتمنى الناس بنى البريدى وغيرهم ، مع ما نالهم من

(١) سبق ذكر هذه الفقرة فى صفحة ٢٠٩

الضر والضرائب والغلاء ونكبات الناس ، وأخذ أموالهم . وشكى مع ذلك أن أمر الرفض قد علن ببغداد ، فنادى مناد فى جانبى بغداد عن السلطان ببراءة الذمة ممن سمع بذكر أحد من الصحابة بسوء

وأراد غلام من غلمان ناصر الدولة أن يسمه ففطن له ، وزعموا أن سبب ذلك فاتك حاجب ابن رائق كان محبوسا فى دار ناصر الدولة ، وكان يعرف هذا الغلام فواطأه على ذلك وضمن له مالا

وغلت الأسعار فى جمادى الآخرة غلاء عظيما ، ومات الناس جوعا ووقع فيهم الوباء ، فكانوا يبقون على الطريق أياما لا يدفنون حتى أكلت الكلاب بعضهم

وأنفذ ناصر الدولة حاجبه يرفع مددا لأخيه على سيف الدولة ليمضى إلى الجامدة ، وحدر معه أحمد بن على الكوفى واتهم ابن جعفر الخياط بأنه كاتب البريديين فقبض عليه ناصر الدولة وأقطع الخليفة ضياعه فاستبشع أن يكون هو المقطع للخليفة ، وأن يدون الكتب بذلك

وخرج الناس إلى المصلى يوم الاثنين مع الامام ابن عبد العزيز الهاشمى ؛ فدعوا الله وسألوه أن يكشف البلاء والضر عنهم

وفى جمادى هرب جماعة من رؤساء الديلم والبربر من بغداد إلى البريدى ، فلم يتبعهم ناصر الدولة بطلب ، وقال من اختار المقام معنا وإلا فليمض مضيا ظاهرا فما أحد يتبعه

وورد الخبر بقبول على بن بويه خلع السلطان بفارس ، ولبسه لها

واحضاره القضاة والعدول ليشهدوا ذلك ويكتبوا به .

وصحت الأخبار بموت نصر بن أحمد أمير خراسان وأن ابنه نوح ابن نصر قام مقامه بعد أن تنازع هو وأخوه اسماعيل عند الاياس من أبيهما أمر الامرة فأفاق أبوهما ، فأمر بقتل ابنه اسماعيل وأن يجدد البيعة لنوح ، وأوصى أن يجلس فى الثغور لقتال الأتراك ألف دابة من دوابه ، وأعتق ألف غـــلام

وأرجف الناس بأن ابن طغج وافى دمشق لينفذ جيشا لأخذ الموصل فكتب اليه السلطان فى الرجوع إلى مصر فرجع

ووقعت منازعة بين الطالبيين والعباسيين فى رجل طالبي زعموا أن أصحاب ابن عبد العزيز قتلوه ، فجرت فيه خطوب ثم سكن الأمر وذلك فى رجب

وكثر الجراد فى هذا الوقت فصاده الناس ، وانتفع الضعفاء بأكله وصيده ، وكان نعمة من نعم الله جل وعلا

ووافى رسل صاحب خراسان إلى ناصر الدولة فحجبهم أياما ، ثم أدخلهم وقال لهم صاحبكم فى يده نصف الدنيا ، ينال السلطان ما ناله فلا يسعفه بمال ولا ينجده بجيش ، ولم يروا عنده ما يحبون ، ثم أجابهم بجواب جميل وصرفهم ، وغلت الأسعار وعز كل شيء من سائر الأطعمة والملبوس

وقبض على أبى إسحاق القراريطى فى رجب وعلى كاتبه ابن جبرويه وعلى خليفته أبى محمد الحسين بن أحمد المادرانى وتولى مناظرتهم أحمد

ابن على الكوفى وابن مقاتل بميل وحقد ، وكان الكوفى عقـــد على المادرانى كلاما كلمه به قبل هذا بمديدة بحضرة أبى اسحاق قال فيه ما شهره الناس من وضع منه وإزراء عليه ، فصح عند ناصر الدولة ان المادرانى ماظلم أحداً قط فى معاملة ، ولا ارتفق من عمل ولا عامل فانصرف إلى بيتـه موقورا بعد توكيل ومناظرة ومطالبة . وقد ذكرنا أنه خلع على أحمد بن عبد الله الاصبهانى للوزارة برأى الكوفى ، لأنه كان مستترا عنده ، وأرزق مائتى دينـار فى الشهر ، وكانت الخلع عليه يوم الثلاثاء لاثنتى عشرة ليلة بقيت من رجب . وأغرى ابن مقاتل العمال بالناس ، فأجروا معهم كل ظلم ، وأراد فتح الخراج قبل وقته فضج الناس . فنودى بتأخير الافتتاح إلى النوروز المعتضدى ورفع الجور وإزالة الظلم فتنفس الناس قليلا وما وقع وفاء بذلك

وكان ناصر الدولة يحمـل فى كل شهرين خمسمائة ألف دينار لاستحقاق من بواسط ، وكان يضجره ذلك فيتكلم ويضج . وعقد عليه بمايتكلم به ، إلى أن تحدث الناس أن يرصد بحيلة توقع عليه ، فياليت ما كان يضر من تبرم رجل يحمل فى كل شهرين هذا المـال الجليل ، ما الذى أريد منه حتى أوحشوه فخرج ؟

وكان من أول ذلك أن المتقى لله ما أحب القبض على وزيره أبى إسحاق ولا أراده ، فأرضوه بأن أقاموا مكانه كاتبه على ضيـاعه أبا العباس الاصبهانى . وأنفـذ سيف الدولة من واسط فى هذا الوقت جماعة من الديلم إلى بغـداد ، كان اتهمهم وخافهم .

وتواترت الأخبار باضطراب الأتراك على سيف الدولة وترك بعضهم الركوب إليه على فرط إحسانه إليهم، وإعطائه إياهم جميع ما يملكه من مال ودواب وثياب. ولم يناصح الأتراك فى حرب البريديين، ولا أعانوا الديلمى عليهم حين جاء إلى فرات البصرة فأقام حيال نهر معقل

وضج الحشم إلى ناصر الدولة بعد القبض على أبى إسحاق القراريطى، وأعلموه أنه لم يطلق لهم شيئاً، فقال قد أطلقت لكم ثلث رزق، وأحضر أبا اسحاق واشتد عليه فى القول، فأحضره أبو اسحاق رقاعا بخط المتقى لله بأنه قبض المال منه وأعطى من أراد اليسير منه واستبد بالباقى. فقال ناصر الدولة كيف اصنع انا، أطلق مثل هذه الأموال الجليلة تحمل على نفسى، ومالى وظلم الناس، وهذا يهجنه ويقبح فعلى، ويغرى بى حشمه وجنده

ووافق هذا ورود كتاب أخيه عليه بأن البريديين دخلوا الجامدة وأن الأتراك نهبوا جميع ما كان له من ذخيرة وسلاح ودواب، وما كان ذخره منذ أيام أبيه، وأنهم طلبوه فهرب فى نحو مائتين من أصحابه إلى أن تلاحقوا به وأفلت. فغضب من ذلك وأمر من وقته فصوعد بالسفن التى فيها خزائنه. وقال لا أقمت ببغداد، فضج الناس من ذلك واجتمعوا إليه وسألوه ألا يباعد إلى الموصل فيضيع البلد فضمن لهم ألا يصاعد، وقال لحقتنى ضجرة

وكان وجه فى شعبان فطلب من الخليفة مالا، وقال إنه يأخذ

مما أطلقه لحشمه وغلمانه ، فيجمعه إلى مايستفضله من نفقاته وغلاته ، فما وجه إليه بشىء . فاستوحش كل واحد منهما من صاحبه ،

وطولب الناس بأداء الخراج فى شعبان ، ولم ينتظر بهم النوروز المعتضدى .

وورد على ناصر الدولة دخول عدل حاجب بجـكم نصيبين واستيلاؤه على الرحبة وأعمالها ، فشغل ذلك قلبه

وورد كتاب ياروخ بهزيمته البريديين وإخراجهم عن الجامدة

وضج الأشراف العلوية من عاملهم أبى على الحسن بن هارون الهمدانى على الكوفة وخاصة عمر بن يحيى وهو الرجل الفاضل المنتفع به الناس بماله وجاهه والناصب نفسه لهم حتى يحج بهم ، ولولاه ما تم حج فعزل الحسن بن هارون ، وولى المعروف بأبى بكر عبدالله بن عبيد الله البرجمالى .

وكتب ناصر الدولة إلى ابن عمه أبى عبد الله الحسين بن سعيد يأمره بالاحتيال على عدل وقصده ، فكبسه وأسره وابناله وأنفذه الى بغداد ، فكحل وشهر على جمل فى يوم الخميس لأربع بقين من شعبان ، وألبس برنسا وابنه على جمل بين يديه على برنس ، وكان فى الموكب خلفه الوزير أبو العباس الأصبهانى والقاضى ابن الخرقى يتسايران

وكان يانس غلام البريدى فى يد ناصر الدولة فتكاتبوا فى أن يوجه به إليه ، ويوجه البريدى بعيال توزون وابنه ، وأن يقوم بذلك أبو على عمر بن يحيى

ووجه ناصر الدولة بأحمد بن على الكوفى إلى واسط . ومعه من الاستحقاق أربعمائة ألف دينار فوجد الأتراك قد شغبوا ، فرجع والمال معه ؛ حتى عاد إلى ناصر الدولة ، فدخل به بغداد أول يوم من شهر رمضان

وصرف أبو اسحاق القراريطى إلى منزله فى آخر شعبان بعد أدائه أكثر ما فورق عليه

وضرب لناصر الدولة مضرب بباب الشماسية ، واصطنع عيسى جال الديلمى فزاد فى رزقه ألف دينار ووصله بألفى دينار . وزاد الفارس من أصحابه عشرة دنانير فى رزقه ، وزاد الراجل دينارا

وعزم ناصر الدولة على الرحيل إلى الموصل فوجه إليه الخليفة أن يتوقف عليه ليصاعد معه ، فكره ذلك وركب إليه الخليفة فى يوم الخميس ، فنزل إليه ناصر الدولة إلى دجلة حتى تلقاه وصعد معه إلى داره وقال له تتوقف يوما على أو يومين فكأنه علق القول وانصرف

وأصبح الناس فى يوم الجمعة لأيام خلت من شهر رمضان ، وقد صاعد ناصر الدولة وقطع الجسر ، وسار من الجانب الغربى ، وتبعه جميع من كان فى الجانب الغربى من اصحابه ، ونفر من كان من اصحابه فى الجانب الشرقى ، فمضى بعضهم إلى سرمن رأى ، ورجع الترجمان وجماعة من الأتراك مع أخى ابن اسماعيل بن احمد إلى الدار ، وأرجف الناس ان الخليفة راسل الترجمان فى القبض على ناصر الدولة والمجىء به الدار ، فأمكنه غير مرة فلم يمكنه لأنه جاهل جبان

وصعب على التجار خروج ناصر الدولة عن بغداد ، ووافى سيف الدولة إلى المداين ، ثم صار إلى بغداد فنزل فى الجانب عند باب قطربل ووجه إليه المتقى لله بثياب وطيب ودراهم لنفقته

وطالب الوزير ابن مقلة بأن يحمل إليه مالا فكان يجمع ما قدر عليه فلما اجتمع حمله إليه ليعطى أصحابه واستوحش السلطان منه ثم رحل إلى التفس ولحق به إبراهيم بن أحمد الخراسانى فى نفر من أصحاب أخيه ببغداد

وورد الخبر عليه بأن أخاه ناصر الدولة وصل إلى الموصل سالما فلحق به لا يلوى على شىء ؛ فقيل إن جملة ماصار إليه من المال أربعمائة ألف درهم

ودخل الأمير يومئذ توزون بغداد فى يوم الخميس لست بقين من شهر رمضان ، وتلقاه أهل الدولة فدخل إلى الخليفة فسلم عليه ونزل الدار المعروفة بمؤنس وتأذى الناس بنزول الأتراك عليهم

ثم كان شوال يوم الأربعاء فقبض توزون على كاتبه سعيد بن داود المسيحى وعلى أخيه فهد وابن خالته ، فطالبهم بالأموال بضرب مبرح ، وكان الترجمان حمله على ذلك واستكتب محمد بن القاسم

وخلع السلطان فى يوم الاثنين لست خلون من شوال على الأمير توزون وصيره أمير الأمراء وأمر بتكنيته

وحرص توزون بالمتقى لله أن يتركه يصالح البريديين على مال يحملونه ويفرغه لابن حمدان فأبى عليه ، وكان البريديون قد صاروا

إلى واسط فوجه بخمسمائة غلام فى الظهر والماء إلى واسط

وقبض على ابن عبد العزيز الهاشمى وجماعة من التجار والعدول وطولبوا بمال

وحدر الامير توزون تكين الشيرزاذى إلى واسط ، ووافى أبو دلف سيما الساجى إلى بغداد ، وهو صاحب القرمطى الهجرى ليأخذ مال الموافقة التى فورق القرامط عليها

وكبس أهل القطيعة فى أول ذى القعدة فأخذ منهم عشرون كراً دقيقاً وأحيلوا بثمنه على الترجمان فى أول ذى القعدة ، ثم مضى جماعة من أصحاب توزون إلى القطيعة ليأخذوا دقيقا كما كانوا أخذوا ، فوثب بهم العامة وقتلوا نفسين وغلا السعر بهذا السبب ، ودخل الحاج من خراسان وخرجوا مع ابن حاتم

وانحدر الأمير توزون إلى واسط وهرب البريديون، ونودى ببغداد من أراد الخروج إلى واسط فليخرج

وقبض المتقى على رجل يعرف بابن المطلب من أهل باب الطاق وحمله إلى داره وقيده وحبسه وقال له أنت رئيس الرافضة ، ثم لم يتركه بعض خدمه حتى قتله من غير حجة تقوم عليه ، ونفذ ابن أبى موسى الهاشمى فى يوم الاثنين لست بقين من ذى القعدة برسالة السلطان إلى ناصر الدولة ، ومعه تكين الماكانى وخادم من خدم الخليفة

واتصل قطع رجل يعرف بابن جمدى على السميريات النافذة إلى واسط والمصاعدة منها ، وصار اليه من ذلك مال عظيم وأمتعة لها مقدار

وفى ذى القعدة أقبل يوسف بن وجيه صاحب عمان من عمان ، ومعه مراكب كثيرة فيها عدة وعديد ، لتغليظ البريديين الضرائب على ما يحمل من البحر ، فلقى البريدى فى دجلة البصرة بقرب الأبلة ، فهزمهم أول يوم ثم احتالوا بنار حملت فى زبازب وجعلت فى زجاج ورموا مراكبهم بها فانهزم وقتل خلق من أصحابه ، وأسر بعض وأحرقت له ستة مراكب ، وكانت هزيمتهم له فى أول يوم من ذى الحجة سنة إحدى وثلاثين وثلاثمائة ، وصرف الكرخى عن كتبة الأمير توزون واستكتب أبو اسحاق القراريطى ابن أبى الترجمان ، وظفر بجماعة من أصحاب ابن حمدى فقتلوا وصلبوا . ودخل أخو الأمير توزون إلى تكريت ومعه جيشه فدخلها لثلاث عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة ، فنهبها ونهب زواريق كانت بها ، فيها أمتعة التجار ، وذبحوا بها من البقر والغنم نحو ألفين ، ونهب الناس فى سائر طرقهم إلى تكريت . وعزت الفاكهة ببغداد لأنهم أخذوها ظاهرا وباطنا وأجلوا اهل القرى . وركب الخليفة فى يوم السبت ، لتسع بقين من ذى الحجة الظاهر إلى باب الشماسية ورجع فى الماء فدعا الناس له . ووافى صافى غلام الأمير توزون يوم السبت لليلتين بقيتا من ذى الحجة بغداد من واسط فقبض على أبى إسحق القراريطى ، وأخبر أن أبا جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد وافى واسط فى زبازب كثيرة ، كالهارب من يد البريديين لما اشتغلوا بمحاربة ابن وجيه ، وأسرع السير فوجهوا فى طلبه ، فلحق واستكتب للامير توزون ، فاشتد ذلك على السلطان فأغروه بالقول فيه ، فكاتبه

فى صرفه فلم يقبل . ومن عجيب الأخبار، وما يستدل به على علو همة الأمير توزون أن أبا جعفر اختار له كاتبا، وأبو جعفر إذ ذاك يكتب لبجكم، فكأنه لم يرضه فقال له أبو جعفر أنا كاتبك فقال له وأنت تكتب لى ولكن ليس على هذه الجهة، ولا الآن ؛ وتوفى فى هذه السنة فى غرة ذى القعدة منها سنان بن ثابت المتطبب وكان متقدما فى الطب وفى علوم أخر كثيرة

ثم دخلت سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة

كان أول المحرم يوم الاثنين قعد فيه كازاذ كاتب أبى جعفر ، وظهر ابو الحسن بن شيرزاد . وخرج أبو بكر محمد بن جعفر النقيب وصيغون المرداويجى فى جماعة من أصحابهما إلى ناصر الدولة إلى الموصل ، وانحدر صافى مع جماعة من الأتراك والديلم إلى واسط .

وورد الخلنجى السابق بسلامة الحاج قدام الحج لسبع خلون من المحرم

[و] فى يوم أخذ سبعة من أصحاب ابن جمدى فضربوا وطيف بهم وقتلوا وصلبوا فى الجسر ، وقتل أيضاً رجل يعرف ببرغوث كان يقطع بناحية المزرفة .

ووجه الترجمان وهو محمد بن ينال ، وكان يلى الشرطة ببغداد والأمر كله له إلى الحسين العلوى الديلمى ، فقبض عليه لأنه بلغه أنه يريد الفرار إلى ناصر الدولة

ووافى اسكورج الديلمى بغداد يوم الثلاثاء لأربع عشرة [ليلة] بقيت من المحرم وهو أكبر قوادهم ، وقلده الأمير عمل سرمن رأى وعكبرى وأمره أن يكون بسرمن رأى ، فان جاء أحد من ناحية ابن حمدان حاربه ، والأمير توزون مقيم على أرز بالجامدة ليستنطقه

ووافى من عسكر البريديين إلى الأمير توزون فى الامان أبو المهدى البربرى فأنفذه إلى بغداد ، وأغارت خيل الروم على نواحى نصيبين ، واستغاثوا بناصر الدولة فلم يغثهم ، لأنه كان قد جرب خيانته مع ابن عمه أبى عبد الله ليصيروا إلى بغداد ليخرج الخليفة معهم

ووافى أبو جعفر محمد بن يحيى ابن شيرزاد بغداد لأربع بقين من المحرم فجلس فى داره وجاءه الناس ، وهو كاتب الأمير توزون فاستأمن بعض أصحاب اسكورج وصافى إلى واسط وأبو المهدى ، وأبو طالب أخو المظفر بن حمدان الميدمان ، وإبراهيم أخو الأمير توزون

واستتر أصحاب أبى جعفر بن شيرزاد ، ووافى الحسين بن أبى العلاء بن حمدان فى صفر ، فنزل حيال الشماسية ومع أبى العلاء هذا عيسى جال الديلمى وأبو وائل ويروخ الناصرى ، فوجه إليه المتقى لله أن يدخل بغداد ليخرج معه فقال لم أومر بهذا ، واستوحش وقال إن خرج إلىّ أمير المؤمنين اليوم وإلا رجعت . وأشير على المتقى ألا يخرج عن بغداد فما تركه الترجمان ، وكان قد استوحش من الأمير توزون لأشياء اختانها وتعدى فيها

ولقد حدثنى بعض الخدم أن بعض الرؤساء قال للمتقى لله ياسيدى خروجك إلى ابن حمدان أشد على توزون من ضرب عنقه ، وفى خروجك انحلال أمره وأعظم المكيدة له

ولا والله مانصحوه وإنما خافوا على أنفسهم من توزون ، فخوفوا الخليفة منه ولو كان معه من ذوى نصحه من كان يعرف حقيقة الرأى ماتركه يخرج . وذلك أن توزون ما خالفه فى شئ أراده ، وما زال ساعياً فى مراده ومحبوبه ، كان أمره جاريا مع البريدى ببغداد على أفضل إرادته فلأجل الخليفة ما احتال فى أخذ البريدى ، فلم يمكنه ذلك لخذلان قوم كانوا وعدوه أن يكونوا معه ، فحارب ليله ونهاره ثم صار إلى سرمن رأى وكتب إلى الموصل يشير بالانحدار إليه وأنه يتضمن حرب القوم فما فعلوا ، حتى خرج إليهم فحشرهم وأنهضهم ، وقد كان أشار بمصالحة البريدى ، وأخذ أموال منه ، ثم يكون بعد ذلك على رأس أمره ، فأبى الخليفة عليه ، فاتبع أمره وانحدر وكان كاتبه فى الحيلة على بنى حمدان ؛ فأخرج سيف الدولة عن واسط فما الذى أوجب أن يستوحش منه ؟

ولقد صرت إلى القاضى أبى الحسين ، فقلت له إن هـذا الخليفة ما يجالسنا ، وزعم أنه لا يريد جليسا ، يخالف الناس جميعا فى هذا إلى عصره ، وليس له رزق على ، ولـكن نصحه واجب ،وهو يقبل رأيك فاتق الله ولا تدعه يخرج ، فانه إن خرج لم يعد وخربت بغداد ، وأضر بالعامة ، فتضمن لى ذلك . وما ظننت أن أحدا فعل هذا معه غيرى .

حتى حدثنى القاضى أبو عبد الله محمد بن عيسى أنه صار اليه فأشار عليه بمثل مشورتى فأبى الله عز وجل إلا ما أراد

ولقد حدثنى بعض الخدم ممن أثق به أن المتقى لله اضطرب من الخروج ، فقال له الترجمان ومساعدوه على هذا الرأى : إنا قد تحدثنا بالقبض عليك فامتنعنا من ذلك ، وأشرنا بالخروج عليك ، وقد كشفنا الأمر لك .

فلما سمع هذا خرج غداة يوم الخميس وركب على الظهر ، ووافى الشماسية ، وخرج معه وزيره على بن محمد بن مقلة والحاجب أحمد بن خاقان ولؤلؤ صاحب الشرطة وأبو جعفر الخياط ، وتبعه حاشية الدار وجماعة من وجوه البلد

وجلس المتقى لله فى الخراقة ، وتلاحق به من بقى من حاشيته وخرج معه قاضيه وأسبابه ، وجاء ابن أبى العلاء وجميع من معه فقبلوا يده وعرفوه سرور ناصر الدولة بمصيره اليه .

وركب الترجمان يوم الجمعة من الجانب الغربى بمطارد مذهبة ومعه أصحابه ، وأودع جميع ما كان له قبل خروجه أياما متوالية ، حتى أودع أصناف النبيذ فوجد بعد ذلك فما بقى الله منه شيئا .

وصلى صاحب الصلاة بالناس فى المعسكر يوم الجمعة لثلاث خلون من صفر ، ومدت خراقات الخليفة بعد الصلاة ودخل الناس معه ، وخلت بغداد واستوحش أهلها

وكتب الخليفة إلى صاحب الشرقية أحمد بن جعفر الزطى بكتاب

يأمره أن ينادى بما فيه فنادى «أمر أمير المؤمنين أطال الله بقاءه بالنداء ببراءة الذمة ممن فتح من العمال والمتصرفين شيئا من الدواوين، أو نظر فى الأعمال أو طالب بخراج أو تصرف فى عمل من الأعمال السلطانية بعد شخوص أمير المؤمنين، فقد أحل بنفسه العقوبة الموجعة وهجم داره وإباحة ماله، فقد أحب أمير المؤمنين ترقية رعيته، والاحتياط لهم، وترك إعناتهم فليحذر المخالفون لذلك، وليلحق بأمير المؤمنين سائر عماله وأوليائه، ولا يتأخروا عن معسكره، وليبلغ سامع هذا النداء الغائب عنه» فنودى من جانبى بغداد

ولم يدع المتقى لله بعض خدمه حتى ضرب يوم الجمعة قبل الصلاة عنق ابن المطلب، المتهم بالرفض. وكان ناصر الدولة وأسبابه يعنون به ورمى بجسمه فى [أ]زقة الشماسية فبكر الناس يوم السبت، فأخذوه وغسلوه وكفنوه بعد أن صلى عليه بمسجد براثا ودفن هناك.

وضبط صاحب الشرقية عمله ضبطا حسنا، وكذلك العروضى وهو إبراهيم بن شيخون وكان إليه الجانب الشرقى

ووافى من عسكر توزون ببغداد جماعة فلحقوا بالخليفة، ووافى بغداد يوم الثلاثاء بشرى حاجب توزون واسكورج، وصاروا إلى دار أبى جعفر محمد بن يحي بن شيرزاد، وظهر فى داره فأمر ونهى وولى، وما التفت الناس إلى شىء مما أمر الخليفة بالنداء به.

وكان الأمير وجه من واسط بالميدمان بن حمدان البريدى فى جيش كثيف إلى ناحية المذار، فهزمه أصحاب البريدى، فوافى نحو

واسط منهزما ، وصلى الناس بسر من رأى يوم الجمعة فى معسكره

ووافى بغداد ينال البكرانى وتكيز الشيرزادى وأخو الأمير توزون ، وجماعة من القواد فنزلوا باب الشماسية ومعهم طياراتهم وزبازبهم

ونزل السلطان تكريت ونفذ الترجمان ولؤلؤ وابن الخياط إلى الموصل على طريق البرية ، لأخذ أرزاقهم وحدره إلى تكريت لمحاربة توزون ، وكثرت الكبسات ببغداد فى الليل دور المياسر

ووافى عكبرى ابن بلال من قواد ابن حمدان فكبس عكبرى وبها أصحاب اسكورج فقتل جماعة منهم وانهزموا وأقاموا بنواحى عكبرى فوجه اسكورج بخيل فهزمت ابن بلال وملكوا عكبرى

وظهر ابن جمدى العيار ، وكان حمالا بنواحى سوق الحديد باب درب الشوك بحضرة المزملة ثم صار لصا ببغداد ، فولاه أبو جعفر بن شيرزاد طريق واسط ، وخلع عليه ، وطالب أبو جعفر بن شيرزاد التجار بأموال فاستتر أكثرهم

وورد الحاج فى النصف من صفر شاكرين لأبى على محمد بن يحيى العلوى لحفظه لهم ورفقه بهم ، وكانوا احجوا والوقت ضيق عليهم فمات أكثرهم فى الطريق ، ولولا أن الله أغاثهم فى مصعدهم بسحابة أرسلها ، فمطرت حتى عاشوا بها وعاشت جمالهم ما بقى منهم أحد

وكان رسول ابن طغج قد وافى بهدايا إلى ناحية الانبار ، فلما علم بأمر السلطان صار إلى تكريت ، فأوصل الهدايا إلى المتقى لله

وكبس الروم رأس عين ، فأخذوا جميع ما كان فيها ونهبوها ووجدوا فيها قوافل مصعدة ومنحدرة ، فيها أمتعة لا يدرى قيمتها فأخذت كلها ، ونال المسلمين ما لم ينلهم مثله قط . فلما أراد العدو الرحيل أحرق البلد ، وفتحت الحوالى لسنة اثنتين فى شهر ربيع الاول ، فلحق أهل الذمة خبط عظيم وظلم قبيح

ووافى توزون بغداد فقدم جماعة من أصحابه إلى سر من رأى ووافى ملهم بن دينار الأسود المستأمن ، وكان حاجب رافع القرمطى وانضم إلى ابن حمدان إلى حيال باب الشماسية فجعل يشتم توزون هو وأصحابه ، فأمر توزون حينئذ بأن يصير اليه عسكر بخيمهم ومضاربهم إلى الجانب الغربى ، ورجع ملهم إلى تكريت ، ووافى الخبر لخمس بقين من شهر ربيع الأول بدخول البريدى واسط

ووقع على التجار ببغداد ظلم عظيم وخبط شديد ، وتهارب الناس وخرج عن بغداد جماعة من مياسير اليهود والمجوس إلى الشام وكاتب توزون البريدى ووافقه على مال بعينه فوجه اليه البريدى بمال ، ووافى جميع من كان من جيش توزون فى طريق واسط إلى معسكره بباب الشماسية ، وفر بعض غلمان توزون إلى تكريت فركب فلحق بعضهم فقتل من كان قبض رزقه وفر ، ومنّ على من لم يقبض رزقه

وانحدرت من عسكره زبازب إلى البريدى فى الأمان من الديلم ، وغلت الأسعار ببغداد وإمارة بغداد ، من قبل أن يقدم توزون إلى هذا الوقت

وأمر صافى غلامه وحاجبه، فوظف على أصحاب الشرطة أموالا وأخذها

ووجه ابن فتان بمائة جمل إلى تكريت عليها هدايا أكثرها فاكهة للسلطان

ورحل توزون من معسكره إلى عكبرى يوم الثلاثاء لأيام بقين من شهر ربيع الآخر، وخلف بباب الشماسية أخاه وكيغلغ وارتمش فى ثلاثمائة من الأتراك، ونودى ببغداد ببراءة الذمة ممن تخلف من الجند عن الأمير توزون، وأطلق دعلج العدل وهو من أجل الشهود لعشر بقين من شهر ربيع الآخر، بعد أن أدى مائة ألف درهم، وولى اسكورج إمارة بغداد

وواقع القرامطة أصحاب ناصر الدولة بجماعة من الأتراك، كانوا طلائع لتوزون بنواحى سرمن رأى، وقتلوا قائدا لهم فحمل فى تابوت إلى بغداد ودفن فيها

وعبر الأمير توزون من سرمن رأى إلى جانب الغربى، ليكون مع ناصر الدولة على أرض واحدة، وكان ناصر الدولة لما وافى تكريت أعطى الناس أرزاقهم فى شهر ربيع الآخر، وكان بتكريت نحو مائة وخمسين زورقا فيها دقيق وحنطة وشعير وسقط وشحم وعسل وثياب وغير ذلك فأمنوا بناصر الدولة

ولما قبض الناس أرزاقهم تقدم سيف الدولة فعسكر أسفل تكريت على الاسحاقى وأنفذ ناصر الدولة أبا منصور عبد الواحد بن المتقى لله

وحرمه إلى الموصل قبل الوقعة ، وأراد إنفاذ المتقى معهم فكره ذلك واختار المقام مع ناصر الدولة ، فأشفق عليه فقدمه إلى موضع يعرف بالأعمى فوق تكريت بستة فراسخ ، وأقام ناصر الدولة فوق تكريت قليلا بازاء الديرووجه بقواده كلهم مع أخيه سيف الدولة منهم يروخ وعيسى جال والترجمان واؤلؤ وأرسلان وابرهيم بن أحمد بن أمير خراسان

فواقع سيف الدولة توزون ، يوم الأربعاء لخمس بقين من شهر ربيع الآخر ، ثم تحاجزوا ، وقد وقعت بأسكورج ضربات . ولم يشك سيف الدولة أنه ظافر لأنه قاتل فى يومه ذاك أشد قتال ، فبكر على القتال يوم الخميس لأربع بقين من الشهر . وكان سيف الدولة كمن بين قشير ونمير ، ليخرجوا إذا احتدت الحرب على أصحاب توزون ، فلما علق بعض القوم ببعض عطفت قشير ونمير على سواد سيف الدولة فنهبوه ، تعصبا زعموا للمضرية على الربعية ، فظن سيف الدولة أن توزون كاده بذلك ، وكمن كمينا خلفه ليتبعه إلى تكريت ، فرجع إليهم فوجد أعرابه وكمينه قد نهبوا سواده ، فأوقع بهم فطاروا بين يديه

وكان غلام سيف الدولة يمك التركى مما يلى دجلة فى عدة ، فمال عليهم توزون فهزمهم واقتطع نحو خمسمائة ديلمى ، كانوا فى الميسرة فاستأمنوا وأمرهم بطرح السلاح

وكان شغل سيف الدولة بالأعراب سبب الهزيمة ، وتقطر بيمك التركى غلام سيف الدولة فرسه فأسر

ووجه توزون بالديالم إلى بغداد فى زواريق، بعد أن قيد جماعة منهم

وصار سيف الدولة إلى أعالى تكريت فوجد أخاه ناصر الدولة قد رحل وتلاحق به العسكر، فملك توزون تكريت ونزل بالدير الأعلى فى المكان الذى كان فيه ناصر الدولة، ونهب أصحاب توزون تكريت حتى منعهم بنفسه ونهبوا زواريق شعير كانت لسيف الدولة وزواريق للتجار وحاز توزون أكثرها، وزواريق دقيق ففرقها على أصحابه وجمعهم، فقال لهم: أنا واحد منكم، وهذا الأمر أريده لكم

وامتنع أبو جعفر ابن شيرزاد من الجلوس للناس قبل الوقعة بيومين. فلما جاءه الخبر جلس، وأمر بالنداء بما فتح الله على الأمير، وأنه ورد كتابه يجتهد فى أن يرخص الأسعار بمدينة السلام

ولما رحل ناصر الدولة إلى المنزل المعروف بالأعمى وجد الخليفة المتقى لله به، فرحله معه وأقام بالسن يوما حتى تلاحق به أصحابه، ورحل إلى الجونية وقدم الخليفة قبله إلى الموصل، ثم لحق به وترك بالجونية بعض غلمانه وبالسن طلائع له من القرامطة

ولحق سيف الدولة بنمير وقشير فقتل منهم مقتلة عظيمة واسترجع بعض ما كان أخذوه، ولما اجتمع الناس بالموصل أعطاهم ناصر الدولة رزقة كاملة وأمر المعطين، ألا يحتسبوا بها عليهم. وصار إليه جماعة من عسكر توزون فقبلهم، وخلع عليهم ونزلهم بما أرادوا

ولما عاث أصحاب توزون بتكريت ركب بنفسه فأخرجهم منها،

فكثر شكرهم له ثم رجع عليهم الأموال. فكثر دعاؤهم عليه، فكان كما قال مسلم بن الوليد

وَلَا غَرْوَ لَمْ تُدْرِكْكَ مِنِّى مَلَامَةٌ أَسَأْتَ بِنَا عَوْدًا وَأَحْسَنْتَ بَادِيَا

وكما قال رجل فى صديق له كان أحسن الناس فعلا مبتدءاً، واقبحهم آخرا، فقال فيه

أَوَّلُهُ يُرْضِى وَلٰكِنَّهُ لَا يُتْبِعِ الْأَوَّلَ بِالْآخِرِ

سبحان الله ما أعجب أمر البركة والحظوظ؟ هذا أبو جعفر محمد بن يحى بن شيرزاد ما كتب لأحد قط إلا بلغ أعلى المراتب وأجل المنازل ما زال جد ابن الخال يعلو ما دام يكتب له، فلما تركه أدبر وانحل أمره، وكتب لبجكم فبلغه مالم يبلغ أمير من المال والهيبة، وأصلح له قلوب أصحابه. وكتب لتوزون فبلغ به مالم يظن الناس أن توزون يبلغه أبداً.

ووافى اسكورج بغداد يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من جمادى الأولى وهو أمير الشرطة.

ووافى قبله خمسمائة من الديالم الأسرى فى زواريق، فكان توزون قد رد أمرهم إليه. فحبس بعضا وبقى بعضا وأطلق بعضا

ووافى إقبال الشيرزاذى مع زواريق دقيق إلى بغداد، وبزواريق سقط فقيل هذا لابن حمدان وأخذ مستهلكا

وغمز بخزانة لأبى الحسين على بن محمد بن مقلة بناحية سوق العطش فوجه أبو جعفر بن شيرزاد بابن جمدى، فأخذ جميع مافيها ونزل ابن

جمدى داره بمربعة أبى عبد الله، وأخذ جميع ما كان فيها، وسفر فى الصلح بين توزون وناصر الدولة على أن يرجع الخليفة إلى داره ويحمل ابن حمدان إليه فضلا مما كان يحمله على أن الامارة تكون لعبد الواحد ابن المتقى لله، فكان ناصر الدولة أسرع الناس إجابة وأشدهم لتمامه. فكره أخوه وأصحابه ذلك، وكرهه الخليفة. فقال لهم ناصر الدولة أنتم تهربون ولا تقفون، ومالكم عندى رزق إن عزمتم على القتال إلا بعد أن أعرف أمركم، وإلا فانصرفوا الى حيث شئتم، فحلفوا له أنهم يجتهدون ولا يقصرون.

وورد الخبر على توزون أن ناصر الدولة، على أن يواقعه وقعة ثانية وكان توزون فى وقت هرب الترجمان قد قبض على ختنه المعروف بحبة التركى وحبسه وكان شجاعا، فتكلموا فيه وضمنه أبو عمران موسى بن سليمان اصبهسلان، فأخرجه وخلع عليه ووصله وحمله على دواب كثيرة ووهب له بغالا، وسفر أبو عبد الله محمد بن أبى موسى فى الصلح وأحبه واجتهد فيه، وهو من رجال الزمان ومن أهل الخير مع ذلك وكثرة الصدقة واصطناع المعروف، فتردد فى الصلح وقرب الأمر على يده، ثم عارضه قوم فأفسدوا الأمر

وصح عزم الخليفة وناصر الدولة على محاربة توزون ثانية فصار سيف الدولة فى الجيش كله إلى تكريت، لأيام خلت من رجب وبلغ توزون خبرهم، فشخص إليهم فى عدته، فلما صافتهم الحرب استأمن ارتمش التركى، وهو من أجل قواده، وكان غلاما لسيف الدولة

إلى سيف الدولة فى جماعة من الاتراك فاضطرب عسكر توزون لذلك فخاف أن يهزم ، فحمل عليهم فى نحو ثلاثمائة غلام وحقق وحققوا معه ، فما هابوا سيفا ولا رمحا حتى أزالوهم وهزموهم ، فولوا هاربين وتبعهم ولم يوغل ولا أبعد ، خوفا على اضطراب باقى عسكره وسواده

وقد كان ناصر الدولة قال لأصحابه : إن انهزمتم فلا يرينى أحد منكم وجهه فما قبلوا ذلك ، وصاروا إلى الموصل وأصحابهم معهم

وظهر أبو جعفر ، بعد أن كان استتر يوما ، وهنأه الناس بالفتح.

ورأى توزون أن يمضى إلى الموصل ، وكاتب الخليفة بأنه عبده ولا خلاف عليه منه ، فما قبل ذلك فرحل الأمير توزون إلى الموصل لايلوى على شىء ، وبلغ الخليفة وابن حمدان ذلك ، فرحل إلى نصيبين ، وحوى توزون الموصل ومافيها من الأطعمة وعسكر خارجها على أن يقصد نصيبين ويوقع بمن فيها ، وكتب إلى ابن حمدان فى إنفاذ الخليفة اليه فكره الخليفة أن يصير إليه بعد مافعله فأسرع من نصيبين إلى الرقة فى أصحابه الذين خرجوا من بغداد معه ، ومعه من الكتاب وزيره على بن محمد بن مقلة وأبو إسحاق القراريطى وأحمد بن عبد الله الأصبهانى والحسن بن هارون وأبو محمد الحسن بن احمد المادرانى وعبد الجبار بن الحسن النفرى كاتب دار السلطان مستنجدا بابن طغج وكتب بذلك اليه

وكتب الأمير توزون إلى أبى جعفر بن شيرزاد فى اللحاق به فلحق به إلى الموصل واعتمد فى خلافته ببغداد على أبى عبيد الله أحمد بن محمد

ابن عبد الوهاب ، وعلى طازاذ بن عيسى النصرانى ، وكان رأى ناصر الدولة أن يرجع الخليفة إلى بغداد ، ويفارق هو الأمير توزون على مال يحمله ويصرفه إلى بغداد ، فخالفه المتقى لله ، وخرج من أعماله معتمدا على ابن طغج أبى بكر الاخشيد

وكاتب ناصر الدولة الأمير توزون فى الصلح ، وعلم توزون أنه أشار على المتقى لله بما أراده توزون .فلم يقبل المتقى منه ولا تركه بعض من كان معه يقبل ذلك

وسفر بين ناصر الدولة وبين توزون أبو عبد الله بن أبى موسى الهاشمى وأبو زكريا يحى بن سعيد السوسى، ولما صار أبو جعفر إلى الموصل رأى أن الأموال الذى يحملها ابن حمدان أوفى مما يؤخذ من الموصل مع التغرب وانتشار الأعراب

وكان خروج أبى جعفر من بغداد فى شعبان ، فتم أمر الصلح بين توزون وبين ناصر الدولة برأى أبى جعفر ، وما زالت السفارة بينهما طول شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين ، وتم الصلح فى أول شوال ورجع توزون إلى بغداد وأبو جعفر معه ، فكان دخوله إليها لاحدى عشرة ليلة خلت من شوال ، وكان حرص أبى جعفر على الصلح لما بلغه من موافاة ابن بويه الديلمى إلى واسط ، وأخذ الضرائب والخراج ، وأن ابن بويه دخلها فى شهر رمضان

واتهم المتقى لله بمكاتبة ابن بويه بأن يصير إلى الحضرة ، وصلحت سيرة ابن بويه بواسط ، وخفف عنهم كاتبه محمد بن احمد الصيمرى

المكنى أبا جعفر من الضرائب ، وعدل عليهم فى الخراج

وكان أمير بغداد أبو العباس اسكورج قد اصطنع ابن جمدى وأمل أن يرتدع ويقصر ويعرف به جميع المتلصصة ، فكان يرسل أصحابه على الناس، فلهم فى كل يوم حادثة عظيمة ، وكبس وإغارة على الأموال. ووقف اسكورج على أنه أصل ذلك كله، وقيل للامير توزون فيه غير مرة ،وعرف أبو جعفر الأمير حقيقة خبره ،فأمر به فضرب وسطه فى دار الأمير توزون، وحمل إلى الجسر على جمل ، ونودى عليه هذا ابن جمدى اللص فاعرفوه

وظفر بجماعة من أصحابه فقتلوا وصلبوا ،فسر الناس بذلك وقالوا ما أمنا على أنفسنا وأموالنا إلا الآن، بقتل ابن جمدى وأصحابه ، وكثر الدعاء للامير توزون ، وكان قتله برأى أبى جعفر بن يحيى بن شيرزاد الكاتب

وفاة البريدى

قد ذكرنا وثوب أبى عبد الله البريدى بأخيه يعقوب أبى يوسف وقتله له حين منعه ، وكان ذلك فى النصف من صفر سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة.

ووافى الخبر إلى بغداد أول يوم من ذى القعدة ، سنة اثنتين بأن أبا عبد الله أحمد بن محمد بن يعقوب البريدى توفى لأيام بقيت من شوال سنة اثنتين بقولنج عرض له ، وقام بالأمر أخوه أبو الحسين على

ابن محمد أياما ، ثم أحس بأن جماعة من الغلمان والقوادقد عزموا على الفتك به ، فهرب فى الليل مع غلام له حتى خرج من سور البصرة من ناحية سيحان ، ثم لحق بالقرامطة المقيمين بالجعفرية على فرسخ من البصرة فعرفهم نفسه وما جرى عليه، فحمل إلى البحرين ثم رد باختياره إلى البصرة، وكان أبو القاسم عبدالله بن أخيه قدملك الأمر بعده ، فلما وافى البصرة تكلم قوم فى أمره بفنون فأبى أبو القاسم إلا أن يخيره ما يريد ، فاختار الخروج من البصرة ، فخرج ووافى بغداد ، وذلك كله أو أكثره فى سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

ذكر قتل الترجمان

جملة أمره أنه كان جبانا مضربا متنقلا ، بخيلا قصير الرأى ردىء الاختيار ، وكان سيف الدولة يتهمه بأنه هو الذى ضرب الأمير توزون عليه ، حتى كان منه إليه بواسط ما كان، وأنه أطمع المتقى لله فى الاحتيال على ناصر الدولة وراسله فى ذلك ، يحصله فى داره فيطالبه بالأموال ، وأن الرسل بينهما اختلفت بذلك .

ولقد أمكنه ذلك من ناصر الدولة مرات ، خاصة عند قرب خروجه من بغداد فما اضطلع بذلك ، ولا كانت له نفس تفى به ، إلى أن خرج ناصر الدولة ، وهو أوثق الناس به وعنده أنه فى جملته ثم غدر به . فرجع وكان بالرقة قد تمكن من المتقى لله ، يصل إليه متى أراد ويأكل معه ويسمع منه ، وكان يثلب سيف الدولة . وكاتب

الاخشيد ابن طغج فى إنفاذ جيش إلى الرقة لأخذ الخليفة من يد سيف الدولة فركب يوما إلى سيف الدولة ، وقال له قد ضرب الجند على ، فان كان فى نفسك شىء على ، فأنا بين يديك ، وتغضب وزاد فى الكلام ، فنصحه سيف الدولة

وقال له : لا يركب معك غيرى ، حتى يؤديك إلى منزلك ، فركب وخرج من بابه وأغلق غلمان سيف الدولة بابا خلف سيف الدولة ، وضربوا الترجمان ـ وكان خلفه ـ بالسيوف واحتزوا رأسه ، وبلغ أمره الخليفة فغضب وتكلم ، وقال : ابن رايق بالأمس ، والترجمان اليوم ! وأشير إليه ألا يعيد فى هذا شيئا وأن يرى سيف الدولة أن الذى حكاه حق ، ويستصيب رأى الغمان فيما فعلوه

وفاز جميع من كانت له عنده ودائع مال فهو فى أيديهم ، واعتل الامير توزون فى ذى القعدة علة صعبة شديدة من قولنج وغير ذلك ، ثم أقاله الله ووهب له العافية فاستحجب فتاه صافيا ، وخلع عليه خلعا ، ركب فيها حتى رآه الناس

ثم اتصل بتوزون أن الديلمى الذى بواسط يريد بغداد ، فقدم مقدمته إلى المداين ، وخرج فى أثرهم وذاك فى ذى القعدة لاحدى عشرة ليلة بقيت منه

ووقع فى هذا الشهر بالكرخ حريق عظيم من حد طاق التكك إلى السماكين ، وعطف على أصحاب الكاغد وأصحاب النعال ، وذهبت النيران بأمتعة البزازين وأموال خطيرة ، وكان وقوع الحريق ليلا

فبادر الناس ليخلصوا أمتعتهم فكان كل من أخرج شيئا نهبه الخرابون ومن يعينهم من العيارين ، فما وصل الناس إلى شيء من أمتعتهم

وسار أحمد بن بويه الديلمي يريد بغداد ، وحدر أبو جعفر إقبالا غلامه في الماء ومعه الطيارات والزبازب ، ليمنع الديلمي من الماء ، وكان ذلك من أجل الآراء وكان ذلك سبب الفتح وهزيمة الديلمي ، ووقعت الحرب في الجانب الغربي من حدود قباب حميد أياما متوالية والامير توزون يرى أن يستجرهم إلى قرب بغداد ، لتقرب عليه الميرة إلى أن عبر بهم نهر ديالى ، فصيره بينه وبينهم . وذلك برأى أبي جعفر بن شيرزاد ، وجاء الديلمي حتى نزل حياله وهو بلا زاد ، وقد ذبح جماله وجاع أصحابه ومنع مع ذلك من الماء ، وكان المعروف بابن أبي على اللص قد صار في جملة الديلمي

وجمع أبو جعفر أموالا فحملها إلى الأمير توزون فقويت بها نفوس أصحابه ، وأثبت جماعة من العيارين فأنفذهم في الماء ، ليرموا بالمقاليع ، فكانوا يعطعطون بالديلم ويمنعونهم مع إقبال من الماء حتى هلكوا جوعا وعطشا ، وعلم الأمير بما هم فيه من ذلك

وأمر أبا الدفين الاعرابي أن يعبر إليهم ، وعبر جماعة من الاكراد ومتسرعة من قواد الأمير توزون وغلمانه ، فولى الديالم هاربين في الساعة الخامسة من يوم الأحد لأربع خلون من ذي الحجة سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة

واستأمن إلى الأمير جماعة من وجوه الديلم وقوادهم ، وظفر

بجماعة منهم ، وأخذ فيمن أخذ ابن قرابة العطار ، فأمر الأمير توزون فيه بأمر عظيم ، فتكلم فيه الحر الجليل أبو جعفر حتى تخلصه ، وكان تخلص ابنه قبل ذلك ، لأنهم ذكروا أنه وجد له كتاب إلى أبيه ، فيه ما لا يجوز فأمر الامير بقتله حتى استنقذه أبو جعفر

ولما اشتد أمر الديالم وظن الناس أن الأمر أهم ، انتدب جماعة وعزموا على الفتك بأبى جعفر فى داره والوثوب ببغداد ، ليبادر جيش الأمير إلى منازلهم فيكون هزيمة ويركبهم الديالم

واتصل خبرهم بأبى جعفر ، فوجه بمن قبض على من وجد منهم وأحضر أبو العباس بن عبد الرحمن بن جعفر الخياط ، والمعروف بابن أبى الردينى وطلب يمن البرى فلم يوجد

وهرب جماعة ذكروا فى هذا الامر، فوبخ أبو جعفر ابن الخياط وذكره إحسانه إليه وأنكر أنه فعل ذلك ، فأمر بحبسهم بعد أن صح عنده أمرهم ، فحلم ولم يسلمهم فيقتلوا ، وكان هذا من فضله وتوقيه

وكان ظفره بهؤلاء علامة للاقبال ، لأنه أخذهم لليلتين خلتا من ذى الحجة ، وهزم الديلمى بعد يومين

ولقد اجتمعت على أبى جعفر فى هذا الوقت أمور ، لو اجتمعت على أوسع الناس صدرا وأشدهم بأسا وأكملهم شجاعة لبعل بها ، ولم يتسع للفكر فيها ، وكان يلجأ إلى هرب واستتار ، فصبر على ذلك كله واضطلع به ، حتى بلغه الله ما أراده وأظفره ببغيته

منها مجيء الديلم إلى قرب بغداد فى الجيش الذى لا يقام لمثله ومعه

كتب يقرأها على الناس بمكاتبة المتقى لله له يأمره بقصد بغداد ، وذلك ما لا يكذب به أحد ممن سمعه لهرب الخليفة ، وما أظهره من عداوته للأمير .

فمنها علة الأمير توزون ، التى اشتدت فى هذا الوقت ، فما خرج عن بغداد إلا وهو عليل رقيد

ومنها قلة المال وأنه لا يرجع إلى شىء معد ولا يقدر على استسلاف من التجار على شىء يرد ، ولا مطالبة للمستظهرين منهم ، بقرض ، لئلا تنفر عامة البلد مع حاجته إلى تسكينهم وإلى الرفق بهم

ومنها مجىء القرامطة إلى الكوفة يطالبون بمائة وخمسين ألف دينار ، وورد المكنى بأبى دلف بغداد مستحثا لذلك

ومنها شذوذ الخليفة وتباعده إلى الرقة ، يورى الناس أن توزون قد عصاه ، وأراد إتلافه فهرب منه ، وأن الترجمان يهتف بذلك ويجاهر به ويكاتب الناس من أهل الشرق والغرب بمعونة الخليفة وإغاثته واستنقاذه

ومنها أن ناحية ناصر الدولة التى كانت مغوثة بالأموال الموكفة والأقوات الواردة قد أفسدها الخليفة ومن معه، فانقطعت مواردها وغلت الأسعار بها ويئس الجند منها ؛ إلى أشياء بعد هذا لعله لا يجوز ذكرها . فصبر أبو جعفر على هذا كله، حتى كشفه الله لمناصحته ، ويمن تدبيره

ومن أعجب العجب أن قوما يظنون أنهم يقومون مقامه ويغنون

غناه، وأن أعداءه يرجفون به ويتقولون المعايب له. وقد نسوا ما كان منه وما كان يعانيه ويقاسيه فى هذا الوقت من [الأ]مور الملابس بها . والله الذى لا إله إلا هو إنه بالرحمة له منها أولى من الاغتباط بها له ولا تعمل إلا على أن واحدا قام مقامه وفعل فعله، من أين يملك مثل طبعه حتى يجلس سائر نهاره وأكثر ليله، لا يأكل ولا يشرب ولا يتشاغل بشىء من جميع الملاذ التى لا يصبر الناس عن شىء واحد منها، ولا يحجب واحد عنه، ولا ينصرف ذو حاجة أتاه إلا راضيا إما بقضائها وإما بوعد فيها يقنع به، وإما بولاية يرى نفعها على ما أمله من حاجته وملتمسه، أو تعويض له من ماله، بصدر رحب ووجه طلق وخلق واسع، لا يقدر المتخلق على مثله

وسل أين من كتب لبجكم وهو فى أدنى أمره فبلغ به أعلاه فربى الصغير بمعرفته، وتكهل الشاب بخدمته، وشاخ الكهل ولا يعرف غيره. فهو لجماعتهم كالوالد الحدب وكلهم له هايب طائع

ومن أين يوجد رجل ما كتب لأحد قط واتصل به إلا علت مرتبته، وزادت حالته وطغى يساره، ثم يكون مفارقته له فيه سبب حتفه وسقوط حاله

هذا ابن الخال هارون، مازالت حالته متوسطة إلى أن كتب له فبلغ به أقصى ما يبلغه مثله، إلى أن تغير له وفارقه فساق نفسه الى حينه

ولقد حدثنى بعض أسبابه أن كتاب أبى جعفر نفذ اليه مطلقا بالرأى عليه بأن يقبل ما كاتبه به الراضى بالله ويرجع ويتركه حتى

يسعى له فيما يريد على رفق وتأيد فخالف وبادر

وهذا الأمير بجكم، مازال وهو يكتب له مصحح البدن بآمن الحال موفر الأصحاب، ما قتل أحدا من أتباعه ولا أنكر شيئا من أمره، حتى قبض عليه وصادره، واستكتب غيره. ففسدت عليه حاشيته، وقتل جماعة منهم، وتندم على ذلك، وحالفه سقم فى جسمه؛ فوالله ما قتل إلا وهو مستسقم فاسد المزاج

ولقد كنت أقول لسنان بن ثابت ماترى لون الأمير واستحالته والغلظ الذى يشكوه فى جوفه؟ فيقول لى لعله يصلح إذا احتمى، قول آيس منه، فما كان عمره بعد مفارقته له مع تنغص عيشه إلا مديدة

وهذا الأمير المظفر أبو الوفاء توزون، ما كان أصحابه قبل أن يكتب له يفى عدتهم بثلثى عدتهم فى هذا الوقت، ولا نفقاته تفى بنصف بعضه فى هذا الوقت، فهو بركة عليه فى نفسه وجيشه واتساع نفقاته

والله يعلم أنى ماتحريت بقولى هذا إلا الحق والمناصحة ولا يرانى الله - فى شىء مما أرويه وأؤلفه - أريد صديقا لصداقته، ولا رئيسا لإحسانه، ولا أتزيد على عدو لعداوته، ولما أعتقده من بغضه، ومن لزم الحق سلم فى عاجله وآجله، وكان الله ولى توفيقه

ذكر رجوع الأمير أبى الوفاء توزون

﴿ إلى داره ، بعد هزيمة الديلمى وركوبه الظهر ورجوعه فى الماء ﴾

ولما فتح الله على الأمير المظفر أبى الوفاء توزون ، وأظفره بالديلم وأقام فى عسكره أياما ، وأنفذ فى طلب المنهزمة من يقتل ويأسر ، ولم يعجل برحيل ليتبين آخر أمر عدوه ، وما زال هذا من فعل الحزمة ذى الرأى المصيب ، والعزم الصحيح .

وأمر أصحابه بالرجوع إلى منازلهم ، مسرورين بما صار إليهم من سلب الديالمة وسوادهم ، بعد أن كثر عند الأمير على بعضهم ، فما نفس بذلك عليهم ، ولا سأل عنه ، ولا عرض به

ثم رحل إلى بغداد وركب على الظهر فى يوم الاربعاء لسبع خلون من ذى الحجة ، فمضى فى شارع المخرم إلى الجسر ، ودعا الناس له ، ثم انصرف فى الماء إلى داره ، وكانت ركبته هذه ركبة ماركب أحد مثلها قط إلا خليفة ، لأنه كان بين يديه مائة جنيبة ودابة وبغل بالسروج المذهبة والمفضضة ، وبين يديه وخلفه من الغلمان الأتراك ، بألوان الثياب وأحسن السيوف والمناطق وأفره الدواب ، وهم عدة ، ما اجتمع لأحد منذ مدة طويلة مثلهم . وما من قائد من قواده بعد هذا إلا وهو مساو بعدته وعدته قربه لأجل أمراء النواحى وأصحاب الاطراف الممتنعين بها

ووافى فى ذى الحجة أبو على الحسن بن هارون بغداد برسالة

الخليفة المتقى لله وكتابه إلى الأمير أبى الوفاء المظفر

وهذا رجل من رؤساء كتاب الزمان ممن خدم الأمراء السادة، وهو حدث لم يتكهل فحسن خبره ، وحمد أثره . كتب ليوسف بن ديوداذ أبى الساج، وهو الامير الذى لاتدفع شجاعته ولا يجهل قديمه ورياسته ولا يشك فى عقله وأدبه ونفاذه فى جميع الأمور ، فبلغ به ومعه الغاية التى لا تبلغها الآمال وهو مع كتبته رابط الجأش قوى الشجاعة حسن الفروسية، شهد مع يوسف بن أبى الساج وقعة القرمطى بالكوفة ، فما زال ضاربا بالسيف إلى أن علم بأمر صاحبه فحمى نفسه بإقدامه وغلمانه ، حتى أفلت جريحا

وكتب لعلى بن يلبق وهو هنى لايعد ، فجعل إليه بتلطفه أمر المغرب كله وشرطة بغداد وحجبة الخليفة ، إلى أن خلط عليه فتركه ، فآل أمره إلى ما آل اليه ، وإنما ذكرت أمر ابن يلبق معه لشىء أجىء به بعد

سمعت الراضى يقول فى خلافته : إنما كتب الحسن بن هارون لابن يلبق رحمة من الله لنا لنبق ، ولولاه لقتلنا القاهر كلنا ! ولكنه كان يمنع منا ويحمل ابن يلبق على المناضلة عنا والدفع عن أنفسنا ، وكان يصفه كثيرا .

ولقد غنت ستارته يوما بشعر مليح ، فقال أتعرف هذا اللحن ؟ قلت لا ، قال فالشعر ؟ قلت لا ، قال هذا الشعر كتب به الى الحسن بن هارون وعمل هذا اللحن فيه ، وكان عنده بمنزلة لطيفة . فلما قدم برسالة الخليفة وكتابه لطف للأمير ابن المظفر إلى أن جمع الناس عنده

فى يوم الاثنين لاحدى عشرة ليلة بقيت من ذى الحجة ، وفيهم خليفة القاضى أحمد بن إسحاق سهل بن ابرهيم والعـدول ، وأحضر من العـدول من يحسن أن يتكلم بالفارسية ، حتى أخذوا على الأمـير مارضى به من القول . وحضر الهاشميون ووقع الصلح ، وانصرف الناس مسرورين ، وأنفذ الحسن بن هارون كتاب الأمير إلى الخليفة . ومعه كتابه بما جرى ، وانتظر الناس ورود الجواب

وخلع الأمير على ينال المحتاجى يوم الاثنين لثلاث بقين من ذى الحجة ، وولاه طريق خراسان ، فخرج مبادرا فى عدة واستظهار ، واتصل به وهو يعبر نسا أن الأعراب قطعوا على قافلة فخرج مبادرا ولم ينتظر أصحابه استهانة بالأعراب ، وكان قد أطلق لصا يقال ابو الفرج بن مياح بعشرة آلاف درهم أخذها ، وكان من حقه أن يقتل لقطعه الطريق فنظر اليه ابن مياح هذا ، وهو فى خف فطمع فيه وحرض عليه إلى أن انبرى له ، فطعنه فقتله

فسلط الله عليه اللص الذى أطلقه ظالما لنفسه ، عاصيا لله فى إطلاقه حتى قتله ، فورثه الأمير ابو الوفاء وأخذ غلمانه ودوابه وأثاثه وضياعه وولى مكانه الفتح اللشكرى فطلب الأعراب فهربوا منه ولم يقفوا له .

وورد ابن الغمر صاحب القرمطى الذى كان أدخل أيام القاهر مشهورا ببرنس مع الشريف أبى على عمر بن يحيى العلوى بغداد مطالبا بمال المفارقة ، فكتب له أبو جعفر بن شيرزاد على عمال الكوفة كل ذلك ، ليأمن على الحاج وهو يعلم ما عليه فى ذلك

وكان أبو بكر النقيب قد هرب من بغداد إلى ناصر الدولة ، قبل شخوص الخليفة عن بغداد فقبله أحسن قبول وخلع عليه وعلى ولده ، وبلغ برزقه ألفى دينار ، ومثلها لولده وغلمانه ، ثم خرج مع الخليفة إلى الرقة ، ثم رجع إلى ناصر الدولة فأقام يأخذ رزقه ، ثم كاتب أبا جعفر فى مصيره إلى الحضرة واحتال حتى قدم

وكان أبو جعفر قد وجد على أسكروز الديلمى عامل الشرطة ببغداد فى أشياء أنكرها عليه من أخذ الدراهم ، وقبالة ثقيلة يلزمها ولاة الشرطة فكاتب الأمير فيه فعزله ، وولى مكانه أبا بكر النقيب ، وهذا فى المحرم سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

ولما رجع الامير أبو الوفاء من نهر ديالى ظافرا أنشد شعرا فى وصف ما كان منه ومن أبى جعفر فى العزم والرأى ، فما وقع عند من حضر الموقع المرضى . فنطقوا بأجمعهم وقالوا لى : مثل هذا الخطب العظيم والفتح الجليل ، لا يكون له مدح يشهره الناس ويرويه ؟ فقلت فى ذى الحجة سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة

نَعِمَ الْوَرَى بسوابغ النَّعْماءِ ونَجَوْا من الْبَأْساءِ والضَّرَّاءِ
عَضَدَ الآلهُ أَبا الْوَفاءِ بنصره عَضُدَ الْخِلافَةِ سَيِّدَ الأُمَراءِ
فأَرِيحَ قلبِى من جوَى الْبُرَحاءِ وَلَهِيبِ نارِ الْوَجْدِ والأَدْواءِ
عادَ الزمانُ إلى نَضارةِ عَيْشِه وأُزِيلتِ الْبَأْساءُ بالسَّرّاءِ
قد واصلَ النصرُ المتابِعُ سيفَه كوصالِ حِبٍّ كارِهِ الجفاءِ

في كل يوم للأعادي وقعة   منه تبيدهم وسيف فناء
فتراهم لما رأوه مقبلا   كالشاء ينفر من أسود ضراء
صرعى وقتلى والذي فات الردى   منهم حليف الذل في الأسراء
ضحكت به الأيام بعد قطوبها   وجلا الضياء به دجى الظلماء
فصلوا السرور وقضاء ما عاينتموا   بالأمس من هم ومن برحاء
قد عوفي الليث المطل على العدا   من كل ما يشكو من اللأواء
وأتاه نصر من إله منعم   يقضي له أبدا بخير قضاء
أعييت حيلتهم وفت مداهم   من غير إتعاب ولا إعياء
نثرت سيوفك بالفضاء أكفهم   فكأنهم فيه حصى البطحاء
وعطفت خيلك خاطفا أرواحهم   من غير إمهال ولا إبطاء
أنت المعظم في الزمان ومن له   ذلت رقاب السادة العظماء
أبت الإمارة أن تزوج غيره   من بعد ما خطبت أشد إباء
وعصى المديح فليس يعطي طاعة   إلا له في سؤدد وثناء
يلهو بأبطال الرجال شجاعة   لهو الملاعب فاز بالأهواء
ملك أبر على الملوك بباسه   وقبوله من سيد النصحاء

أحيا محمد بن يحيي دولة   بصحيح عزم صائب الآراء
زين الكتابة وابن من ذلت له   وعليه قدما كتبة الخلفاء
من بعد ما ظن الأعادى أنه   سيكون من ناواه ذا استعلاء
إذ ساور الاسلام سقم قاتل   لو لم يدارك سقمه بشفاء
فرماهم من رأيه بنوافذ   تهدى بلا هاد إلى الأحشاء
ورأى حبالى رأيه شركا لهم   فهووا لحنته هوى دلاء (١)
فى كاريرجى عين رأى مجرب   ماضى الحسام لحسم هذا الداء
سل بالأمير وسيفه من رامه   أو هاجه فى حومة الهيجاء
ضرغامه دامى الأظافر كلما   عرت النوائب من دم الأعداء
فكأنه فى سرجه يوم الوغا   بدر تلألأ فى سعود سماء
وكأنما قواده من حوله   مستلئمين كواكب الجوزاء
متلبس جلباب صبر تحته   قلب كمثل الصخرة الصماء
شرد الأعادى خوفه فكأنهم   خرق النعام بقفرة بيداء
أو كدر سرب قطا أضر بها الصدى   فتساقطت عطشا الى الأحشاء

---

(١) كذا بالاصل ولعلها ورمى حبائل

عَطَفَ الرِّجالُ إليهِمْ فتَعَطَّفُوا ... للأسْرِ وَالإذْلالِ فعْلَ نساءِ
وأتى الأميرُ بعزّةٍ ومهابةٍ ... يَختالُ بينَ غنًى وبينَ غناءِ
خَصبَتْ به بغْدادُ بعدَ جدوبِها ... وتلبّستْ منهُ ثيابَ رخاءِ
هذا وفي أيّامِ بجكمَ كمْ لهُ ... منْ صدقِ عارفةٍ وحُسْنِ بلاءِ
تَسوَدُّ أيدي غيْرِه في حرْبِه ... فيُضيئُها قيدٌ لهُ بيضاءِ
أطنابُ بأسِكَ يومَ حرْبِكَ عُلِّقتْ ... لعلوِّها بكواكبِ العوّاءِ
فَضَلَتْ كفضْلِ بني النبيِّ وصهرِهِ ... في نبلِ قدْرِهمُ بني الطلقاءِ
فرقيتَ في درجِ المعالي صاعداً ... تعلو على العظماءِ والكُبَراءِ

ولما استكتب الأمير أبو الوفاء توزون أبا جعفر محمد بن يحيى ، وقدم بغداد ، دخلت إليه فأنشدته

عذلْتَ امرءاً في عشقِهِ ليسَ يعذرُكْ ... أما عاشَ أنْ ينهاكَ عنهُ ويزجرُكْ
متى لم تحطْ خبراً بما صنعَ الهوى ... بمَنْ فارقَ الأحبابَ فالدمعُ يخبرُكْ
أما لو بلوتَ الحبَّ واقتادكَ الهوى ... إلى هجرِ محبوبٍ لقلَّ تصبُّرُكْ
شربتُ كؤوسَ الحبِّ صرفاً ودونَما ... شربتَ منَ الممزوجِ ما لا يُسكِرُكْ
على اليُمنِ والتوفيقِ أُلبستَ خلعةً ... بها المتقي للهِ بالحقِّ يؤثرُكْ

وفى خصرها قاضٍ كرأيك فى العدا ... به تنقضى أعمارهم ويعمرك
رآك أحق الناس بالإمرة التى ... يمازج فيها جوهر الملك جوهرك
يقدم للمقدور دهر معـــاند ... سواك إليها ظالماً ويؤخرك
إلى أن وفا بالوعد فيك أبو الوفا ... فكل أمير بالصغار يؤمرك
لئن كان للأتراك فخر بهاشم ... فقد زادهم فى البأس والفخر مفخرك
ملكت فملكت المنى كل راغب ... فمورد الإحسان والحق مصدرك
إذا كاثر الأتراك يوماً بسيد ... فما أحد فى سالف الدهر يكثرك
ومن كان منهم ماجداً متقدماً ... فهم رهطك الغر الكرام ومعشرك
طبعت على عقل وجود ونجدة ... فما تستطيع الحادثات تغيرك
وسيان فى الأعداء مخبرك الذى ... به ينصر الله الولى وينصرك
وهل تجد الأعداء عندك غرة ... وأبيضك الموت المرجى وأسمرك
وما نصر الله امرءاً أنت حربه ... وأنى له بالنصر والله ينصرك
تخيرك البارى أميراً مظفراً ... تبارك فى تدبيره متخيرك
رأيتك للسلطان محيى[1] دولة ... فهذا اسمك الأولى بوصفك يشهرك

---

(١) فى الاصل (مجنى) مع تشديد النون وفتحها ولم نقف على صوابها

تسم به تكبت عدوًّا وحاسدًا … كما قد تسمى قبل من ليس يعشرك
إذا التفت الأقران واحتدم الوغا … فسيفك بالنصر القريب يبشرك
عرفت بإقدام وفتك وجرأة … فما أحد فى كل ذلك ينكرك
وإن جر يوما عسكرا ذو تجمع … فسيفك فردا فى قتالك عسكرك
تدبر فى ترب السنين أمورنا … برأى مصيب والإله يدبرك
وعدتك هذا الأمر من قبل كونه … ووعدك لى بالبذل لاشك ينذرك
وهذا مسيحى بقولى شاهد … وحسبى به عدلا بوعدك يذكرك
ومازلت مذ عاينت شخصك دائبا … لما نلته أثنى عليك وأشكرك
لقد ظفرت كفاك بالمال والعدا … برأى ابن يحيى القرم والله يظفرك
وثقت بإدبار النحوس عن الورى … وإقبال سعد حين صار يدبرك
أبو جعفر فى الرأى والعقل وافر … به الله بعد الانتقاص يوفرك
سيوردك العذب الزلال مجرب … عليم بتدبير الورى كيف يصدرك
لقد ظفرت كفاك منه بفاصل … به الله من بعد القليل يكثرك
فلا زالت الأيام سلما مطيعة … توقيك ما تخشاه فيها وتخفرك
وفزت بما تهوى وصالت على العدا … سنوك بتمليك عليهم وأشهرك

سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

وكان الناس قد سروا بولاية أبى بكر النقيب محمد بن جعفر، فنادى برفع المؤن واشترط ذلك، فلما استهل شهر المحرم طواب بسنة اسكورج فعقد على ابراهيم بن شمحور الفروقى الجانب الشرقى والصحراء والأبواب بسبعة آلاف درهم فى كل شهر

وتضمن محمد بن محمد تازى البيض وأعماله بثلاثة آلاف درهم، وعقدت الشرقية وما فيها من الأعمال على أحمد بن جعفر المعروف بابن الشرطى بثمانية آلاف سوى الاستثناءات فانها خمسة آلاف درهم وضمنت دجلة والماصر الأعلى بخمسمائة دينار، وعقد القيار بألفى درهم، فصار الجميع نيفا وثلاثين ألف درهم فى الشهر

فلقى الناس من ذلك عنتاً، وتعرم أصحاب الارباع والمصالح على الناس، والنقيب كاره لذلك لايعرف مثله

وكثرت الكبسات، ووثق اللصوص بالمصانعات والغرم، فكبسوا الناس ليلا ولم يهابوا نهارا، واجتمعوا فكان يوافى دار الرجل المقصود جيش اللصوص بالليل بالسيوف والنشاب، لو حوربوا لما وفاهم القليل

واستلب كيس رجل يعرف بغلام ابن الأبوارى الصيرفى مع المغرب، وفيه خمسة آلاف دينار ليلة الجمعة لأربع بقين من المحرم وكان الكيس على رأس حمال، نصاح الرجل والحمال، فرماهم الناس

بالآجر ، ورماهم اللصوص بالنشاب ، فتفرقوا عنهم ، وبادروا ناحية دار على بن عيسى ، ونزلوا الشط إلى سميريات أعدت لهم ، فأقر حارس الموضع أنهم أصحاب المعروف بابن بغرة النازل بدار الترجمان ، فى قصر عيسى ، فأخذوا فأقر بعضهم أنه دفع المال إليه ، وجحد هو أن يكون يعرف ذلك ، وتعصب له بعض الأتراك وطاح المال .

وكان رجل يعرف بممراج استأمن من عسكر البريدى ومعه من اللصوص البطارقة الحذاق جماعة ، فصار يخدم فى دار أبى جعفر هو وأصحابه ، يكبسون الناس ليلا ويعترضونهم فى دجلة ويجتمع هو وأصحابه وكاتبه البصرانى المعروف بسكباج لعنه الله ، على النفقات والقيان والأنبذة والفسق

وكان معه كلابزى قواد وكان مع زباشى التركى كلابزى مثله ، فتغايرا على قحبة وأعان كل واحد صاحبه ، فجرت بينهما حرب وأمور قبيحة ، ثم كانت خطوب ، وقتل ممراج هذا والحمد لله .

وظهر سعيد بن داود المسيحى ، وعاد أخوه إلى خدمة الأمير والتطبب له ، وكان طبيبه قديما وذلك فى المحرم

ووجه ناصر الدولة بأبى عبد الله الحسين بن سعيد أبى العلاء مع غلام أبى بكر بن مقاتل إلى الشام ، فى جيش كثيف بعد أن أزاح عللهم لمحاربة ابن طغج ودفعه عن الشام ، فمضى حتى تجاوز حلب فلقيه جيش ابن طغج الأخشيذ فهزموه وأسروا رجاله وغنموا أمواله ، وولى هاربا فى قلة يريد الرقة ، فلما شارفها تقدم الخليفة المتقى لله بغلق أبوابها ،

ومنعه من دخولها فأقام أياما

ووجه إلى الخليفة برسالة غليظة فاذن له ووبخه على تسريحه لقتال من لم يأمر بقتاله

ووافى ابن طغج فى أثره فخرج إلى ابن عمه سيف الدولة وقد كان ابن عمه تنحى عن الرقة فأعطى المتقى لله مالا وفرق على جميع من معه مالا على أقدارهم ، فأمسك بذلك أرماقهم ، ولولا فعله ما كان بهم نهوض ثم رجع ابن طغج إلى حلب فيقال إنه أعطى الخليفة مائة ألف دينار سوى الآلة والثياب

ووجه إلى الوزير بثلاثين ألف دينار ، وإلى الحاجب أحمد بن خاقان بعشرة آلاف دينار ، هذا تأدى الينا ولم نشاهده

وزاد غلاء السعر على الناس فشغبوا فى الجانب الغربى يوم الجمعة وتكلموا بالعظائم ، ومنعوا الامام الصلاة، حتى انصرف أكثر الناس ، ثم صلى الامام بمن بقى صلاة خفيفة

وخرج الأمير أبو الوفاء إلى البثق بنهر عيسى ، ومعه قواده ، ومال من خاص ماله مؤملا سده ، وذلك فى أول المحرم فأقام أياما عليه ، واجتهد هو وأبو جعفر فى النفقة ، واطلاق المال . ثم إن الله عز وجل لم يأذن فى ذلك ، فحمل الماء أكثر العمل ، واغتم الأمير لذلك غما شديدا

ولما وصل كتاب الحسن بن هارون إلى المتقى لله بما صنع ، وجه المتقى لله بأحمد بن عبد الله بن اسحاق القاضى من الرقة إلى الأمير أبى الوفاء المظفر لتوكيد الأيمان عليه ، وموافقته على شرائط شرطها له ،

ويشهد عدوله عليه ، ووجوه الهاشميين

فوصل القاضى إلى بغداد يوم الخميس ، لأربع خلون من صفر سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة ، ففعل جميع ماتقدم به المتقى لله إليه ، وكان قد وجه معه بخلع ، وطوق ذهب ، ليخلعها على الأمير إذا فرغ ممابينه وبينه ؛ ففعل هذا كله إلا أمر الخلع

وأمر الأمير بعمارة دار الخليفة ، وبناء ما استهدم منها ، وكان يركب بنفسه حتى يشاهد ذلك ويعاينه ، وكان فى الرسالة أن يخرج الأمير إلى واسط ، فقال : هذا لا أجيب إليه ، يعمل على أنى ابن طغج إذا قرب من بغداد خرجت وتلقيته ، وأزلت كل مافى نفسه ، فاذا صار فى داره أمرنى بما شاء حتى أفعله ، وإن خرجت ولم أره كنت عند الناس عاصيا ! وامتنع من أن يلبس الخلع إلا بحضرة الخليفة إذا رآه ، وكتب القاضى إلى الخليفة بإحكامه له جميع ما أراد ، وأشار عليه بالمبادرة إلى الحضرة

وعظم أمر اللصوص ، وكبس الناس فى منازلهم وقتلهم ، وأخذ أموالهم .

فولى الأمير أبو الوفاء الطوف رجلا أعجميا ، وضم إليه جماعة فأفرط فى أمر الطوف ، وجرى إلى أشياء عظيمة ، حتى تمنى الناس أنهم أعفوا منه

ووجه الأمير بقوم من أصحابه ، فأمرهم أن يكبسوا أهل الريف من النباذين والقوادين ، وتعطيل ما يجرى من أمر النباذين بدار الروم

بالجانب الشرقى ، ونسب ذلك إلى الجاثليق ، وأنه عليهم قائما ، وأنه يرسل أهل نحلته فيعوز بهم ، وصادره على خمسين ألف درهم بوساطة طازاذ وابن سنكلا ، وعطف بعد ذلك على النباذين والقوادين ، فحبس منهما وعاقب ، وسكن أمر البلاء قليلا

وانكسف القمر ليلة السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر ، وغاب كله

وتحدث الناس بمجيء الخليفة المتـــقى لله إلى هيت ، وخرج القاضى الخرقى إليه فعرفه جميع ما جرى ، فسكن إلى ذلك ورجع القاضى إلى الأمير يعرفه فدخل بغداد يوم الثلاثاء للنصف من صفر

وركبت مع أبى جعفر فى الطيار ، فأعلم الأمير أنه يتلقى الخليفة بالأنبار ، فقدم الأمير الطيارات إلى باب الشماسيـة ، وقال للقاضى تعـبر بالخليفة من المزرفة وهى قرية بأعلى قطربل بفرسخين ، حتى يدخل بغداد من الماء ، ونصب الناس القباب بباب الطاق ، وأخرج الأمير توزون أثقاله وجماله إلى باب الأنبار ، وخرج يوم الأربعاء ، وأقام فى الطريق وسار يوم الخميس .

ولا والله ماسمعت بأعجب من أفعال المتقى لله كلها ، أول خطئه ، وتركه الرأى ، وركوبه العوز : تركه دار مملكته ، وخروجه عنها برأى الترجمان وأشباهه لغير سبب أوجب ذلك ، ولا اضطرار دعا اليه . [و]الأمير توزون إلى وقته ذاك مطيع له تابع لما يشتهيه ، عالم

مع ذلك أن الصواب والرأى غير ما تكلفه .

فمن ذلك : أن الأمير أقام بواسط ، ليستنظف الأموال بها ، فكتب اليه : « دع كل شىء ، وصر إلى ، ولعن الله المال ! » فراجعه فألح عليه فقدم ، فخلع عليه وأمره . وأشار الأمير عليه أن يصالح بنى البريدى إذ كانوا قد ظفروا بجيئه بكثير من المال . وقال: نستعجل الأموال منهم ، ونحن على أمرنا بعد ذلك . فخالفه ، وقال لا بد من محاربتك لهم ، وإزالة أمرهم ، وكان رأى الأمير صوابا ، فى هذا فترك الرأى ولم يخالفه

وانحدر هذا بعد أن قد كان كتب قبل ذلك بالايقاع بسيف الدولة ليريحه الله هو بذلك من ناصر الدولة ببغداد ، ولكرم الأمير توزون وحسن عهده ، ما ترك سيف الدولة حتى جاء لأسباب دعاها له ، ولو أراده ما فاته ، ثم ما عامله من الخروج عن بغداد يرى الناس أنه فزع منه ، وأن الامير عاص له

ثم ما حمل ابن حمدان عليه من محاربته مرة بعد مرة ، على كراهة ابن حمدان للحرب ، كل ذلك طمعا من المتقى فى إزالة الأمير عن مرتبته

ومنها أنه كاتب صاحب خراسان يستنجده عليه ، والأخشيذ بن طغج بمثل ذلك ، كل هذا هو فيه ظالم للأمير توزون ، ثم إقباله بعد ذلك حتى وضع يده فى يده ، ظن أن الأمير هو حدث أعجمى نسى هذا كله ، والله لو فعل [الرشيد] هذا بالمأمون فى حلمه وعقله ، وهو

ابن له ما احتمله !

وأعجب من ظنه بأنه لا ذنب له ونسيانه ما فعله : ذهاب الرأى عن جميع من معه ممن يدبره ، وما ذهب على العقلاء ، ولا على أهل الرأى . فلقد رأوا الذى فعله الأمير بالرأى قبل كونه

[أخر امر المتقى لله]

فكان قبض الأمير على المتقى لله يوم السبت لاحدى عشرة ليلة بقيت من صفر ، وكان هذا كله بغير علم أبى جعفر محمد بن يحى بن شيرزاد ولا اطلاع عليه ، ولا مشاورة له فيه ، ولا علم به إلا فى وقته

ولما توثق من المتقى لله فى المضرب ، نهب أصحاب الأمير عسكره ، فلم يفلت من جميع من كان معه أحد ، وخرج قوم لتلقيه فنهبوا

ووجه الأمير بصافى الخازن إلى دار ابن طاهر ، لاحضار أبى القاسم عبد الله بن المكتفى بالله ، وأخذ الخاتم من يد المتقى وسلمه إلى صافى

فصار صافى إلى دار ابن طاهر ، واستخرج عبد الله بن المكتفى بالله فألبسه ثيابا جاء بها معه ودفع إليه الخاتم وقلد سيف حمايل ، وصار إلى مضرب الأمير ، فعقد له الأمر ، وكحل المتقى لله فصاح فأمر أصحاب الدبادب فضربوا بها ، فصاح فلم يسمع صياحه ، بعد أن خلع نفسه وسلم الأمر إلى الخليفة عبد الله

وكان هذا كله يوم السبت بالعشى ، لاحدى عشرة ليلة بقيت من

صفر ، بل وجه فى طلب الخليفة أبى القاسم قبل أن يقبض على المتقى

وكان المتقى لله لما قرب الامير منه ، ولقيه ركب قبة نمور أهداها ابن طغج له ، فلما رآه الامير أكب على الأرض فقبلها بين يديه مرتين فقال له : اصعد معى ، فلم يصعد . وكان عديله خادم له ، فلما سايره وصار إلى السندية أحدق به الديلم ، فقبض بعضهم على لجام بغلته العمارية ، وعدل به ، فأنزل المضرب ، وتسلمت دوابه وجنائبه التى كانت تقاد بين يديه ، وأخذت خزائنه ، ونهب عسكره كله

وكان من أمره ما ذكرناه ، فكانت خلافته ثلاث سنين وأحد عشر شهرا ، أولها يوم الاربعاء ، لعشر بقين من شهر ربيع الاول سنة تسع وعشرين وثلاثمائة . وآخرها يوم السبت لاحدى عشرة ليلة من صفر ، سنة ثلاث وثلاثين وثلاثمائة

وما أعجب ما اتفق له من صحة الأخبار فيه ، جاءت الرواية أن عمر الحادى والعشرين من الخلفاء أقل من ثلثى عمر الذى كان قبله وأكثر من نصفه ، فكان كذلك

وذكر بليناس فى كتابه الذى ذكر فيه الكسوفات ، وهو كتاب قديم قد ألف فى قديم الدهر « أمر ملك بابل » فقال وأنا أحكى لفظه من كتابه ، ومن طلب هذا الكتاب وجد ما ذكرته فيه على ما شرحته إن شاء الله

قال بليناس : « انظر إلى سر غامض فى الكسوفات ، إذا كانت الشمس فى الميزان ، ووقع كسوف القمر ، وهو فى الحمل ، وزحل فى

السرطان والمريخ فى الجدى هلك ملك بابل »

فاتفق هذا الكسوف على هذه الصفة بعينها ، فكان بين الكسوف وبين هلاك المتقى لله أسبوع .

ذكر عمال المتقى لله وقت زوال أمره

أمير الأمراء : المظفر أبو الوفاء توزون

وكاتبه المدبر للأمور : أبو جعفر محمد بن يحيى بن شيرزاد . وعلى وزارته : أبو الحسين على بن محمد بن مقلة

وعلى شرطته ببغداد من قبل الأمير توزون : أبو بكر محمد بن جعفر النقيب . وعلى قضائه : أحمد بن عبد الله بن اسحاق الخرقى . وعلى كتبة ضياعه أبو العباس أحمد بن عبد الله الأصبهانى . وعلى الحسبة ببغداد : المعروف بالأسمر من أصحاب الامير . وعلى حجبته : أبو العباس أحمد بن خاقان المفلحى ، مولى أمير المؤمنين .

وإلى الاخشيذ أبى بكر أحمد بن طغج مولى أمير المؤمنين : مصر والشامات

وإلى الحسن بن عبد الله بن حمدان أبى محمد : الموصل وديار ربيعة وديار بكر وقردى وبَزِيدَى وبهذرا (١)

وإلى نوح بن نصر بن أحمد الخراسانى : خراسان

وبفارس والاهواز وكورها وقسمين ومناذر وسرق وأرجان

(١) لم نقف عليها فى ياقوت

على بن بويه . وأصبهان : الحسن بن بويه الديلمى ، وكانا يقيمان الخطبة له

وعلى الصلاة بالجانب الشرقى بمسجدى الرصافة ودار السلطان : الحسن بن عبد العزيز العباسى وولده

وعلى الصلاة بالجانب الغربى فى الجامع بمدينة أبى جعفر المنصور : ابن بريه الهاشمى من ولد المنصور

وعلى الصلاة بمسجد براثا : أبو الحسن احمد بن الفضل بن عبد الملك الهاشمى وابنه .

تمت أخبار المتقى لله ، وهو آخر ما عمله الصولى
من أخبار الخلفاء

والحمد لله العدل الذى لا يجور ، وصلى الله على محمد وآله وسلم وهو حسبنا ونعم الوكيل .

فهرس الاعلام

ب

ز

س

غ

ف

انتهى فهرس الاعلام

ويتلوه فهرس الاماكن والبقاع

فهرس الأماكن

د

ر

ز

س

ش

ص

ط

ع

ف

ك

تم

AKHBĀR AR RĀḌĪ WAL MUTTAḲĪ

FROM THE

KITĀB ALAWRĀḲ

BY

ABŪ BAKR MUḤAMMAD b. YAḤYĀ AṢ ṢŪLĪ

ARABIC TEXT

EDITED BY

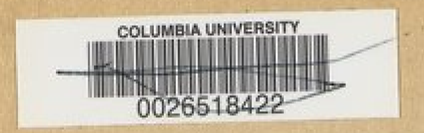
J. HEYWORTH DUNNE, B.A.
SCHOOL OF ORIENTAL STUDIES

SUBSIDISED BY THE
E. J. W. GIBB MEMORIAL TRUST

PRINTED AND SOLD BY
AS-SAWY PRINTING PRESS

CAIRO
103 SHARIH DARB-EL-GAMAMIZ

1354 — 1935


COLUMBIA UNIVERSITY
0026518422

